سلامه موسى

تربية سلامه موسى

العالم طيب ... إنى أباركك على الحياة

رامبو

١٩٥٨

الناشر
مؤسسة الخانجي بمصر
المكتب التجارى ببيروت
مكتبة المثنى ببغداد

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

فهـــرس

صفحة

فهرس

صفحة

من ١٩٤٧ إلى ١٩٥٧

المقـــدمة

ميلاد كل منا هو مغامرة مع القدر . نخرج إلى العالم بكفاءات وراثية لا تتغير من أبوين لم نخترهما . ونعيش فى وسط ، تتكون فيه نفوسنا وتملى علينا فيه العقائد وطرز السلوك ، قبل أن نستطيع أن نغيره . ثم تتوالى علينا الحوادث التى تقرر اتجاهاتنا فى الحياة وتقع بنا الكوارث التى نتكيف بها ونتزل على مقتضياتها . وعلى الرغم من أننا جميعاً نصاغ فى قالب البشرية ، فإن كلا منا فذ فى هذه الدنيا قد كتبت حظوظه ، أو أكثرها ، قبل أن يولد ، إن خيراً وإن شراً . ولذلك فإن قصة كل منا هى قصة فذة مفردة تستحق أن تروى وتقرأ .

وكلنا يحب أن يتحدث عن نفسه ، وأحياناً يسرف ويدمن فى هذا الحديث حتى يثقل على إخوانه . ولكن ، مع ذلك ، لا تكاد تخلو حياة إنسان مما يجدر ذكره للمغزى أو العبرة إلا إذا كانت حياة أبله قد مرت الاختبارات دون أن ينفعل بها . وواضح أن مثل هذه الحياة لا تزيد كثيراً ؛ من حيث المغزى أو العبرة ، على حياة البقول .

وأحياناً تضطرب العصور التى يعيش فيها المجتمع . فيبعث هذا الاضطراب وجداناً (أى وعياً) بالأخلاق والسياســة والاقتصاد والاجتماع ، فيذكو ، حتى العقل الخامد . ويتنبه ، حتى القلب الغافل . ونأخذ جميعاً فى التساؤل والاستطلاع . ونرفض التسليم بالقيم السابقة أو الطاعة للتقاليد الموروثة . ثم نتطلع إلى المستقبل ونحاول أن نخترع الأساليب الجديدة للعيش .

وقد قضيت عمرى إلى الآن (١٩٤٧) ، وهو يقارب الستين ، فى بقعة مضطربة من هذا الكوكب ، هى مصر . وعشت هذا العمر وأنا أرى انتقالها المتعثر من الشرق إلى الغرب أى من آسيا إلى أوربا . وعاينت مخاضها وهى تلد هـــذا المجتمع الجديد الذى لا يزال طفلا يحبو كما عاينت كفاحها للإنجليز المستعمرين وللرجعيين المصريين . وكل هذا يستحق أن يروى وأن يقف عليه الجيل الجديد .

وأنا إذن فى هذه السيرة لست مؤرخاً لنفسى فقط . إذ أنى حين أترجم بحياتى وأصف للقارئ كيف تكونت شخصيتى وكيف ربيت نفسى ، بل حين أعزو إلى نفسى بعض الفضل فى تحطيم المعابر التى كانت تصل يومنا بأمسنا ، أى بالقرون المظلمة ، وتحاول ربط تاريخ الغد الحافل بالاقتحام والشجاعة والرؤيا بتاريخ الأمس وهو مأساة حالكة بالظلم والفاقة والجهل والجبن ، فى كل ذلك إنما أروى تاريخ العصر الذى عشت فيه وتاريخ الجيل الذى كنت أحد أفراده .

ولكنى ، مع أنى سأروى تاريخ مصر أو أشير إلى الأعلام البارزة فيه مدة حياتى ، فإنى مع ذلك لن أكون الراوى الموضوعى . لأنى فى هذه السيرة ، سوف أنظر بعدستى الذهنية وأوثر الانفعال الذاتى على الحقيقة الموضوعية ، لأنى أترجم بالسيرة قصداً أولا ، وأدون التاريخ عرضاً ثانياً .

وواضح أن كل سيرة يرويها صاحبها يعيبها نقص هو الذاتية ، إذ يشق على أذكى الناس أن يحلل نفسه ويعرض لتاريخه ، التحليل والعرض ، الموضوعيين . ولكن هذا العيب هو أيضاً ميزة . لأن القارئ ينتفع بشىء آخر لا يجده فى الرواية الموضوعية ، يكتبها غيرنا عنا ، وهو أنه سيقف على وقع الحوادث فى الكاتب .

وقد يعيب الســـيرة الذاتية أيضاً أن مؤلفها لن يبوح بكل ما يعرف ، وخاصة إذا كان ما يجب أن يبوح به يتصل بأشخاص لا يزالون أحياء يكره أن يؤلمهم . وهناك أشخاص هم فى وجدانى الآن حين أذكرهم أحس أن أنفاسى تنهدات لفرط ما أساءوا إلىّ ولكنى لن أكتب شيئاً عنهم لأنهم لا يزالون أحياء . ويعيب السيرة الذاتية أيضاً أن كاتبها لا يحسن التحليل لنفسه لأن كثيراً مما يراه غيره فيه يعمى هو ، لذاتيته ، عنه . وأخيراً يعيب السيرة الذاتية أن مؤلفها سيثرثر كثيراً وقد يلغو عن صناعته كأنها كل شىء فى حياته . فالأديب يتحدث عن الأدب والطبيب عن الطب . ولكن قليلا من العناية بالتنبه الوجدانى عند الكاتب يؤدى إلى إصلاح هذا النقص .

ونحن ، حين نكتب تاريخنا بيدنا ، نمتاز من حيث أننا نكتب عن موضوع لا يعرف تفاصيله أحد مثلنا . وهذه ميزة كبرى وخاصة إذا حرصنا على ألا تغمرنا التفاصيل فنخطئ الأبعاد ولا نرى الغابة ، فى نظرة شاملة مترامية ، لأننا نشتغل برؤية الشجرة القريبة منا .

وقد يكون الدافع الأول لكتابة هذه السيرة أنى أحس ، إلى حد كبير ، أنى منعزل عن المجتمع الذى أعيش فيه لا أنساق معه فى عقائده وعواطفه ورؤياه . وعندئذ تكون هذه الترجمة التبرير لموقفى مع هـذا المجتمع وهو موقف الاحتجاج والمعارضة . فأنا أكتب كى أسوى حسابى مع التاريخ .

وكل حياة ، بصرف النظر عن الحياة البقلية البلهاء التى أشرت إليها ، تستحق أن تعرف وتروى أخبارها واختباراتها ، لأننا ، كما يجب أن نقرأ عن القمم التى وصل إليها العبقرى أو القديس ، كذلك ، يجب أن نعرف الأعماق التى هبط إليها المجرم . إذ أن كليهما إنسان ومن حقنا

أن نقف على مقدار العمق الذى تهوى إليه الطبيعية البشرية كما نقف على الارتفاع الذى تسمو إليه . ولذلك أيضاً يجب ألا نستصغر قيمة السيرة ، يكتبها المتوسط العادى وحتى المنحط الشاذ . لأن فى تخلفه عن اللحاق ، أو فى عجزه عن السبق ، عبرة قد يرجع مغزاها إلى المجتمع الذى عاش فيه فتقع تبعته على بيئته وليس عليه . وعندئذ تكون سيرته دعوة إلى هذا المجتمع كى يتغير ويتطور .

وحين يكتب أحدنا سيرته ، ويخلص بقدر ما تتيح له ظروفه ، يعرض ، من حيث لا يقصد ، للعوامل التى كونت شخصيته وربته . لأننا لا نتربى فى المدارس فقط . إذ تربينا أيضاً العائلة التى نشأنا فى أحضانها الناعمة أو بين أشواكها الخشنة . كما يربينا الشارع الذى اختلطنا بأبنائه ، ثم بعد ذلك ، أى بعد العائلة والمدارس ، نعيش نحو خمسين أو ستين سنة ونحن نتربى بالصحف التى نقرأ كل صباح وبالكتب التى نستنير بها . ثم بالعمل الذى نرتزق به . لأن هذا العمل ، بما فيه من حقوق وواجبات ، يكلفنا تكاليف مختلفة ، ويحملنا على الاختلاط والتعرف إلى الشخصيات البارزة ، التى كان لها أثر التوجيه الحسن أو السيء فى المجتمع . كما أن تتابع الحوادث وتغير الدنيا بالمخترعات الآلية أو الكيماوية ، ثم اختباراتنا ومحننا ، كل هذا له أثر التكوين والتربية . وكل من يكتب سيرته إنما هو الواقع يشرح للقارئ كيف ربى نفسه أو كيف ربته الحوادث . وليس معنى هذا أن التربية كانت حسنة . إذ ربما كانت سيئة . فإن المجرم قد انتهى إلى مأساته باستجابات ورجوع بينه وبين الوسط المادى والاجتماعى . ولو أنه استطاع أن يشرح لنا الحوادث التى انتهت به إلى الجريمة ويحلل مواقفه المختلفة من المجتمع ، لأخرج لنا كتاباً منيراً . ولذلك كل سيرة ، مهما يكن

« سائرها » تنفع وتنير ما دام كاتبها يكتب فى إخلاص وما دام على شيء متوسط من الذكاء يحمله على أن يبصر بالعوامل المختلفة .

و « تربية سلامة موسى » هى سيرتى أبسطها لقراء الجيل الجديد حتى يعرفوا ما لم يروه أو يختبروه من الحوادث التى مرت بنا فيما بين ١٨٩٥ و ١٩٤٧ . وأعود فأكرر أنها ليست تاريخاً وإنما هى وقع التاريخ فى نفسى. وسيرتى هى أولا وآخراً تربيتى . وقد اقتبست العنوان من هنرى آدمز ووجدت فى معناه مغزى قد ينتفع به القارئ .

وقد كتبت فصول هـذه السيرة فى سنتين ونشرت بعضها فى المجلات ، ولذلك قد يجد القارئ تكراراً ؛ لأن النية لم تكن فى الأصل تهيئة كتاب بل كانت مقصورة على اختيار بعض الحوادث التى مرت بحياتى مما يصح أن يكون له مغزى للقارئ أو يجد عنده اهتماماً ؛

الطفولة والصبا

رأيت القرن التاسع عشر بعين الطفولة . ورأيته وهو خلو من الغش لم يلابسه شيء من مخترعات القرن العشرين . وهذا مالا يستطيع أن يقوله أوربى لأن إيماءات القرن العشرين كانت تبدو واضحة فى أواخر القرن التاسع عشر فى أوربا . أما فى مصر فقد حدث العكس ، وهو أن تراث القرن التاسع عشر بل بعض القرون التى سبقته بقيت عالقة ببداية قرننا هذا . ومازلنا فى ١٩٤٧ نرى هذا التراث على أثقله فى طبقاتنا الفقيرة . وليس هذا من ناحية الوسط فقط حيث الفقر المذل ، بل من ناحية النفس أيضاً ، حيث الرضا بالحظ المقسوم والإيمان بالخرافات والتسليم بالنظم الإقطاعية كأنها الشيء الطبيعى لمجتمعنا .

أجل ! لقد ركبت الحمار من محطة القاهرة إلى عابدين ، ورأيت الجاموسة تحضر كل يوم من العزبة إلى منزلنا بالزقازيق كى تحلب ثم تعود . وضربت من أختى لأنى ناديتها باسمها من الشارع ؛ إذ كان يعد من الشعائر الاجتماعية العامة ألا تعرف أسماء الفتيات . وعشت فى الزقازيق حين لم تكن تعرف المصابيح ؛ حتى إننا كنا ، حين نزور بعض أقاربنا ، نحمل معنا « فانوساً » نسترشد به فى ظلام الشوارع . ورأيت أحد المجرمين يشنق فى ميدان الزقازيق ، وبقيت نحو عام وأنا أفزع من اسمه ، وكان يدعى « سيد أهله » . ولم أكن أستطيع النوم إلا وأنا متعلق بعنق أمى ، ولم أكن أستطيع الدخول فى المرحاض إلا بمرافقة الخادم لأن رسم المشنقة بقى حياً فى مخيلتى الصغيرة . وكان من

المألوف الذى كنا لا نحس فيه وخزاً أو عيباً أن يجرى خلفنا الفلاح نحو ساعة ونحن على الحمير وهو يلهث كأنه والحمار سواء .

وكانت لنا دار « قوراء » فى الزقازيق تتسع لحمار أو بغل فى فنائها الذى يستقبل السماء وتفرش أرضه أشعة الشمس . وكانت هذه المطايا أتومبيلات العائلة وفقا لشعائر القرن التاسع عشر . ولعل إرماد عينى فى صباى كان يعود إلى روث هذه البهائم .

والزقازيق بلدة جديدة لا يرجع تاريخها إلى أكثر من ثمانين عاما وجميع عائلاتها لهذا السبب ينتمون إلى بلدان أخرى . وكذلك كانت أسرتى فإنها ترجع إلى البياضية فى مديرية أسيوط ، وقد تركنا البياضية منذ نحو ١٤٠ سنة أى فى نهاية الحكم الفرنسى وبداية حكم محمد على . وأسرتنا فى مديرية الشرقية تعرف بلقب « العفى » ولا يزال هذا اللقب فى البياضية على الرغم من فرقة تقارب قرناً ونصف قرن . والأصل والفرع يعيشان فى يسر . ولكن ليس هناك أى تعارف بين أعفياء البياضية وأعفياء الشرقية . ولم نزر هذه القرية منذ ١٤٠ سنة .

أما لماذا هجر فرعنا الحاضر فى مديرية الشرقية هـذه القرية الصعيدية ، فإننا نجهل تفاصيله ، ولكنى أرجح هذا التفسير التالى :

لما غزا نابليون مصر فى أواخر القرن الثامن عشر انتعش الأقباط . ولم يكن الشعب المصرى ، مسلمين ومسيحيين ، يحس الوجدان (الوعى) الوطنى الذى نحسه فى عصرنا . وذلك لأن الوجدان الدينى كان يقوم مقامه . وفرح الأقباط بدخول نابليون واستطاعوا أن يجرءوا على تغيير ملابسهم وأن يرحلوا عن قراهم فى الصعيد إلى القاهرة وبلدان الوجه البحرى . وكانوا إلى ذلك الوقت يتعممون بالعمائم السود مع أزياء أخرى يختصون بها ويتخذونها مضطرين منذ القرون المظلمة . وكانت هذه

الأزياء الخاصة تمنع تنقلهم وارتيادهم مدن القطر . فلما جاء نابليون نزعوا هذا الزى واتخذوا الزى المصرى العام الذى كان ينفرد به إخوانهم المسلمون . وبذلك أتيح لهم التنقل : وأنا أعد هذا السبب الأصل لنزوح أبى جدى من البياضية إلى القاهرة ، ثم إلى القراقرة فى مركز منيا القمح ثم إلى الزقازيق .

ومما يؤيد هذا التفسير قول الجبرتى فى حوادث ١٢٣٣ هجرية :

« فيه نودى على طائفة المخالفين للملة من الأقباط والأروام بأن يلزموا زيهم من الأزرق والأسود ولا يلبسون العمائم البيض ؛ لأنهم خرجوا عن الحد فى كل شىء . ويتعممون بالشيلان الكشميرى الملونة والغالية فى الثمن . ويركبون الرهوانات والبغال والخيول ، وأمامهم وخلفهم الخدم يطردون الناس عن طريقهم . ولا يظن الرائى لهم إلا أنهم من أعيان الدولة . ويلبسون الأسلحة وتخرج الطائفة منهم إلى الخلاء ويعملون لهم نشاناً يضربون عليه بالبنادق الرصاص وغير ذلك . فما أحسن هذا النهى لو دام : »

ولكنه لم يدم كما اشتهى هذا العالم الأزهرى الجبرتى . ويبدو أن الأقباط والأروام عادوا فتوسلوا بالقناصل الفرنسيين والإيطاليين إلى محمد على فألغى هذا التمييز ، فاستطاع الأقباط أن يختلطوا بسائر الشعب وأن يرتحلوا وينتقلوا كما شاءوا . وواضح أن الأزياء السابقة التى كانوا يتخذونها منذ الحاكم بأمر الله كانت تجمدهم فى قراهم لأنهم كانوا إذا انتقلوا إلى مدينة غريبة صاروا عرضة ، على الأقل ، للتهزئة والتعيير ، إن لم يكن لأكثر من هذا .

وهجر أبو جدى قرية البياضية حوالى ١٨٠٠ أو ١٨١٠ فى عمامة

بيضاء . وكان هذا من الانتصارات الخطيرة للقرن التاسع عشر على القرون السابقة .

وجميع أفراد عائلتنا يعدون ، بحسب الترتيب المزاجي لكرتشمر ، انطوائيين ، يتسمون بالوجه الطويل والقامة النحيفة والاعتكاف أو كراهة الاختلاط . وأحياناً يبدو هذا المزاج فى مبالغة شاذة حتى أنى أعرف أشخاصاً فى أسرة العفى عاشوا كأنهم كانوا رهباناً يتوقون المجتمع ولا يحضر أحدهم عرساً أو جنازة إلا بضغط . وقد لا يجدى الضغط . ولكن هذا الشذوذ كان بالطبع نادراً .

ومات أبى ولما يبلغ عمرى السنتين . ونشأت لذلك فى بيت لا يزوره ضيف ، إلا إذا كان من الأعمام أو الأخوال ، فزادنى هذا الظرف انزواء على ما ورثت من المزاج الانطوائى . وقد صار هذا الانزواء بعد ذلك فضيلتى ورذيلتى معاً . فقد كانت تمضى علىّ السنة والسنتان لا أعرف فيها القعود على القهوة ، كما أنى إلى الآن أجهل ألعاب الحظ الاجتماعية البسيطة بالورق أو غيره مما يتسلى به غيرى كما أجهل التدخين . وما زلت أفر من المجتمعات فى استحياء أو كراهة . ومع أنى أحسن الكتابة فإنى أسيء الخطابة ؛ لأن الأولى تؤدى فى انفراد ، والثانية تحتاج إلى مجتمع . وقد عانيت كثيراً من هذا النقص الاجتماعى فى حياتى بعد ذلك . ولكنى أعزو إلى انطوائيتى هذا الاعتكاف فى مكتبتى ، وهو الذى بسط لى آفاقاً واسعة من الحكمة وأمتعنى بجنات نضرة وغرس فى نفسى ديانة بشرية سامية .

وأولى الذكريات التى تمثل فى ذهنى من أيام الطفولة ، صورة أمى وهى قاعدة إلى فراشى تصلى من أجلى وأنا مريض . ولا أعرف كنه هذا المرض الذى ألزمنى الفراش نحو عام أو عامين . والأغلب أنى

مرضت به وأنا فى الخامسة أو السادسة ، ولعله كان حمى الملاريا . لأن الزقازيق كانت فى ذلك الوقت حافلة بالبرك الآسنة . ولما قاربت الشفاء كان خادمنا عطية يحملنى إلى ضريح ولى مسلم يدعى أبا عامر . ولا يزال ضريحه قائماً بقرب الزقازيق . وكان يشترى الشمع ويتصدق بقروش ، ويدور بى حول الضريح ويتمسح به ويقرأ الفاتحة جملة مرات وأنا على عاتقه . وكان عطية متعلقاً بى يهمل شئون البيت كى يقعد بجوارى ويلاعبنى وأنا مريض . وبقى أكثر من عشر سنوات بعد ذلك بمنزلنا . وكان حبه لى ساذجاً يطغى ، فكان يلقمنى الطعام حتى أعجز عن البلع . وكان هذا العجز علامة الشبع عنده ، ولم يتركنا إلا بعد أن اشترى فداناً وآثر الفلاحة على الخدمة المنزلية .

ومما أذكره من تلك السنوات أى بين ١٨٩٥ و ١٨٩٨ أن وباء الكوليرا فشا فى الزقازيق . فكانت النعوش تخرج متوالية وليس وراءها سوى شخصين أو ثلاثة . وعم الذعر بين السكان ولكن توالى الموت كان أيضاً مجالا للفكاهات . وكنا نحن الصبيان أكثر السكان فكاهات ، فكنا نسير جماعات صغيرة فإذا سمعنا فزعة الموت بصراخ النسوة قابلناها بهيه .... ثم نجتمع أمام البيت كى نرى الشعائر الأخيرة . وكانت هذه الشعائر تجرى فى سرعة واقتضاب .

وكان مما يحدث أن بعض الصبيان الذين كانوا فى جماعتنا يقع هذا الوباء فى بيوتهم ، فيتركوننا . ولكننا لم نكن نضن عليهم بهذه المظاهرات . ولم يكونوا هم على وجدان بالمأساة إذ سرعان ما كانوا يعودون إلينا قبل أن ينفض المأتم ، وأعنى بالمأتم صراخ النسوة يجتمعن فى البيت . أما إقامة السرادقات للعزاء فلم يكن الوقت يتسع له لوفرة الوفيات .

وأدخلت الكتاب ، ولم تكن بدعة المدارس قد ظهرت فى الزقازيق . وقضيت من السنين ما لا أذكره وأنا أجهل القراءة . وكانت غاية العريف أن يعلمنى عن ظهر قلب بعض الصلوات ، فلما حفظت «نعظمك يا أم النور» ،وهو دعاء إلى العذراء ، رافقنى إلى البيت وقعد هو أمام أمى وانطلقت أنا أسرد الدعاء . وناولته أمى على أثر ذلك جنيهاً .

وتألفت فى الزقازيق جمعية خيرية من الأقباط ، وكان أول نشاطها أن أنشأت مدرسة « عصرية » أى إنه كان بها مقاعد من الخشب ومعلمون فى زى أوربى . وانتقلنا من الكتاب إليها . وشرعنا نتعلم وندرس فى جد . ثم ظهرت المدرسة «الأميرية» فدخلناها . وكان التلاميذ يلبسون الجلابيب إلى أن زار الخديوى عباس هذه المدرسة حوالى ١٨٩٩ فطالبونا باتخاذ الزى الأوربى . وحصلت المدرسة من كل تلميذ على ٢٥ أو ٣٠ قرشاً ثمن بذلة بيضاء لكل منا . وزارنا الخديوى ونحن فى هذا الزى الأبيض الناصع . ولم نعد بعد ذلك إلى الجلابيب .

ولا يستطيع مصرى التحق بالمدارس المصرية الابتدائية والثانوية الأميرية فيما بين ١٩٠٠ و ١٩٢٠ أن يقول إنه كان هنيئاً بالحياة المدرسية . فقد كانت هذه المدارس ثكنات . وكان كل مايستحق الاهتمام فيها هو النظام أى الطاعة . ولم نكن نعرف ذلك الروح الديمقراطى الذى يعم المعاهد التعليمية فى هذه السنين . وكذلك لم تكن هناك أية ألفة بين المدرس والتلميذ . وكانت هذه الصفات أبرز فى المدارس الثانوية منها فى المدارس الابتدائية ، حتى كان العام يمر والتلاميذ لا يعرفون اسم المعلم الإنجليزى الذى كان ينطق صمته قبل حديثه بالغطرسة ، وكان المعلم يسرع إلى العقوبة لأقل إيماءة مخالفة من التلميذ

وكانت العقوبة المألوفة أن يحرم التلميذ من الغداء ويعطى رغيفاً يأكله وهو واقف إلى جنب زملائه القاعدين إلى المائدة . ولست أظن أنه كان يقصد بهذه العقوبة سوى تعميم الذلة والهوان بيننا .

وكان التعليم فى المدارس الابتدائيه أقل ذلة ، لأن المعلمين كانوا مصريين ، ولكن حتى هنا كان القرن التاسع عشر يشب علينا بأساليب فى الضغط والعربدة . فكان المعلم أحياناً يعمد إلى أسلوب فى العقاب يفشى بيننا الكراهة والوقيعة . ذلك أنه إذا أخطأ أحدنا ورده تلميذ آخر إلى الصواب عمد هذا الثانى إلى لطم الأول على خده . فإذا تعطف هذا الضارب وأدى العقوبة تأدية شكلية استعاده المعلم وطالبه بالضرب الجدّى . فإذا انطلقنا بعد ذلك من الفصل إلى الفسحة أمسك المضروب بخناق الضارب وانتقم منه .

ولكننا كنا نهنأ بالإجازات المدرسية التى كنا نقضيها فى الريف . وهى لا تزال تبرز فى ذهنى كأجمل وأنصع ذكرياتى . وفى هذا الريف اكتسبت كثيراً من الاختبارات التى لا تتحقق لأطفال المدن . وكانت قريتنا تبعد عن الزقازيق نحو ساعة على الحمار . وكنا نلعب مع صبيان المزارعين إلى الساعات الأولى من الصباح . وأحياناً كنا ندبر السرقات فى الحقول للخيار أو البطيخ . ولا يزال عالقاً بذاكرتى بعض الاقتحامات والصبوات . فقد تسلقت ذات مرة شجرة كان فى أطرافها العليا عش . فلما بلغته وجدت فيه فرخى غراب . فأمسكتهما بيدى وشرعت أهبط . ولكنى ما كدت أترك العش حتى وجدت ثورة من اللطم المؤلم والعض الشنيع تغمر رأسى ووجهى . وطار عقلى وأنا فى هذا الاضطراب . فلم أتنبه إلى أن هذه الثورة هى أم الفرخين يساعدها أب أو عم . ولو كنت أدركت لخليت عن الفرخين ونزلت فى سلام . ولكنى

لفرط الألم والرعب بقيت فى غشية مغمض العينين وأنا ممسك بالفرخين أتحسس طريقى الخطرة على فروع الشجرة إلى أن مسست الأرض . وهنا أفقت وفتحت عينى فوجدت ثلاثة أو أربعة من الغربان تصرخ بى وتسب وتهاتر بعد أن أثخنتنى وضرجت رأسى ووجهى بالدماء .

ومرة أخرى فى إحدى جولاتى سمعت خشخشة فى ديس عند حرف القناة ، فلما اقتربت وجدت جحراً وظننت أنى قد هبطت على عش سأخرج منه بغنيمة . فلما أدخلت يدى قبضت على جسم طرى ، فجررته فإذا به ثعبان .

ولكن الريف لم يكن كله على غرار هذه المفازع . فإن مباهجه ، والأنسة الديمقراطية التى كانت تنعقد بينى وبين الصبيان الذين كانوا فى سنى ، والليالى التى كنا نحييها فى السمر أو اللعب ، والاستحمام فى القناة ، وركوب الفرس ، والجولة إلى السوق الأسبوعية ، ثم إلى ذلك معيشة الريف الساذجة ، كل هذا كانت تحفل به حياتنا فى الصبا . وكنا نجد اهتمامات تشغلنا . ولم تكن كلها صبيانية ؛ فإنى أذكر أن ولادة الجاموسة حركت عقلى وقلبى جملة أيام ، وما زالت صورتها إلى الآن ترتسم فى مخيلتى وهى فى حرج الولادة تئن وتلهث وتتلفت ، وجميعنا حولها فى عطف نتألم لها ، وكان بعضنا يدعو لها بالسلامة كأنها صديق من البشر ، حتى خرج المولود بعينيه الواسعتين وهو يترنح ونحن نسنده وأمه تحنو عليه وتلحسه .

وحصلت على الشهادة الابتدائية فى سنة ١٩٠٣ ، ولا أعرف بالضبط كم كان عمرى . لأن إثبات الميلاد لم يكن فى أيامنا من القواعد الصارمة . ولكن أغلب الظن أنى ولدت حوالى ١٨٨٧ ، ودخلت السنة الأولى فى المدرسة الأميرية وأنا فى الحادية عشرة وهى السن

التى نال فيها ابنى بعد ذلك هذه الشهادة ... ومع ذلك كنت أعد من صغار السن فى الفصول ؛ إذ كان بيننا من بلغوا العشرين .

وعندما أقارن بين ما تعلمته بالمدرسة الابتدائية بالضرب وسائر العقوبات بما تعلمته عفواً فى الريف من اختبارات فى الحياة ، أجد أن الريف قد علمنى أكثر وأكسبنى من المعارف الذهنية والروحية ما يعد تربية حقة ما زلت أنتفع بها إلى الآن . فقد اكتسبت من الريف هذا الحب للطبيعة الذى جعلنى أحس سائر حياتى أن الأرض هى الأم . وأكاد وأنا فى الريف أحس ، مثلما أحس ذلك الراهب فى قصة « الاخوة كرامازوف» لدستوئفسكى ، حين انبطح على الأرض يقبلها ، مثل هذه العاطفة المقدسة . وظنى أن هذه العاطفة هى المبعث الذى انبعث منه بعد ذلك وجدانى الدينى البشرى واستطلاعى الدائم لعالمى النبات والحيوان واهتمامى بشئون العمال .

وكانت حياتنا بالريف سليمة من الناحية الصحية . فإنه على الرغم من أننا كنا ندوس الحقول ونخوض القنوات بلا حذاء ونستحم فى القناة ، فإننا لم نعرف البلهارسيا أو الانكلستوما . وذلك لأن التربة لم تكن قد استشبعت بالماء كما هى الحال الآن ، بعد أن عمت مشروعات الرى التى أحالت أرض القطر المصرى كلها تقريباً إلى عزبة لإنتاج القطن دون أى اعتبار لصحة الفلاحين . وأذكر أن التربة كانت أيام الجفاف تتشقق ، وكان عرض الشق يزيد على عشرة سنتمترات ويغور نحو نصف متر . وفى مثل هذا الوسط لم تكن الديدان تستطيع الحياة . وكانت صحة الفلاحين سليمة وأجسامهم قوية . ولكن الإنجليز المتسلطين على بلادنا وقتئذ رأوا أن إنتاج القطن خير لهم من صحة الفلاحين .

وكانت الحياة الدينية أبرز من الحياة الاجتماعية أو المدنية فى العائلات القبطية . وهذا على عكس ما نرى الآن . فإنى أذكر أنه كان لعيد الميلاد ضجة عظيمه تمتاز بمقدمات ولواحق . وكنا نعد له الأيام ونتهيأ بالملابس والنقل والذبائح . وكانت تفد إلى بيتنا عجوز تقضى فى كل عيد نحو شهر لا أعرف أصلها ولكنى أذكر اسمها خريستا وكانت تقص علينا الأساطير البديعة كما تصنع لنا أنواعاً من الكعك المزخرف .

وقد ورث الأقباط التعاليم الكنسية كما كانت حين تجمدت فى الدولة البيزنطية فيما بين القرن الرابع والقرن السادس . ولذلك كانت «العذراء» بارزة بروزاً يبرر وصف الأوربيين للعقيدة المسيحية فى مصر فى نهاية القرن الماضى وأوائل الحاضر بأنها «ماريلوجية» . ولكن انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر استفز الكنيسة القبطية وأثارها إلى الوجدان المسيحى . وكثير من الأقباط يأسفون على انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر ويجدون فيه شقاقاً لم يكن ضرورياً . ولكنى أظن أنه لولا هذا المذهب لما تنبهت كنيستنا الأورثوذكية ولما استيقظت من نعاس القرون الماضية .

وكانت المرأة ، مسلمة أو قبطية ، تعيش فى ظلام الحجاب لا تجالس الضيوف من الرجال . وكان هؤلاء يزورون أو يزارون فى «منظرة» لا تشترك فى لقائهم المرأة . وكان البرقع عاماً لا تخرج امرأة إلا ووجهها مقنع . وأذكر أن أمى وأخوتى المتزوجات التزمن البرقع إلى حوالى سنة ١٩٠٧ أو ١٩٠٨ حين تركنه . وظنى أن هذا الترك كان من أثر البروتستنت أيضاً لأنهم كانوا ألتصق بالغربيين وأكثر أخذاً بطرقهم منا نحن الأقباط الأرثوذكس .

أمّي وإخوتي

لا أذكر أبى لأنه مات وأنا دون السنتين فى ١٨٨٩ ، ولكن جو البيت فى طفولتى كان حافلا بذكراه . فقد كانت أمى تصف سنة وفاته بـ « السنة السوداء » . وبقيت بذلته معلقة إلى الحائط جملة سنوات كما كانت يوم وفاته . حتى للقميص المنشى بياقته المتصلة لم يكن يبرح مكانه . وكنت أسمع القصص عنه . وقد بقينا عقب وفاته نتناول مؤخر مرتبه عشرين شهراً تقريباً . وهذا بالطبع غير المعاش . ومن هنا يعرف القارئ مقدار الإفلاس الذى كانت قد هوت إليه الحكومة : فقد كان الموظفون تتأخر مرتباتهم سنة أوسنتين . وكانت الرشوة تتفشى لهذا السبب . وكانت وظيفة أبى « رئيس تحريرات مديرية الشرقية » ولم يزد مرتبه على سبعة جنيهات ونصف جنيه ومع ذلك ترك لنا وقت وفاته أكثر من مئة فدان . وكان الثمن المعتاد فى تلك السنين عشرة جنيهات أو عشرين جنيهاً للفدان . وقد اطلعت على عقد بيع لجدى فى نحو سبعين فداناً (حوالى ١٨٤٠) وكان اهتمام الكاتب فى العقد بشأن أدوات الزراعة ، كالمحراث والنورج ، وأوصاف الماشية ، من بقرة إلى جاموسة إلى حمار ، أكبر جداً من اهتمامه بالأرض التى لم تستغرق سوى ثلاثة سطور بينما استغرقت الأشياء الأولى أكثر من أربعين أو خمسين سطراً . وكان اتخاذ البذلة الأوروبية جديداً فى تلك السنين ، أى قبيل وفاة أبى ، بين الموظفين . وكانت البذلة المألوفة شيئاً يسمى « السترة الاستامبولية » وكانت سوداء بين الردنجوت والبونجور . وكنا نسمع القصص التى تروى عن التجارب الأولى فى خلع الملابس القديمة

واتخاذ البذلة الأوربية . وكانت هذه القصص مجالا للتنادر والضحك .

والطفولة فى أيامنا كانت أكثر إمتاعاً ، ولكن أقل تنبهاً ، مما هى الآن . لأننا قضيناها فى الزقازيق والريف . وكانت الزقازيق تخلو من تلك الحركة الصاخبة الخطرة للتى ترى الآن فى القاهرة ، فكنا نجول فيها مطمئنين أو نخرج منها إلى الحقول المجاورة ، ولكن لم يكن هناك ما ينبه الذهن ويبعث الاستطلاع .

ومما أذكره وأنا فى الرابعة أو فى الخامسة أن شاباً يدعى زغبان غرق فى القناة التى أمام بيتنا . وأخرجت جثته ورأيتها محمولة على عاتقى أحد الشبان وخلفه عدد كبير من الرجال والنساء فى لغط وصراخ . ثم صار لزغبان هذا روح أو عفريت يتردد فى الظلام فنخوّف به ، وتذكره الأم لطفلها المشاغب فيسكت ويخنس .

حدث هذا حوالى ١٨٩٢ ، وفى ١٩٤٥ أى بعد ٥٣ سنة كنت أسير إلى هذه الفتاة . فسمعت من إحدى الأمهات اسم زغبان تخوّف به هذه الأم طفلها ، وهنا عبرة تفسر لنا نشأة الخرافات .

وعاشت أمى معى إلى ١٩١٦ حين ماتت فى الثالثة والسبعين . وكانت امرأة متدينة تعنى بالصلاة والدعاء وقت مرضى أيام الطفولة أكثر مما تعنى باستشارة الطبيب . وقد قضيت طفولتى وأنا فى ملابس سوداء أحمل عبئاً من التعاويذ يعوق الحركة الحرة ، بل لا تزال فى أذنى علامة الخرم الذى علق به قرط إيهاماً بأنى لست غلاماً بل بنتاً حتى تتقى بذلك العين . وقد رأيت وأنا أقرأ « الأرض الطيبة » لبيرل بك أن هذه العقلية تسود الصينيين أيضا . فإن الأم فى هذه القصة تتحدث عن ابنها كأنه بنت حتى لا تصيبه الآلهة بالعين . وقيمة الذكر تزيد على قيمة الأنثى كلما انحط شأن المرأة . ولذلك كان

للغلام ، ولا يزال إلى حد كبير ، مكانة كبيرة فى مثل الصين أو الهند أو مصر يمتاز بها على أخواته البنات .

وجميع الأمهات المصريات اللاتى ولدن قبل مئة سنة لا يختلفن . فهن طراز واحد من حيث الأمية والإيمان بالخرافات واحترام التقاليد والتزام الحجاب . ولكن إذا كان النور قد نقصهن فإن الطيبة لم تكن تنقصهن . لأن المطامع المالية الحاضرة لم تكن معروفة والتفاخر بالأثاث والأزياء والمقتنيات لم يكن أيضاً معروفاً إلى الحد الذى بلغه اليوم . ولا أذكر يوماً رأيت أمى تأكل وحدها إذ كان على الدوام هناك امرأة أخرى فقيرة تتغدى معها .

وقد تركت أمى فى نفسى ذكريات من الحنان لاتزال تعود إلى ذهنى فتغمرنى بلذة أليمة . فما زلت أذكرها وأنا فى طفولتى ، وأنا فى الحمى أتقلب وأستيقظ فى فترات فأراها قاعدة إلى جنبي تدعو وتصلى كأنها قد نسيت النوم . وكانت فى سذاجة عقائدها ، حين كنت أودعها للسفر إلى القاهرة وأنا بالمدرسة الثانوية ، تناديني عقب خروجى من الباب وتصر على أن أدخل البيت ثانية ، كأن فى هذا رمزاً إلى عودتى سالماً بعد السفر . وكان أكثر إلحاحها علىّ قبيل موتها أن أتزوج . ولذلك فى ليلة العرس ، وأنا قاعد إلى جنب عروسى فى الزفاف ، فى ١٩٢٣ ، بعد موتها بسبع سنوات ، تذكرت إلحاحها وغيابها فارتعشت وانتفض جسمى وطفر الدمع الذى لم أجرؤ على مسحه . ولكن عروسى أخبرتنى بعد أيام أن بعض الحاضرين للزفاف يقولون إنى كنت أبكى .

وأنا أصغر إخوتى . ولذلك لا أذكر اثنتين من أخواتى بالبيت لأنهما تزوجتا قبل أن أبلغ وجدانى . وكل ما أذكره عنهما أننا كنا نرحل مع والدتى إلى مقرهما فى ميت غمر بالهدايا من الخراف والدنادى

والفواكه والنقل . ونحمل كل هذا معنا على العربات إذ لم يكن بين الزقازيق وميت غمر خط حديدى . وظنى أن هذا كان يقع فيما بين ١٨٩١ و ١٨٩٥ . ولا يزال لميت غمر أثر نضر فى ذاكرتى . ذلك أنه كان يقصد إليها الغليون من أثينا أو أزمير أو بيروت . والغليون هو سفينة شراعية تحمل نحو عشرة أو أكثر من الأشرعة ، وكانت تجتاز البحر المتوسط ثم النيل إلى أن تصل إلى دمياط فالمنصورة فميت غمر فبنها فالقاهرة ، وتحمل معها جميع المتاجر من تركيا ويونان ولبنان . وكانت ترسو إلى الشاطئ فكنا نقصد إليها نحن الأطفال ، مع مئات من الكبار ، ونشترى النقل والفواكه المجففة والحلوى الطحينية . وكانت تبيع كل شيء تقريباً حتى ملابس الأطفال اليونانية اللونية فى أحمرها وأصفرها وأخضرها . وكان رسو أحد هذه الغلايين أشبه بالأعياد لأن المدينة كانت تهرع إليه وتشترى حاجتها ، فتطن الشوارع بالحركة .

أما أختى الثالثة فلا أذكرها بالبيت ، ولكنى أذكر ضجة العرس التى علقت بذاكرتى لما كان فيها من موسيقا وثريات وسرادق يملأ الشارع أمام البيت ، وبقى هذا السرادق نحو سبعة أيام أو أكثر . وانتعشنا فيه باللعب والسهر .

أما أختى الصغرى فهى الرابعة وأذكرها بنتاً بالبيت قبل زواجها وكانت تقودنى إلى الكتاب ثم تأتى إلىّ وقت الانصراف وتعود بى إلى البيت . وكانت بيننا ألفة دامت سنوات إلى أن تزوجت وتركتنا . ويبدو أنى أسأت الاستعمال لهذه الألفة . ففى ذات يوم وقفت فى الشارع أمام البيت وناديتها باسمها كى تفتح لى ، فما أدرى إلا وقد انفتح الباب وانهالت هى علىّ ضرباً ، لأنى ناديتها باسمها ، لأن الحجاب كان

لا يزال يغشى بيوتنا . وكان يقضى بألا تذكر أسماء البنات كما يجب ألا ترى وجوههن ، وظنى أنها حجزت بالبيت منذ العاشرة وأفسد هذا الحجاب برنامج تعليمها . فقد كانت بالزقاريق مدرسة قبطية للبنات ولكن الرجعية الاجتماعية حالت دون الانتفاع بها . ولذلك لم تتعلم واحدة من أخواتى إذ كن يحجزن بالبيت وهن حول العاشرة . .

وهذه الألفه التى دامت سنوات الصبا بينى وبين أختى الصغرى بالبيت بقيت حباً وصداقة إلى يوم وفاتها فى ١٩٤٤ حين قعدت أمامها وهى فى عذاب الذبحة الصدرية تكافح الموت إلى أن غشيتها غيبوبة الليل الطويل . وما زلت أذكر تلك الساعات المؤلمة التى كانت تهيأ فيها للاحتفال بالزواج . فإنى لم أكن على وجدان بأنها ستفارقنى وكنت مغتبطاً بضجة العرس زائطاً . أما هى فكانت تخطفنى وأنا أمر عليها أعـــدو وأزأط فتعانقنى وتلهث وتشهق بالبكاء . وبقينا إلى يوم وفاتها ونحن نتزاور مرة على الأقل كل أسبوع .

وفى الوسط العائلى المصرى يسود الوئام والحب اللذان لا يفسدهما سوى المطامع المالية من أحد الأعضاء . ولكن أحياناً تسود الشهامة : فقد كان أبى موظفاً فى مديرية الشرقية . وكان هناك قانون يحرم على الموظف أن يشترى أرضاً فى المديرية التى يعمل فيها وذلك تلافياً من استعماله وظيفته وسلطته لمصلحته الخاصة . فكان أبى يشترى الأرض ثم يسجلها باسم أحد أولاده . فلما مات كان معظم أرضنا مسجلا باسم البنتين الكبريين ، اللتين تزوجتا فى ميت غمر . وكان الزوجان شقيقين : وكان أبوهما غبريال سعد بك رجلا شهماً . فلما رأى أن ثروة أبينا توشك أن ينتقل كثير منها إلى زوجتى ابنيه أى أكثر مما تستحقان انتظر حتى بلغت أختاى سن الرشد ثم جمعهما مع زوجيهما وحملهم

جميعاً على التنازل لى أنا وشقيق . وكنت أنا فى الثالثة أو الرابعة وشقيقى فى السابعة أو الثامنة . وقد سمعت من أمى بعد ذلك بسنين أن هذا الرجل الشهم لم يبال أن ينتهر ابنيه حتى يجبرهما على الموافقة على التنازل . ويدهى أن مثل هذه الشهامة نادرة فى أيامنا . ولا بد أيضاً أنها كانت نادرة وقتئذ . ولذلك فإن فضل هذا الرجل عظيم ، وقد بورك له فى عائلته حتى أصبح نسله يعقوبياً يتجاوز المئات عداً ، وكلهم تقريباً ناجح موفر المال والعمل والكسب .

والراضون عن النظام الاقتصادى الحاضر فى مجتمعنا الاقتنائى كثيراً ما يذكرون العائلة وأن نظامنا يؤيدها . مع أنه لا يفكك العائلات ويضع البغض مكان الحب بين أعضائها سوى الخلافات المالية التى تلابس هذا النظام . وقل أن تجد عائلة متوسطة أو ثرية بلا خلاف مالى بين أعضائها مرجعه طمع أحد أعضائها ورغبته فى الاستئثار دون الآخرين . ولم تنج عائلتنا من هذه الخلافات التى سوّدت العلاقات . ولو أننا كنا نعيش فى نظام اشتراكى ومجتمع تعاونى غير اقتنائى لما كان هناك مجال لهذه الخلافات التى تكاد تعم العائلات فى أيامنا . وإنى أذكر السنوات الطويلة والعناء العظيم الذى أنفقناه فى خلافات كان منشؤها امتياز واحد على آخر أو طمع واحد فى آخر . وكلها مطامع مالية ماكانت لتكون لولا أننا نتعلم منذ الطفولة بأن هذا لى وهذا لك . وإننى يجب أن أتفوق عليك فى اللعب والعمل وفى المدرسة والمجتمع : روح خبيث يقال لنا إنه يعمل للرجولة مع أنه يعمل للعداوة والبغض والحقد . وقد لقيت أختى الصغرى عناء بل سرقة صريحة من بعض أعضاء عائلتنا . ولم يكن المرتكب لهذه السرقة يحس أنه مجرم بل كان يتباهى لأن روح المباراة ، هذا الروح الاقتنائى الذى ننشأ عليه ، قد

أكسبه هذه العقلية . وكلنا مغموسون فى هذا الفساد بدرجات متفاوته . ولذلك قل أن نجد مثل ذلك الرجل الشهم الذى أشرت إليه غبريال سعد بك يعارض هذا الروح الاقتنائى ويطلب الخير لغير أبنائه .

وجميع العائلات المصرية موبوءة بالشقاق الذى يرجع إلى مطامع ثم خلافات مالية بشأن الميراث أو الوصية أو الوقف . وقد عرفت عائلات بقى الخلاف فيها بين الإخوة نحو عشر سنوات وهم مشتتون فى المحاكم الأهلية ، ثم المحاكم المختلطة ، إذ كان أحد الإخوة يعمد إلى أجنبى مشاكس فيأجره على المعاكسات التى تنقل القضايا من المحاكم الأهلية إلى المحاكم المختلطة وتصل إلى الإسكندرية . يفعلون هذا وينقطع كل منهم عن زيارة الآخر وتنمحى عاطفة الأخوة بينهم فيعودون أعداء يبحث كل منهم عن دماء الآخر . ولا أكاد أجد عائلة تخلو من هذه الخلافات إلا إذا كانت تخلو من العقارات الموروثة . فقد عرفت عائلة مسلمة قريبة من عزبتنا ترك الأب فيها للورثة أكثر من ١٥٠ فداناً ، ثم جعلها وقفاً وعين ناظراً للوقف أكبر أبنائه . ثم فشا الخلاف بين الورثة وكانوا يزيدون على عشرة . فلم يكن من هذا الناظر إلا أن أجر الأرض الموقوفة كلها إلى رجل يونانى أو إيطالى . وجاء هذا الرجل إلى الأرض يزرعها بنفسه ، وأصبح الورثة يتضرعون إليه كى يعطيهم نصف أردب من الذرة أو القمح أو جنيهاً أو جنيهين . . . وأعرف رجلا آخر كان ثرياً « باع » أرضه لورثته . ولم يكن الغرض من هذا للبيع سوى التمييز لبعض دون بعض . وكان هذا البيع بالطبع صورياً . وكان يعتقد أنه سيبقى متصرفاً إلى يوم وفاته . ولكنه عندما قصد إلى عزبته ، عقب البيع ، كى يبيع القطن ، قابله الخولى وأخبره بأنه لا يملك شيئاً لأن ابنه الذى « اشترى » منه يمنعه من التدخل

فى أرضه ، وحزن الرجل واحتقن الحزن فى قلبه فأصابه فالج مات به بعد أقل من شهرين .

وأيام صباى يملأها شقيقى الذى يكبرنى بأربع سنوات . وكنت أعده بطلا بجراءاته واقتحاماته . وقد ذهبنا معاً إلى كتّاب مسيحى ثم إلى كتّاب إسلامى . ثم عدت إلى كتّاب مسيحى . وخرجت من هذه الكتاتيب الثلاثة بعد ثلاث أو أربع سنوات وأنا لا أحسن قراءة سطر . وإنما أحفظ عن ظهر قلب بعض الصلوات المسيحية وبعض سور القرآن . ولم أشرع فى القراءة إلا بعد أن دخلت المدرسة الابتدائية التى أنشأتها الجمعية الخيرية القبطية فى الزقازيق .

وكان شقيقى طفلا ذكراً بعد بنات أربع . وأذكر من بعض اقتحاماته أنه ألف فى الزقازيق عصابة كنت أنا أحد أعضائها . وألف على الشمسى (باشا) عصابة أخرى . فنى ذات يوم انفردت بنا عصابة على الشمسى وأوسعتنا ضرباً وإيلاماً لخصومة كانت قائمة بينه وبين شقيقى . ولكننا بعد ذلك استدرجنا على الشمسى إلى طريق ناء شمال الزقازيق ثم أثخناه بالعصى والأحجار حتى عاد مريضاً . وكان والده أمين الشمسى باشا يعرف عائلتنا لصداقة قديمة بينه وبين أبى . ولم أكن أمر عليه وهو أمام منزله حتى أقبل يده فيسألنى عن أعضاء عائلتنا . وكان فيما بين ١٨٩٥ ، ١٩٠٠ مغضوباً عليه من رجال الحكم لأنه كان عرابياً فى ثورة ١٨٨٢ إذ انضم إلى الحركة الوطنية ضد الخديوى توفيق مع أنه كان شركسى الأصل . وكان الصراع بين عرابى والخديوى صراعاً ، إلى حد بعيد ، بين الأتراك والشركس من جانب وبين المصريين من جانب آخر . ولكن أمين الشمسى باشا عرف عدالة المطالب المصرية وانضم إلى العرابيين .

ولما كنت فى انجلترا فى ١٩٠٨ أرسلت إليه خطاباً أقترح عليه فيه إنشاء مدرسة لتعليم أبناء الفلاحين الذين يعملون فى أرضه وأرضنا وكنا متجاورين . لأن عزبته كانت ملكا لجدى ولا يزال اسمها « كفر سليمان » باسم جدى . وأرسلت مثل هذا الخطاب إلى كبراء المالكين من عائلتنا ، ولكن خطابى لم يجد سوى التسلية عندهم جميعاً لأن الوجدان التعليمى كان لا يزال فى مصر خامداً . ولم يكن خطابى سوى ثمرة الوسط المتمدن المتنبه لقيمة التعليم فى لندن .

وقد باع جدى « كفر سليمان » هذا إلى الشمسى باشا قبل أن أولد أنا بنحو ١٥ سنة (حوالى ١٨٧٢) . ولكنى نشأت على الاصطلاح بأنه « الكفر القديم » وهو يبعد عن كفرنا الجديد بنحو كيلو متر . وقد زرته وأنا طفل مع بعض أقاربى فأرونى بيتاً أو زريبة كانت تسمى « بيت العبيد » أى المكان الذى كان يحجز فيه العبيد فى الليل ويقفل عليهم حتى لا يفروا . . .

وبالطبع لم تكن فى أيامى عبودية ولا عبيد . ولكن الذكرى كانت قريبة . فإنى وأنا طفل كنت أخوَّف بكلمة « فرج » وهى اسم عبد مات فى إحدى غرف المنزل وبقيت ذكراه تتسلسل للتخويف من إخوتى إلىّ . وكذلك رأيت امرأتين سوداوين إحداهما كعب الخير والأخرى زهراء . وكانتا جاريتين عندنا شملهما قانون تحرير العبيد ولكنهما لم تنقطعا عن زيارتنا . بل كانت إحداهما تقضى الشهور ، عندما تترك زوجها ، فى بيتنا . وكانت تكل إلى أمى مفاوضات الصلح مع زوجها حين كان يعود لطلبها .

وكانت بينى وبين شقيقى نحو أربع سنوات . فلذلك لم تكن بيننا رفقة أو زمالة . وقد وجدت هذه الرفقة والزمالة فى ابن خالة لى يدعى

ميخائيل . وكان من سنى . وقد ترافقنا طفلين ثم صبيين ثم شابين . ومن الذكريات البارزة فى صباى مدينة بسطة الفرعونية . فقد كنت أزورها مع ابن خالتى هذا حين كانت لا تزال بيوتها قائمة . والغرف فى بعض هذه البيوت كانت لا تزال تحتفظ بجوها الحميم حتى مكان المسرجة فى الطاق كان واضحاً بسواد دخانها . وكانت الشوارع الضيقة سالكة بين البيوت . وهذا إلى عشرات من التماثيل الحجرية ، ولم يبال الإنجليز أن تمحى هذه المدينة مع قيمتها التاريخية العظمى ، إذ جعلوا بيوتها وأنقاضها سماداً « كفرياً » ينقله الفلاحون إلى حقولهم . ولم يعد لها من أثر الآن .

وكان ميخائيل يسكن فى بيت يجاور منزلنا ، فلم نكن ننفصل طوال النهار ، وإليه أعزو نزعتى الثقافية ، فقد كان منذ صباه يحب الشعر ويتفصح وكنت أعجب بفصاحته . وكنا نشترى المؤيد ونقرؤه معاً . بل تجرأنا ذات مرة على أن نؤلف درامة جعلنا فيها البطل ملكا يقص حلماً على المسرح ثم يتحقق هذا الحلم . ولكننا لم نثابر إلى النهاية فقطعناها فى منتصف الفصل الأول . وقد ثابرت أنا بعد ذلك على الدراسة وانقطع هو عنها . ولكنه لم يقاطعها . فإنى ما زلت إلى الآن عندما ألتقى به أجد فيه الالتفات إلى الحركات الأدبية بل أجد النقد الذكى . ولكن من ينظر إليه هذه الأيام لا يعتقد أن سنه تزيد على الأربعين مع أنها لا تقل عن ٥٩ أو ٦٠ سنة . وقد يعزو بعضهم هذا الشباب إلى حياة السرور التى كان ولا يزال يؤثرها على أى اهتمام آخر . وبقينا مترافقين مدة التعليم الابتدائى ثم افترقنا حيث توظف هو والتحقت أنا بالمدارس الثانوية بالقاهرة . ولكنا كنا أيام الأجازات لا نفترق . وقد اهتززت سروراً وتأملا قبل سنتين عندما زارنى بالقاهرة أحد الأقارب المزارعين ورأى حولى مئات الكتب . فتأملها

ثم تنهد وقال : « لم يغرس فيك هذه العادة المرذولة سوى هذا الملعون ميخائيل ابن خالتك . » وقد قال هذه الكلمة الصادقة لأنه كان يرانا فيما بين ١٩٠١ ، ١٩٠٤ نقرأ معاً وندرس معاً فى هوس لم يكن يجد فيه هو سوى خسار المال والذهن والوقت .

ولا تزال ذكريات الصداقة والرفقة بينى وبين ميخائيل عذبة فى ذهنى . ولم أعرف صديقاً بعد ذلك لازمنى وتناسقت معه فى الصداقة المنيرة المربية سوى عزمى الدويرى الذى عرفته فى ١٩٣٠ وفقدته فى ١٩٤٤ . وكان فى بداية صداقتنا خاماً أخضر فى ثقافته يقرأ الكتب العربية ويستضىء بمصابيح خافتة . ولكنه بعد أن عرف المؤلفين الأوربيين انغمس فى المذاهب الأوربية والسياسية الجديدة واستضاء ذهنه بها وصار يمتاز بالعقلية العالمية . وجرّ عليه هذا النور الجديد عسفاً من البوليس السياسى لم يباله . وكنت كثيراً ما أذكره بإعجابه القديم بأدباء البهرجة البلاغية ثم احتقاره لهم بعد ذلك فيضحك كثيراً . بل الحق أنه استحال بعد أن عرف الآداب الأوربية خصما لهم يعد وجودهم عائقاً لتطورنا الثقافى والسياسى . وظنى أن هذا هو اختبار جميع المنتقلين من الأدب العربى إلى الأدب الأوربى حين يقرأونه فى لغاته الأصلية غير مترجم . وقد ترك موت عزمى فى نفسى لوعة لما تنطفىء .

وقد رأيت أخواتى يمتن واحدة إثر الأخرى . والموت يفقد لذعته عند ما تكون السن متقدمة لأن الرحلة الأخيرة إلى الليل الطويل تسير هوناً والموت يأتى على ترقب . ولكن عندما كان الموت يفجأ إحداهن وهن لا يزلن فى بداية العقد السادس أو السابع كان وقعه فى القلب ووطأته على العقل يحدثان جموداً كأنه كابوس اليقظة ، ولكن السنين تحيل بكيمياء الزمن هذه الكوارث حتى إنى عندما أذكرهن الآن أحس الحزن عليهن فى حنان ورقة وليس فى ألم وغضب .

وأستطيع الآن أن أعرض لجميع الشخصيات البارزة فى عائلتنا ، سواء أكان هذا البروز للفضيلة أم للرذيلة ، وهذه الشخصيات هى الآن فوق الخمسين أو الستين . وعندما أرجع بذاكرتى إلى أيام طفولتهم وإلى الظروف البيئية الأولى التى سعدوا أو تعسوا بها أجد التعليل الكافى لسلوكهم الحاضر . وأستطيع أن أقول ، فى ضوء ما أعرف من سيرتهم ، بل أحياناً سيرتهم الحميمة ، إن التعاسة الأولى التى ينكب بها أى إنسان فى حياته إنما هى التدليل . وأن التعاسة الثانية هى الاضطهاد . فجميع أولئك الذين لقوا تدليلا أو اضطهاداً فى عائلتنا أيام طفولتهم فسدوا . ومعنى « الفساد » هنا ليس العجز عن الكسب أو حتى العجز عن الانتصار المألوف فى معركة الحياة . ولكنى أعنى ذلك الفساد الاجتماعى الذى يقارب الإجرام بل هو إجرام تخفيه رفاهية العيش . فإن الشخصية السيكوباثية التى وصفها صديقى الدكتور صبرى جرجس فى كتابه واضحة فى عائلتنا فى جميع أولئك الذين لقوا تدليلا أو اضطهاداً أيام طفولتهم . وقد يقع الاضطهاد لأن زوجة الأب أساءت إلى ابن زوجها فى المعاملة وميزت عليه أطفالها دونه فعلمته المكر والخبث والكذب والغش . فنشأ على هذه الأخلاق التى صار يعامل بها المجتمع . ولكن فى ذهنى زوجة أب أخرى عاملت ابن أختى الدكتور رزق الله موسى فى طلخا بالنزاهة والرفق والحب ، فنشأ قديساً . وفى ذهنى آخر فى الخامسة والستين من عمره دلله أبواه فنشأ وكل حياته جرائم . ولكن أولئك الذين وجدوا النزاهة والإنصاف فى التربية أيام الطفولة هم إلى الآن ، فى شيخوختهم ، مثال الطيبة والإحساس الاجتماعى السامى .

القاهرة فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧

فى عام ١٩٠٣ اجتزنا امتحان الشهادة الابتدائية ، وكنا فى القطر كله لا نزيد على ثلاثمائة أو أربعمائة تلميذ . وعقد الامتحان فى القاهرة ؛ ولم يكن بالقطر كله سوى ثلاث مدارس ثانوية كانت فى نظامها ثكنات يتسلط عليها الإنجليز بالأوامر العسكرية والعقوبات العسكرية . والتحقت بالمدرسة التوفيقية ثم بالمدرسة الخديوية ، وكان شمال المدرسة التوفيقية وشرقها وغربها أرضاً زراعية لا يباع الفدان فيها بأكثر من مائتى جنيه وقد ارتفع سعر الفدان الآن (١٩٤٧) فى هذه الأرض بالذات إلى نحو عشرين ألف جنيه . ولم يكن للمالكين أى فضل فى هذا الثراء ولم يتعبوا لإيجاده ، إذ أن الفضل لسكان القاهرة وتقدم المدنية .

وكان الإنجليز يحاربون شيئين فى الأمة لا ثالث لهما . وكانوا يكفلون بقاءنا فى ظلام الجهل وذلة الفقر بهذين الشيئين ، وهما التعليم ، والصناعة . ونجحوا فى ذلك نجاحاً عظيما ؛ فلم يسمحوا طوال إشرافهم على وزارة المعارف بإنشاء مدرسة ثانوية للبنات فى أى مدينة من مدن القطر . وكانوا يعلموننا أن بلادنا زراعية لا تلائمها الصناعة ، كأن القدر قد قضى علينا بالفقر الأبدى . وكانوا يصرون على المحافظة على « تقاليدنا » . فكانت المدرسة السنية الابتدائية فى القاهرة ، وكانت ناظرتها إنجليزية ، تصر على اتخاذ البرقع للتلميذات وهن فى العاشرة أو الثانية عشرة من العمر . وكان معلم اللغة العربية يفصل من وزارة المعارف إذا نزع عمامته وقفطانه واتخذ البنطلون والجاكتة . وتقدمت الآنسة نبوية موسى لامتحان الشهادة الثانوية فى سنة ١٩٠٧ من

بيتها ، فرفض دنلوب المستشار الإنجليزى لوزارة المعارف قبولها فى الامتحان . ولكنها استمرت على الكفاح وأحدثت ضجة فى الجرائد ، وتقدمت فى السنة التالية فقبلت ونجحت . ولكن الإنجليز تنبهوا . فلم تفز فتاة مصرية بالشهادة الثانوية منـــذ ١٩٠٨ إلى ١٩٢٩ حين تقدمت الفتيات اللاتى أنشأت لهن وزارة المعارف مدرسة ثانوية فى ١٩٢٥ أى بعد إعلان الاستقلال بسنتين .

وكانت التلمذة فى المدرسة الخديوية فيما بين ١٩٠٣ و و ١٩٠٧ سلسلة من التعذيب . فكان أحدنا يعاقب طوال العام الدراسى بالحضور يوم الجمعة فى المدرسة حتى لا يهنأ بالأجازة الأسبوعية . وكان من العقوبات المألوفة أن يحضر أحدنا فى منتصف الساعة السابعة صباحاً أى فى الظلام مدة الشتاء ، ثم لا يترك المدرسة آخر النهار إلا بعد الحبس ساعة أو أكثر . وقد يكون السبب الوحيد لكل هذه العقوبات أن المعلم الإنجليزى قد طلب من التلميذ أن يقعد فوقف ، أو يقف فقعد . وقد تكون هذه المخالفة محض التباس لا أكثر . ثم يتأخر المسكين فى الحضور فى الساعة السادسة والنصف صباحاً ، فيزاد عقوبة والزيادة تتراكم . وهذا إلى عقوبات أخرى مهينة مثل حرمانه من الغداء إلا برغيف يأكله وهو واقف أمام زملائه .

وكان ناظر المدرسة يدعى شارمان ، وكان يتأنق فى تعذيبنا . وحدث أن الجمعية الخيرية الإسلامية أرسلت على نفقتها بعض تلاميذها من مدارسها الابتدائية . وكانت تشترى لهم ملابسهم فى شكة صفراء واحدة . وكان هؤلاء المساكين يخجلون من هذه الملابس الرخيصة . واشتروا غيرها من الملابس المألوفة ، حتى لا يتميزوا بفقرهم أمام

زملائهم . ولكن شارمان أصر على أن يلبسوا ملابسهم التى تصمهم بالفقر ؛ فلبسوها وكانوا ينزوون منا فى خجل .

ولست أشك أنه حين أعلنت الجرائد وفاة شارمان هذا ، غرقاً فى أواخر الحرب الكبرى الأولى ، عم الفرح جميع القارئين الذين كانوا تلاميذه . وقد يستنكر القارئ هـذه العاطفة منا . ولكنى أؤكد أن التلمذة فى تلك السنين كانت عذاباً لا يطاق . وكان للمعلمين الإنجليز لذة فى تعذيبنا . وكانت العلاقة بيننا وبين هؤلاء المعلمين خالية من الإحساس البشرى ، حتى لقد كنا أحياناً نجهل اسم المدرسين طوال العام الدراسى .

وقضيت ثلاثة سنوات بالمدرسة الخديوية لا أكاد أعد أسبوعاً واحداً فيها هنئت به . ولذلك تخلفت فى الدراسة . وكان من أسباب هذا التخلف أيضاً أنى مرضت بعينى واحتجت إلى إجراء عمليتين لا يزال أثرهما المشوه باقياً . كما أنى أعزو إلى عذاب المدرسة هذه العربدة الجنسية الذاتية التى انغمست فيها للترفيه عن نفسى . وإزالة الكمد الذى كانت تحدثه هذه الحياة المدرسية المرهقة .

ولكن القاهرة فى تلك السنين (١٩٠٣ — ١٩٠٧) كانت حافلة ببشائر العصر الجديد . فقد رأيت فيها الأتومبيل لأول مرة . ولكن الحياة القديمة كانت لا تزال راسخة . فكان السقاء يحضر الماء فى قربته لمنزلنا . وكنا أحياناً نركب الحمير من مكان إلى آخر لأن الترام كان يسير فى شوارع قليلة . ولم يكن شىء من المنازل قد بنى على الضفة الغربية من النيل ، كما أن هليوبوليس كانت لا تزال صحراء ؛ بل إن شمال المدرسة التوفيقية فى ١٩٠٣ كان ، كما سبق أن ذكرت ، خالياً من المبانى إلا القليل المتفرق .

وكنا نتحدث فى تلك السنين عن شيئين يحركان المجتمع المصرى هما الاحتلال الإنجليزى ، وحركة قاسم أمين لتحرير المرأة . ولم أكن أهتم بالحركة الثانية كثيراً . وكان الحزب الوطنى أعظم قوة تكافح الاحتلال فى ذلك الوقت . وكان قد ألفه فى ١٨٩٧ ستة من الشبان المتنبهين هم : أحمد لطفى السيد (باشا) ومصطفى كامل ومحمد فريد ومحمد عثمان (والد أمين عثمان باشا) ولبيب محرم (شقيق عثمان محرم باشا) وسعيد الشيمى . وكان «اللواء» جريدة الحزب الوطنى يستهوى النفوس ، وكنا نسارع إلى شرائه عقب الانصراف من المدرسة . ولكن الشبان الأقباط كانوا يجدون بعض الاستياء من الدعوة الدينية فى الحزب الوطنى وكذلك الدعوة العثمانية أى التركية . وكان منطقهم يقول : « إذا كنتم تدعون إلى جامعة إسلامية وإلى تأييد الحقوق العثمانية فى مصر ، مع أن الأتراك ليسوا فقط أجانب بل إن تاريخهم يحفل بالمظالم فى مصر ، فإن لنا الحق فى الاتجاه نحو جامعة مسيحية والاعتماد على الاحتلال البريطانى . »

وقد انتهى موقفهم هذا إلى أن حمل مصطفى كامل عليهم وأثار تعصباً دينياً ساءت عواقبه واستغله الإنجليز أيام كرومر وجورست . ولم يصلح هذا الفساد القومى غير أحمد لطفى السيد حين أسس « الجريدة » ودعا دعوة مصرية بحتة ليس فيها شىء من الدعاية للأتراك أو للعرب أو للإسلام . ولكن حتى مصطفى كامل قبيل وفاته بخمسة أشهر أو ستة أعلن فى مقالات أن مصر يجب أن تكون للمصريين فقط ، وصار لهذا يعارض الخديو عباس فى ممالأته للدولة العثمانية . وبلغ من معارضته له أن جريدة « المؤيد » وصفته بأنه قد أصبح يشبه عرابى .

والواقع أن المجتمع المصرى فى بداية هذا القرن كان مجتمعاً تركيا أو كالتركى ؛ فكان الاصطياف فى استنبول مألوفاً . وكانت الحكومة المصرية تؤدى « الجزية » السنوية لتركيا . وكانت العائلات الغنية عائلات تركية خالصة أو خلاسية . وقلما كنا نجد « مصرياً » ثرياً . ولذلك حين نتأمل العائلات المصرية الثرية فى ١٩٤٧ نجد أنها كلها حديثة العهد بالثراء . وهذه الحال تفسر لنا سيكلوجية الحركة العرابية . فإن عرابى كان يتأمل وطنه فى عام ١٨٨٠ فلا يجد فيه مصرياً صميما يملك شيئاً يؤبه له . وأن جميع الأثرياء كانوا من الأتراك أو الألبان الذين كان محمد على قد اختصهم بالامتيازات وأقطعهم أرض المالكين المصريين السابقين الذين استولى على عقود امتلاكهم وأحرقها . ولذلك كنا لانعرف رئيساً للوزارة إلا وهو تركى الأصل . بل أحياناً كانت تؤلف الوزارة وليس بين أعضائها مصرى صميم واحد أيام اسماعيل وتوفيق . وكنا نرى هؤلاء الأرستقراطيين على سخفهم ونذالتهم وهم فى عرباتهم يتنزهون على جسر قصر النيل . وكان يتقدمهم قواص أو قواصان وكل منهما فى سترة تهريجية يحمل عصا طويلة فى وضع عمودى ويعدو أمام العربة وهو يصيح بأعلى صوته : هيه ، هيه .

وكانت الجرائد المقروءة فى تلك السنوات ثلاثاً : « اللواء » الذى كان يحرك الأمة إلى المطالبة بالجلاء ويقرؤه جميع الشبان . و « المؤيد » الذى كان يؤيد الخديوى ويقرأه أبناء البيوتات التركية والمحافظون من المصريين . و « المقطم » الذى كان يؤيد الإنجليز ويقرؤه الموظفون . أما « الأهرام » فكانت فى ركود يشبه الموت لا يقرؤها غير عدد صغير من التجار .

وكان الخديوى عباس محور الحركة الوطنية فى أوائل حكمه .

وهو الذى أوعز بإيجاد الحزب الوطنى ، وكان يعاونه بالمال . ومما زاد الخديوى اتجاهاً نحو الحركة الوطنية تلك الإهانات الشخصية التى كان يجدها من كرومر . فقد حصل هذا الرجل على تربيته السياسية فى الهند ، وكان يعامل المصريين كما كان يعامل الإنجليز الهنود قبل خمسين أو ستين سنة ، وكانت له فى ذلك أساليب طفلية . وقد رأيته ذات مرة وهو ينزل من عربته ، فلم ينزل مستوياً على قدميه كما يفعل البشر بل تقدم له خادم مصرى وحمله كأنه طفل من العربة فى عناية ورقة حتى حط جثته على الأرض . . . وقد فعل هذا فى ظنى كى يثبت أنه سيد مطاع أو ملك غير رسمى . وتشاجر مرة مع الخديوى لأن الحوذى الذى كان يسوق عربة الخديوى إنجليزى . وحاول مرة ، عقب انتقاد الخديوى للجيش المصرى الذى كان كتشنر قائداً عاماً له ، أن يعين وزيراً إنجليزياً . وكان كرومر هذا من عتاة الاستعماريين ، وهو الذى أحال القطر المصرى كله إلى عزبة للقطن ، وقتل الصناعة المصرية قتلا تاماً ، حتى إننا حوالى ١٨٩٨ أنشأنا مصنعاً فى القاهرة لغزل القطن ونسجه ، وجئنا له بمدير إنجليزى ، فأصر كرومر على فرض الضرائب الباهظة عليه حتى أغلقه . ثم ، وهنا عبرة ، عين مديره الإنجليزى فى الحكومة المصرية .

وبفضل الحزب الوطنى ، بل بفضل الشاب مصطفى كامل ، تزايدت الحركة الوطنية وأخذت موجاتها تعلو وتزبد . ورأى كرومر عجزه عن مكافحتها . فحمله الغيظ على العنف الأحمق بل على التوحش الإجرامى . فانتهز حوالى سنة ١٩٠٧ فرصة التقاء الجنود ببعض الريفيين فى دنشواى إحدى القرى فى المنوفية ، وكانوا يصيدون الحمام الذى كان هؤلاء الفلاحون يربونه . فاشتبك الريفيون مع الإنجليز فى مشاجرة

انتهت بقتل بعض الإنجليز أو بالأحرى بوفاتهم . وعندئذ عينت محكمة «مخصوصة» وكان رئيسها المرحوم بطرس غالى باشا ، ومن أعضائها المرحوم فتحى زغلول باشا ، وكان المحامى عن الإنجليز المرحوم الهلباوى الذى صار بعد ذالك عضواً فى حزب الأحرار الدستوريين . وشرع فى محاكمة الدنشوائيين وعم الأمة توتر نفسى وغلت العواطف . وكتب « المقطم » بأن المشنقة أرسلت إلى دنشواى قبل أن تنتهى المحاكمة ، فخجلت الحكومة وكذبت الخبر . ولكن المرجح أن المقطم كان صادقاً . لأنه كان يتصل اتصالا وثيقاً بالإنجليز فى ذلك الوقت . وصدر حكم المحكمة بجلد البعض وبشنق الآخرين . وأنفذت الأحكام فى القرية ذاتها . ورأى الأطفال آباءهم يشنقون أو يجلدون ، ورأت الزوجات والأمهات والشقيقات والآباء أعزاءهم وهم يتدلون من الحبال أو يصرخون من الجلد .

وأذكر أنى كنت فى الإسكندرية فى ذلك الوقت أتنزه مع أخى ، وكنا نأكل فى المطاعم . فلما قرأت الحكم عمنى جمود يشبه الغثيان ، فلم أستطع الأكل جملة أيام ، ودارت فى رأسى خواطر جنائية عن هؤلاء المعتدين على بلادنا وأهلنا . وخجل الانجليز أنفسهم من هذا الحادث الإجرامى ، فعزلوا كرومر عن وكالته فى مصر . وكان يرأس الوزارة الإنجليزية فى ذلك الوقت رجل من الحريين يدعى هنرى كامبل بانرمان . ولكن وزير الخارجية المدعو جراى برر جريمة كرومر بأن وقف فى البرلمان يقول : « إن التعصب الإسلامى قد تفشى فى إفريقية الشمالية كلها بما فى ذلك مصر . » وكتب «المقطم» مقالا عنوانه « التعصب يمتد ويشتد » أى تعصب المصريين المسلمين الذين يجب أن يكبحوا بمشانق دنشواى . وما زالت كلمات هذا المقال ترن فى ذهنى ، ولا تزال

« دنشواى » عندى من الذكريات النفسية الأليمة .

وقد وجدت تعزية فى شىء واحد هو أن الوجدان الوطنى أصبح عاماً وتنبهت الأمة كأنها استيقظت من نوم . فكنت أجد بعض الشبان يشترون «المقطم» ويمزقونه حتى لا يقرأه أحد . وحتى الأقباط الذين كانوا متوجسين من حركات الحزب الوطنى الدينية ، أصبحوا وطنيين يكرهون الإنجليز . وكان هذا الانفعال الجديد ملحوظاً فى أعضاء عائلتنا. ولكن اختلاط الحركة الوطنية بالدعوة الإسلامية من ناحية وبالرغبة فى السيادة العثمانية من ناحية أخرى عرقل الاندماج التام للأقباط فى الحركة الوطنية . فكانوا يشيحون عنها ويذكرون حكم الأتراك ومظالمهم أيام إسماعيل وتوفيق .

وشعرت فى ذلك الوقت بما زلت أشعر به الآن ، وهو أن الاستعمار البريطانى ليس هو العدو الوحيد لبلادنا ؛ لأن الرجعية بالتزام التقاليد ، وكراهة الروح العصرى فى السياسة والاجتماع والعقيدة ، كل هذا يتألف منه عدو آخر لعرقلة أمتنا عن التقدم . وكانت نظرية التطور التى تعلمتها من «المقتطف» قد جعلتنى ألمح بصيصاً من الرؤيا الجديدة ، وأن أومن بأن العلم ، الذى حقق السيادة وإن لم يحقق السعادة لأوربا ، جدير بأن يرفعنا من حضيض الفقر والجهل الذى وضعنا عليه الإنجليز ، وأن يحقق لنا استقلالنا . ولذلك وجدتنى من ذلك الوقت أدعو إلى أن نعيش المعيشة العصرية ، وأن أناصب الرجعيين المصريين العداء الذى أناصبه للإنجليز .

وكان على يوسف صاحب جريدة «المؤيد» معدوداً بين كبراء الكتاب الصحفيين يحسن المناقشة ويلتزم المنطق والتعقل . وكان « المؤيد » قليل الانتشار يسبقه « اللواء » ويطغى عليه بمقالات

مصطفى كامل النارية . ولكن « المؤيد » كان يشب فى الأزمات . ففى حادث دنشواى مثلا أقبل عليه القراء ، وهم فى كمد وحزن وحيرة ، يقرأونه ويتعقلون ما يكتبه عن السياسة الإنجليزية المصرية وينظرون للمستقبل من خلال بصيرته.

ولكن علاقة الشيخ على يوسف بالخديوى جعلته يتجه صوب استامبول أو كما كانوا يسمونها « الأستانة العلية » حتى إنه عندما أسس « مجلس المبعوثان » فى تركيا دعا المصريين إلى أن يرسلوا نواباً عنهم فيه ؛ إذ أن مصر جزء من الدولة العثمانية ...

أما مصطفى كامل فكان يغزو قلوب الشبان . وكان إذا أعلن عن خطبة يلقيها تجمع الألوف لسماعه . وكان فى شبابه وحماسته إغراء للشبان . وقد مات بالدرن ولما يبلغ الثانية والثلاثين .

وفى تلك السنين شبت الحرب بين روسيا ويابان ، فاتجه الرأى العام نحو اليابانيين باعتبار أنهم أمة شرقية مثلنا ، فكنا نفرح كلما قرأنا عن هزيمة روسية ؛ لأن روسيا كانت تمثل فى أذهان الجمهور أوربا التى تنتمى إليها بريطانيا ، كما أن يابان كانت تمثل يقظة الشرق . حتى إن مصطفى كامل ألف عنها كتابا باسم « الشمس المشرقة » .

وأحدث خليل صادق نهضة أدبية فى تلك السنين بسلسلة من القصص كانت تخرج كل شهر باسم «مسامرات الشعب» وهى قصص مترجمة عن الفرنسية والإنجليزية اشترك فى الترجمة له فيها كتابنا المعروفون مثل حافظ عوض وعبد القادر حمزة (باشا) ومحمود أبو الفتح وغيرهم . ولكن الأدب لم « يتمصر » فى ذلك الوقت . لأن كفاحنا للأمبيريالية البريطانية كان يستغرق كل مجهودنا . فكان الكاتب

الذى يجد فى نفسه القدرة على التعبير الفنى يلتفت إلى السياسة قبل الأدب ، ويجاهد فى إيقاظ الوجدان المصرى الوطنى . وما نقصنا نحن من هذه الوجهة سده إخواننا السوريون واللبنانيون عنا : وهم بالطبع كانوا أقرب إلى الثقافة العصرية الأوربية منا ؛ لأنهم تعلموا فى الجامعة الكاثوليكية والجامعة الأمريكية فى بيروت . وهم أيضاً ، لأن عددا كبيرا منهم كانوا مسيحيين ، لم يجدوا العائق السيكلوجى الذى كنا نجده نحن فى مصر إزاء الثقافة الأوربية العصرية .

وكنا فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٨ فى تبلبل سياسى وفى تبلبل آخر أدبى واجتماعى . فقد كانت تسود وجداننا السياسى نزعتان : الأولى والكبرى هى الاتجاه نحو الدولة العثمانية ، والدفاع عن استقلالنا المصرى ، بدعوى أننا جزء من هذه الدولة العثمانية . وواضح أن موقفنا هنا كان حائراً مقلقلا . ثم كانت النزعة الأخرى وقد بزغت ضعيفة تتلجلج بل لا تكاد تنطق ، وهى الدعوة إلى الاستقلال المصرى التام والتخلص من بريطانيا وتركيا معا .

أما التبلبل الأدبى فلم نكد نحس به فى تلك السنوات . وكان جميع الكتاب ، باستثناء اللبنانيين ، يعنون بالأدب دراسة القدماء من العرب لا أكثر . ولكن كان هناك تبلبل اجتماعى وضع خميرته محمد عبده وقاسم أمين ، ونمت وزكت هذه الخميرة فى الوسط الإسلامى . وأصبح لها دعاة وخصوم .

وكان الخديو عباس محبوباً إلى سنة ١٩٠٧ يجد فيه الشباب رمزاً للكفاح . وكانت شراسة كرومر ، الذى كان يرغب فى معاملته كما لو كان أحد مهراجات الهند ، تنبه فيه هذا الكفاح . وتعلق به الجمهور وشاعت عنه مواقف وطنية . ومما سمعناه فى تلك السنين أن

ويصا واصف ومرقس حنا وعدداً آخر ، معظمهم من المحامين ، قصدوا إلى سراى عابدين وانتظروا إلى أن هم الخديو بركوب عربته ، فأصروا على أن يحلوا خيولها ويجرّوها هم . ولكن الخديو اتخذ موقفاً معارضا لاتجاهات الشيخ محمد عبده نحو الأزهر ؛ فكان ، أى الخديو ، يصر على أن يبقى الأزهر كما كان منذ مئات السنين محافظاً لا تتسرب إليه تيارات الثقافة العصرية . وكان محمد عبده يصر على أن يتطور الأزهر إلى جامعة عصرية . واتجه المستنيرون من الأمة وجهة محمد عبده فازورّوا عن الخديو .

ولكن أعظم ما جعل الجمهور المصرى يتغير على الخديو هو ما كان يسمى بسياسة الوفاق . فإن الإنجليز ، بعد أن رأوا سياسة كرومر الشرسة مع الخديو قد أحالته إلى وطنى يدس لهم ويؤيد الحركات الوطنية ضدهم ، عينوا السر الدون جورست وكيلا لهم بالقاهرة ؛ فتحبب هذا إلى الخديو وزاد فى سلطته . وارتاح الخديو إلى هذا التغيير ارتياحاً عظيما جداً ، وشرع يعارض الحركات الوطنية الدستورية ، ويسير مع الإنجليز فى « سياسية وفاق » كان ضررها بالأمة فادحاً .

وكانت سياسة الوفاق هذه سبباً فى انقلاب مصطفى كامل ؛ إذ أنه أبى أن يسير مع الخديو ، وأصر على الكفاح . ولم تمض سنوات حتى أصيب جورست بالسرطان ومات به فى إنجلترا . وأعرب الخديو عن حبه له ، وتقديره لسياسة الوفاق بأن زاره خفية وهو على فراش الموت .

ثم جاء كتشنر ، فأعاد سياسة كرومر ، ولكن فى فجاجة العسكرى وغشومته . وعاد الخديو إلى موقف المعارضة والمعاكسة للإنجليز .

ولو سئلت عن الفرق فى القاهرة بين ١٩٠٥ و ١٩٤٥ لقلت إن نبض القاهرة قبل أربعين سنة كان أبطأ ، كما أن الإيقاع كان شرقياً

فى كل شىء تقريباً . فكان الناس يمشون أكثر مما يركبون . وكانت المدينة متجمعة متكتلة فى رقعة صغيرة لم تستفض بعد إلى صحراء هليوبوليس أو إلى الضفة الغربية من النيل . وكنا فى الملابس نعبر طور الانتقال . فإنى أذكر أنى لبست قفطاناً بحزام وأنا تلميذ بمدرسة الأقباط فى الزقازيق ، وكنت فى العاشرة من العمر . ثم لبست أيضاً وأنا فى الثانية عشرة بذلة رمادية من طراز الريدنجوت . أما نساؤنا وآنساتنا فبقين كلهن إلى سنة ١٩١٩ يتخذن البراقع والحبرات .

وكنا نقضى ليالى السرور عند الشيخ سلامة حجازى . والحق أن هذا الرجل كان ممثلا بارعاً ، ولكنه لم يكن يمثل قدر ما يغنى . فقد وجد إقبالا عظيما على أغانيه فكان التمثيل عنده ملحقاً بالغناء . وظنى أنه كان يفعل هذا مضطراً ؛ لأن كفاءته المسرحية كانت عظيمة جداً . ولابد أنه كان يتألم ؛ لأن الجمهور لا يقدرها بل يؤثر عليها الغناء .

وكانت هناك إلى جنب مسرح الشيخ سلامة ملاه أخرى كانت غاية فى الفحش ، حيث كانت الراقصات يقمن بحركات وإيماءات هى فى صميمها محاكاة غير فنية للتعارف الجنسى ، محاكاة فاحشة رخيصة دنسة متهتكة . وقد اضطررنا بعد سنة ١٩٢٢ ، إلى إلغاء هذا الرقص . ولكن بعض الأغانى القديمة الفاحشة لا تزال تغنى إلى أيامنا هذه .

وشرعنا ، بعد ذلك بسنوات ، نحس الوجدان المسرحى ، وندرك معنى الدرامة ومغزاها ، مما ترجمه فرح أنطون ومما مثله جورج أبيض من الدرامات عن اللغة الفرنسية .

أوّل وُجدانى الذهبى

كنت فى سنة ١٩٠٣ تلميذاً فى السنة الأولى الثانوية قد تركت بلدتى الزقازيق ورحلت إلى القاهرة ؛ إذ لم تكن فى تلك السنين مدارس ثانوية إلا ثلاث فى القاهرة والإسكندرية . وكانت سنى إذ ذاك نحو ١٥ أو ١٦ سنة ، فشرعت أقرأ الجرائد اليومية وأشترى مجلتىّ « المقتطف » و « الجامعة » وأسأل عن الكتب . ولم تكن هناك مجلات أسبوعية . وبقيت الحال كذلك إلى أن أنشأت أنا أول مجلة أسبوعبة فى ١٩١٤ وهى « المستقبل » .

وعرفت « المقتطف » . وكان اهتدائى إليه من المصادفات البديعة التى أعانتنى على التثقيف الذاتى . وكنت أشترى الأعداد القديمة بل أحياناً الأعداد الجديدة ، من الإدارة ، على غلاء ثمنها ، وألتهمها من الغلاف إلى الغلاف . وعند ما عدت إلى الزقازيق وجدت فى بيت صديق لى بقرية قريبة من الزفازيق نحو مئة عدد من هذه المجلة ، فاستعرتها وقرأتها جميعها . وكان يحرر «المقتطف» فى تلك السنين الدكتور يعقوب صروف . وكانت بؤرة اهتمامه الذهنى فى ذاك الوقت نظرية التطور التى كان يسميها نظرية النشوء والارتقاء . ولذلك لم يكن يخلو عدد من بحث هذه النظرية .

وفى مجتمعنا المصرى كثير من الكظوم التى ترهق الذهن بالقيود والسدود . وكان الإيمان بنظرية التطور نوعاً من التفريج والانتقام . ولذلك وجدتنى فى ذلك الوقت داعية متحمساً لهذه النظرية فى البيت والمدرسة وفى كل مكان آخر . وشعرت كأنى ممتاز بهذه النظرية . فبعثنى

هذا إلى التوسع فيها ، وعرفت لذلك الدكتور شبلى شميل ، وكان رجلا كبير الذكاء محدود المعارف . فكان يعتمد على الحجة المنطقية أكثر مما يعتمد على البيّنة العلمية . وفى الوقت الذى كان يعتمد فيه «المقتطف» على البيّنات العلمية وينقل أقوال البيولوجيين فى أوربا عن هذه النظرية كان شبلى شميل ينافح عنها ويدعو إليها بقوة المنطق . ولكن يجب مع هذا أن نذكر فضل شبلى شميل فى أنه نقل إلى العربية كتاب بوخنر فى المادية العلمية . والحق أن هذه النظرية كانت رؤيا جديدة لشاب مثلى لم يكد يخرج من طور الصبا ، كما كان شبلى شميل بجرأته وذكائه شخصية فذة لها قوة الايحاء والتوجيه فى نفسى .

ولكن مع ذلك لم يستطع «المقتطف» ولا شبلى شميل تكوين مدرسة فكرية . لأن الركود الذهنى كان عاماً كما كان الشرق بقواته التاريخية الساحقة يخيم علينا بل يحط علينا بكلكله . فلم يكن المجتمع المصرى وقتئذ يجيز لنا أن نبوح ونعلن عن سرائرنا . فكنا لذلك أفرادا متفرقين نناقش هذه الأفكار والآراء فى همس متسترين أو فى استحياء يشبه الاعتذار إذا صادفنا غرباء . وكثيراً ماكنت أجد أن الحجة تنتقل من الرأس إلى الذراع ، فأسارع إلى التسليم وأعلن صحة العقائد والتقاليد وكذب الآراء والعلوم . لأن المنكرين كانوا فى العادة أكبر منى سناً وأضخم جسما ...

وإنى أعزو إلى «المقتطف» هذه النزعة العلمية التى لازمتنى طوال حياتى الماضية كما أعزو إليه هذا « الأسلوب التلغرافى » الذى أكتب به والذى يظن كثيرون أنه من اختراعى . وكان الدكتور يعقوب صروف لا يعرف التزاويق بل كان فى الأغلب لا يتذوق الجملة

الفصيحة أو الكلمة الناصعة أو العبارة المتلألئة أو سائر تلك الألاعيب الصبيانية التى كان الكتاب يرفعون من شأنها إلى قبيل الحرب الكوكبية الأولى .

وكان يرافق هذا الوجدان العلمى بالنظر المادى وجدان أدبى آخر شرع يغمرنى ويبسط لى آفاقاً جديدة . ذلك أننا فى تلك السنين أى حوالى سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ لم نكن نعرف من معنى الأدب سوى القواعد الجامدة للبيان والبلاغة التى نحفظها عن ظهر قلب فى جمود أو كراهة ؛ ولكنا كنا نتذوق شيئاً من الجمال الفنى فى مقالات اللواء ومصباح الشرق . وكنا نقرأ كتاب أدب الدنيا والدين للماوردى أو كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع . والواقع أن أسلوب الأول يخالف أسلوب الثانى ؛ فإن الماوردى مسهب غير ململم أو محبوك فى حين أن ابن المقفع موجز رصين مضبوط . ولذلك كانت رؤيا جديدة بل إلهاماً جديداً أن أعرف مجلة « الجامعة » لفرح أنطون . فقد عثرت على بضعة عشر عدداً من هذه المجلة ، ثم اقتنيت مؤلفات هذا الكاتب العظيم ، فرأيت دنيا جديدة من الأدب الأوربى لم نكن نعرف عنها شيئاً من قبل . وقد مس هذا الأدب أوتاراً فى نفوس جميع قارئيه فى الشرق العربى . لأن هذه الدنيا الجديدة من الأدب الأوربى كانت تختلف ، لا بل تناقض ، ما تعلمنا من أدب عربى . ذلك لأن الأدب العربى ، كما كنا نعرفه فى ذلك الوقت ، كان أدب السلطة والتقاليد والعقائد . ولكن الأدب الأوربى ، أو بالأصح الفرنسى ، الذى نقله إلينا فرح أنطون ، كان أدب الثورة والتمرد ، أدب العقل الذى يحس والقلب الذى يعقل ، أدب فولتير وروسو وديدرو وبرناردان دواسان بيير . وكان

جميع هؤلاء مجاهدين يكافحون استبداد الملوك والأمراء واستبداد العقيدة وسلطان التاريخ .

وكنا نحن فى مصر فى حال اجتماعية وسياسية تحملنا على الترحيب بهذا الأدب ، ففتحنا له قلوبنا ، لا بل تفززنا وتمردنا . وكان هذا الأدب هو الذى هيأ فرنسا التهيئة الذهنية للثورة الكبرى . ويبدو لى الآن أن فرح أنطون لم يكن على جهل بما يعمل . فإنه خرج من لبنان حوالى سنة ١٩٠٠ وكان هذا القطر يغط فى ركود تاريخى آسن وقد خيمت عليه الدولة « العثمانية » ومنعت عنه النور إلا بصيصاً يتلقاه الشباب فى كلية بيروت الفرنسية أو الجامعة الأمريكية . ودرس فرح أنطون الفرنسية وتشبعت نفسه وذهنه بآدابها . فلما رحل إلى مصر وجد شيئاً من الحرية . ولكنه أدرك أن الظلام الذى كان يشكوه لبنان هو نفسه الظلام الذى تشكوه مصر مع فرق فى الدرجة فقط . فعمد إلى هؤلاء المؤلفين الفرنسيين الذين ذكرت أسماءهم ينقل عنهم أو يستلهمهم فى كل ما يكتب . ومن هنا كانت جدته وطرافته لى بل لجميع قرائه . فإن « المقتطف » لم يكن يعنى بالأدب . وكان « مصباح الشرق » جريدة أدبية يصدرها المويلحى ، ولكن لأدب العرب فقط . أما الجامعة فانفجرت بيننا تنير وتشير وتثير . أى تنير عقولنا وتشير إلى مبادئ ومناهج رتبها أدباء فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر . وكان يحس أننا فى حاجة إلى هذه المبادئ والمناهج ولذلك أثارنا بترجمة قصه الثورة الفرنسية لألكسندر دوماس . ولا أعرف واحداً يقظاً فى تلك السنين لم يقرأ هذه القصة ولم يتغير بها وبسائر مؤلفات فرح أنطون .

وكان جديراً بهذه المؤلفات أن تحدث حركة رومانسية ابتداعية فى الأدب العربى ، ولكنها للأسف لم تحدث . فإن خلاصتها أن الإنسان

حسن مسالم ، ولكن المجتمع سيئ يحمله على الرذائل . وما كان أبدعها من فكرة لمثل أمتنا فى مثل ذلك العصر أى حوالى ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ . فإن هذه الفكرة كانت جديرة بأن تختمر وتبعث النشاط الذهنى فى جميع القراء ، كما تبعث وجداناً أدبياً جديداً ينضج ويتوالد فى شتى الأفكار والآراء .

ولعلى محتاج هنا إلى أن أشرح ماذا أقصد إليه من الاتجاه الرومانسى فى الأدب . فإن الأدب يمكن أن يقسم من ناحية المزاج والاتجاه وقواعد التفكير واللغة بأنه أدب كلاسى أتباعى أو أدب رومانسى إبتداعى . وليس أحدهما خيراً من الآخر ، ولكنهما مختلفان . وفى فترة ما تحتاج الأمة إلى النزعة الاتباعية فى حين أنها فى فترة أخرى قد تحتاج إلى النزعة الابتداعية .

فالنزعة الاتباعبة تقتضى العناية بالماضى والجرى على أساليب السلف والتقيد بالنصوص فى قواعد التفكير واللغة . ففولتير اتباعى . وطه حسين فى كتبابه عن المعرى اتباعى . والعقاد فى كتبه عن رجال الإسلام الأولين اتباعى . وقس على هذا .

والنزعة الابتداعية تقتضى الخيال أكثر من التقيد بالنصوص . وهى تجنح إلى التحلل من النص والقاعدة . ولذلك كان روسو ابتداعياً كما أن طه حسين فى « الأيام » ابتداعى . وكذلك توفيق الحكيم ابتداعى فى معظم ما يكتب .

ونحن محتاجون إلى النزعتين ، ولكنا فى مصر أكثر احتياجاً إلى النزعة الابتداعية ؛ لأنها فى النهاية نزعة التجديد واقتحام المستقبل .

وكان فرح أنطون فيما ألف ونقل رومانسياً ابتداعياً . بل إن أول الكتب التى نقلها عن الفرنسية كان كتاب « إميل » لجان جاك

روسو ، وهو يعد أساساً للحركة الرومانسية فى أوربا ، حيث يقول بأن الطبيعة البشرية حسنة يفسدها المجتمع والحكومات والقوانين . وهذا الكتاب مع الأسف لم يطبع إلى الآن .

ولكن حياة فرح أنطون فى ذلك الوقت بترت ؛ لأنه وقع فى مناقشات تمس الدين مع الشيخ محمد عبده ، فبارت مجلته بعد الرواج . ورحل إلى القارة الأمريكية حيث اشتبك فى خصومات صحفية لم يكن القلم وحده أداة الرأى والحجة فيها ، فعاد مهزوماً إلى مصر.

وكان أثر فرح أنطون فى نفسى أنى أكبرت الأدب الأوربى إكباراً عظيما .

ولم يكن هذا غريباً فى مثلى . فإن فرح أنطون استبدل بالماوردى عندى جان جاك روسو ، وحملنى على أن استبدل بالكلمة الوضيئة والعبارة المذهبة أدب المبدأ والفلسفة والفكرة .

وعرفت فرح أنطون بعد ذلك حين اشتغلت معه فى جريدة «اللواء» ، وكانت جريدة الحزب الوطنى يرأسها المرحوم عثمان صبرى حوالى ١٩١٠ ، فزادنى توجيهاً نحو الأدب الأوربى . وعاش فرح فى مصر إلى ١٩٢١ حين توفى وهو فى الحادية والأربعين . وكانت وفاته نكبة على النهضة المصرية السياسية والأدبية . وكان من اللبنانيين القلائل الذين اندغموا فى الحركة الوطنية المصرية اندغاماً تاماً . وكان سعد زغلول يحبه ويقدره . وزاره واصف غالى باشا وهو فى فراش المرض قبيل وفاته بمنزل أخته السيدة روزا حداد وقدم له تحية الوفد .

والآن أعود بالذاكرة إلى هذه الشخصية الفذة وأتساءل : ما مقدار ما ضاع منا بوفاته ؟

الحق أن ما فقدنا فيه عظيم فادح . فلو أنه عاش إلى أيامنا مثلا

لطبع النزعات الأدبية والسياسية فى مصر بطابعه . ولعله كان يوجه الأدب المصرى هذه الوجهة الرومانسية التى آسف على أنه لا يتجهها الآن . لأننا على الرغم من كل جديد فى هذا الأدب مازلنا نعيش فى أسر التاريخ بأدب أغلبه سلفى ، نفكر بمزاج سلفى فى لهجة سلفية . وأدبنا هو أبعد الآداب عن روسو ، بل لقد أصبحت حركاتنا الاجتماعية سلفية أيضاً كما نرى فى حركة « الإخوان المسلمين » .

وكان فرح أنطون بشرىّ النزعة والإيمان ، يؤمن بالإنسان ويكره الأساطير الغيبية بل يشمئز منها . وكان يمتاز بالذهن الاستطلاعى يرود كل جديد فى الثقافة الأوربية . فهو أول من كتب عن نيتشه . وأظن أنى أنا كنت الثانى ؛ لأن أول مقال صحفى لى كان فى « المقتطف » سنة ١٩٠٩ بعنوان « نيتشه وابن الإنسان » وقد وصلت إلى نيتشه مستقلا وأنا بأوربا .

ولذلك عقب عودتى من أوربا واتصالى به كنت لا أجد موضوعاً أختلف فيه معه . وكنا نتحدث عن الاشتراكية والنزعات الأدبية الجديدة والسياسة فى مصر ، فنكاد نتفق فى كل شىء حتى فى العقيدة الدينية .

وفيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٠ ظهرت قوة جديدة فى مصر كان لها أثر آخر فى توجيهى النفسى ، وكانت هذه القوة أحمد لطفى السيد . ففى تلك السنين كانت الوطنية المصرية فى طور اليرقة لم تنسلخ بعد إلى الجسم الحى الكامل . وكانت عرضة لأخطار شتى وتطوحات مختلفة . وحسب القارئ أن يعرف أن كلمة « وطنية » ليست عربية وأننا إنما سككنا هذه الكلمة كى نعبر بها عن وجدان جديد . ذلك أن مصر فى بداية هذا القرن كانت لا تزال فى أسر الماضى . وكانت الدولة

« العثمانية » هى دولتنا التى كنا نكافح بها الإمبراطورية البريطانية . وكان بيننا متنبهون تعلموا فى المدارس الفرنسية أو نبهتهم الحوادث وأيقظت فيهم وجداناً وطنياً ، فلم يكونوا يسيغون منطق اللواء والمؤيد فى الدفاع عن استقلال مصر بحق الأتراك فى سيادتها . وكان الأقباط ينفرون من هذه الوطنية العثمانية نفوراً عظيما .

وظهر لطفى السيد فى الجرائد يدافع عن هذه البديهية الواضحة ، وهى أن مصر يجب أن يملكها المصريون دون الأتراك ودون الإنجليز . ووجد فى الأول مصادمة قوية من الكتاب الذين ألفوا الدعاية للأتراك ولكن سرعان ما انتصر وظفر بالرأى العام فى مصر . ووجد الأقباط منطقاً فى هذه الوطنية كما وجد المثقفون فيها أملا جديداً يعبئ الأمة للإصلاح والتجديد فأقبلوا على الجريدة وشغفوا بمقالات لطفى السيد فيها .

وكثير من القراء فى أيامنا ، أى بعد نحو ٣٥ سنة من هذه الحركة ، لا يعرفون مقدار هذه الحركة وفضل أحمد لطفى السيد فيها . ذلك أننا جميعاً قد اعتنقنا هذه الوطنية الجديدة ، وطنية مصر للمصريين ولم نعد نعرف غيرها . ولكن على القارئ أن يذكر أن الدولة « العثمانية » كانت شيئاً أكبر من تركيا الحاضرة . وكانت إمبراطورية شاسعة لها جيوش وموظفون فى اليمن والحجاز والعراق وطرابلس . وكانت الرحلة السنوية إلى استامبول أو كما كان يصفها الصحفيون وقتئذ « دار السعادة » لا تقل فى عدد المسافرين المتنزهين عن الرحلة إلى باريس . وكان حبل الدسائس لا ينقطع بين القاهرة واستامبول . ولكنه مع ذلك كان واهياً ، كما كانت هذه الدسائس عقيمة .

وكان لطفى السيد وعبد العزيز فهمى وقاسم أمين جيلا جديداً

فى مصر بعد الجيل الذى كان منه الأفغانى ومحمد عبده . وكان هذا الجيل أكثر جرأة . ولذلك نجد أن قاسم أمين يدعو إلى سفور المرأة وإلغاء الإعراب فى اللغة . ولطفى السيد يدعو إلى لغة مبسطة تقارب العامية ، كما نجد عبد العزيز فهمى الآن يدعو إلى الخط اللاتينى . وقد حفظ هذا الأخير شبابه الذهنى إلى ما بعد السابعة والسبعين . وهو يعانى الآن من هذا الشباب عنتاً من خصومه أولئك الشبان الذين شاخوا قبل الثلاثين والأربعين .

والواقع أن لطفى السيد مهد لحركة سنة ١٩١٩ بجمع الأمة على رأى موحد فى الوطنية ، كما أنه جعل التجديد مساغاً لا يتهم القائمون به بالهوج أو الرعونة . بل أصبحت الدعوة إلى حرية المرأة وتعليمها شيئاً وقوراً محترماً ، واحترمت « الجريدة » بعد أن كانت موضوعاً للنكات البذيئة .

وقد سبق أن قلت إن أسلوب المقتطف كان علمياً مقتصداً وإنى أخذت عنه ما أسميته « الأسلوب التلغرافى » . ولكن أسلوب لطفى السيد كان موجزاً مقتصداً أيضاً . وهو أشبه الأساليب بأسلوب ابن المقفع . وأظن أنى تأثرت به أيضاً .

وقد كان هؤلاء الثلاثة : يعقوب صروف ، وفرح أنطون ، ولطفى السيد ، من القوات التى صاغت شخصيتى الثقافية الذهنية . فإن الأول وجهنى إلى طريق العلم . والثانى بسط لى الآفاق الأوربية للأدب . والثالث جعل من المستطاع لى ، بوصف أنى غير مسلم ، أن أكون وطنياً فى مصر .

كروم وجورست وكتشنر

فى ١٩٠٧ كنت قد بلغت حالا من القلق النفسى والثقافى جعلت مقامى فى مصر شاقاً . فقد كنت أعانى هذا الكرب المدرسى الذى أحدثه الإنجليز بنظام الثكنات فى المدارس ، إلى جنب نكد عائلى آخر أوجدته تلك المطامع العائلية الصغيرة التى أجد من البرّ أن أنساها . والقارئ يعرف أننا فى مصر نكابد خلافات عائلية تتعدد مراجعها من التمييز المالى أو المطامع المالية بين الورثة إلى الاشتباكات التى تعود إلى مصاهرات سيئة تحيل العائلات إلى قبائل تحيي الثأر وتعيش السنين وهى فى الشقاق والنزاع . وقد كابدت من كل ذلك مضضاً وألماً . ولكنى كنت أجد العزاء فى شغفى بالثقافة . بل لقد كانت هذه المساوئ العائلية تحملنى على تجنب الاختلاط بالاعتكاف للدراسة كما كانت الدراسة نفسها سروراً أنشده كى أخفف عن نفسى هذا البلاء .

وحين أرجع بذاكرتى الآن إلى تلك الأيام أجد أن بؤرة هذه المتاعب كان واحداً أو اثنين قد أسيء إليهما فى طفولتهما بالتدليل المسرف . فنشأ كلاهما على العدوان والعناد والخطف . والحق أنهما لا يزالان على هذه الحال إلى الآن .

وسافرت إلى أوربا وأنا على غير وجهة تعليمية معينة سوى الحصول بأية وسيلة على الثقافة العصرية . وقد كان ميراثى من أبى الذى مات وأنا دون السنتين يكفل لى نحو ٢٥ أو ٣٠ جنيهاً فى الشهر دخلا ثابتاً . فلم أحس الحاجة إلى إعداد مهنى أتكسب به . ولم تكن

الوظائف مغرية فى ذلك الوقت لأن الحاصل على الدبلوم لم يكن يزيد مرتبه على ثمانية جنيهات .

وقصدت إلى باريس عن طريق استامبول . وكانت الدولة العثمانية (تركيا) فى تضعضعها قد شاع فيها التفكك والانحلال . وكانت غايتى من اختيار هذا الطريق أن أرى أوربا قبل أن أهبط باريس . وقد يلذ للقارئ أن أروى له ثلاث حوادث وقعت لى فى السفر لاتزال بارزة فى ذهنى . أولها أنه كان يرافقنى فى قمرة الباخرة موظف تركى كان قادماً من اليمن إلى استامبول . وكان يعرف العربية . وكان يعين مساءه بشرب زجاجة من العرق . ويعين صباحه بملء فمه ماء ثم ينفخ طربوشه نفخاً من فمه ويمسحه بعد ذلك . وكنا نتحدث كثيراً عن السياسة التى كان يفيض ويصرح فى شئونها عقب الكؤوس الأولى من العرق . وكان يسب اليمنيين والعرب عامة . وكانت الباخرة قد قامت من بور سعيد تقصد إلى الموانى الشرقية على البحر المتوسط وتلبث فى كل منها نحو ثلاث أو أربع ساعات . فكنا ننزل للتفرج . فلما بلغنا أزمير اقترح على أن يرافقنى وأن نستأجر عربة لرؤية المدينة . فلما واجهنا العربات على رصيف الميناء جعل يسأل الحوذية بلغته التركية عن أسمائهم فطلبت منه أن يخبرنى عن السبب لهذه الأسئلة . فأجابنى : « أسأل كى أعرف إذا كان مسيحياً أم مسلما لأننا يجب ألا نركب إلا مع حوذى مسلم . » ولم يكن يعرف أنى مسيحى . وبصرت عندئذ بإحدى المشكلات التى أدت فى النهاية إلى موت السلطنة العثمانية . إذ ليس شك أن الأقليات من العرب والأرمن ، لما نالها من عسف ، حطمت بنيان هذه السلطنة لأن هذا التعصب الدينى كان يرافقه تعصب عنصرى آخر ضد العرب . كما نعرف نحن مما فعله الشريف حسين

الذى ألب العرب وانضم إلى الإنجليز وحارب الأتراك فى الحرب الكبرى الأولى .

والحادثة الثانية أنى وأنا فى استامبول دخلت قهوة تركية كان دخان النارجيلات قد انعقد فيها بحيث لم يكن الداخل ليستطيع التنفس أو رؤية السقف . وصدمنى هذا الجو فارتددت بعد أن فتحت الباب . وعدت إلى الشارع . ولكنى تأملت وقلت فى نفسى يجب أن أعرف هذا الوسط التركى بعيوبه وميزاته . ورجعت إلى القهوة وقعدت . وأنا من الأصل أكره الدخان . وظنى أنى على « استهداف » طبى منه . مثل أولئك الذين يستهدفون لهباء القطن أو القمح أو عطور بعض الأزهار . ولم يمض علىّ بهذه القهوة نصف ساعة حتى شعرت بغثيان فخرجت وقئت فى الشارع . وقصدت إلى الفندق وأنا فى غاية الكرب فى الرابعة بعد الظهر . وآويت إلى الفراش . وفى رأسى ضرّبان كأن مطرقة تدق دماغى . وتورمت الغدد فى عنقى . ولم أفق إلا فى صباح اليوم التالى . وكان واضحاً أنى تسممت بدخان هذه القهوة .

أما الحادث الثالث فهو رؤية السلطان عبد الحميد وهو يقصد من قصره إلى المسجد لصلاة الجمعة وكنا نحن المتفرجين قد اصطففنا على الطريق وأمامنا الجنود الأتراك فى صف عسكرى . وكانت المدافع تطلق قنابلها والنواقيس تدق فى المسجد ، على غير مألوفنا فى مصر . والمؤذن يهتف باللغة العربية ، ويدعو إلى الصلاة . وخرج عبد الحميد فى عربته وكان قد تجاوز الشيخوخة إلى الهرم المتحطم . فكان منحنياً يكاد رأسه يلمس ركبتيه . وكانت العربة تسير على مهل وهتاف القائد « بادى شاه شوك يشا » يبعث فى كل منا حماسة تاريخية وإن تكن غير ديمقراطية . ولكن أفسد علينا هذه الحماسة التاريخية منظر

آخر هو ضابط شركسى كان واقفاً قريباً منا . وكان غاية فى جمال الوجه وفتنة القوام . وزادت هذا الجمال شكّته العسكرية الزاهية ، وكان إلى جنبي وخلفى سيدات أجنبيات فأخذت عيناى تتجسس عليهن كى أرى وقع هذا المنظر فيهن . وكان ما توقعت . فقد تركت أعينهن عبد الحميد وتجمعت نظراتهن فى بؤرة مفردة هى هذا الضابط الشركسى ، وهكذا انتصر عرش الجمال والشباب على عرش السلاطين الأتراك .

وقطعت الطريق من استامبول إلى باريس على مراحل قصيرة كى أرى العواصم الأوربية حتى استقررت فى باريس . وسأروى فى فصل آخر ماذا رأيت فى فرنسا . وكنت قد تركت مصر عقب خروج كرومر الطاغية الإنجليزى الذى عاث وعربد فى كياننا الاقتصادى والسياسى وعطل بلادنا من التطور . وكان السبب لخروجه فظيعة دنشواى التى فضحت الاستعمار البريطانى فى جميع أنحاء العالم المتمدن :

ولم يكتب إلى الآن فى اللغة العربية تاريخ كرومر . فقد كان هذا الرجل جاهلا يتشدق بعبارات لاتينية أو غريقية إقديمة ولا يعرف شيئاً من العلوم العصرية الجديدة . ولما ترك مصر استخدمته مجلة « اسبكتاتور » فى لندن لكتابة النقد للكتب السياسية الجديدة . وكنت أقرأ مقالاته هذه وأنا فى لندن فلا أجد نوراً أو معرفة ، ولكن حذلقة لغوية جوفاء وآراء سخيفة مغرضة . وكان استعمارياً مسرفاً فى الاستعمار . فمنع التعليم ، وخاصة تعليم المرأة ، وقتل الصناعة المصرية ، وأحال القطر المصرى إلى عزبة للقطن . ولما أصر السر هنرى كامبل بانرمان رئيس وزارة الأحرار على طرده من مصر عقب فظيعة دنشواى وقف فى دار الأوبرا يودع أصدقاءه الإنجليز وأعداءه المصريين فقال هذه الكلمات التالية التى تدل على حنقه وعجزه . وذلك فى ٤ مايو من ١٩٠٧ :

« أخاف أن أكون قد أتعبتكم أيها السادة بطول الكلام . ولكن ما قلته إلى الآن كان عن الماضى . فإذا تكرمتم علىّ بالإصغاء فإنى أقول شيئاً عن المستقبل .

« ما هى حقائق الحال المصرية الآن ؟ أولها أن الاحتلال البريطانى سيدوم إلى ما شاء الله . وقد قالت لنا حكومة صاحب الجلالة الملك ذلك رسمياً . والثانى أنه ما دام الاحتلال البريطانى باقياً فالحكومة البريطانية تكون بالضرورة مسئولة عن الخطة التى تجرى عليها الحكومة المصرية . ولا يكونن عند أحد أقل ريب فى هذه الحقيقة الثابتة . والنتيجة التى أستخلصها من هذه المقدمة أن نظام الحكم الحاضر دائم . »

وإذا كانت هذه الكلمات تدل على حنقه فإنها أيضاً توضح سياسته التى اتبعها فى مصر .

وجاء بعد كرومر من يدعى جورست ، وكان قد أدرك أن الخديوى عباس يرأس الحركة الوطنية ويؤيد مصطفى كامل فى جهاده الوطنى وأراد أن يجتذب الخديوى إلى الإنجليز . فاخترع ما كان يسمى « سياسة الوفاق » أى أن الإنجليز يجدون المحالفة مع الخديوى أسوس له وأنفع لمصالحهم من الخلاف المستمر والتصادم بينهم وبينه . وكان ما أراد جورست . فإن الخديوى تنكر لمصطفى كامل بعدما أطلقت يد الخديوى فى « نظارة » الأوقاف . بل أصبح يناوئ حزب الأمة الذى كان يطالبه بالدستور . وكان أحمد لطفى السيد قد أصدر ، بمعاونة بعض الأعيان « الجريدة » . وجعل رسالتها الأولى الدعوة إلى الدستور . وكان من وقت لآخر يحمل على الخديوى لأنه تتاح له الفرصة لمنح الدستور ولكنه لا يمنحه . ووقعت البلاد من هذا « الوفاق » بين

عميد الاستعمار البريطانى وأمير البلاد فى هاوية من اليأس . وتوطدت الصداقة بين عباس باشا وجورست حتى إنه عندما مرض هذا سافر إليه الخديوى وزاره فى لندن وهو فى فراش الموت كما سبق آن ذكرت.

ثم كان هذا الانبعاث الوطنى الجديد فى الأمة فعمد جورست إلى مناورة استعمارية أخرى هى إيجاد الخلاف والشقاق بين المسلمين والأقباط. فكان الموظفون الإنجليز يحرضون الأقباط من ناحية على المسلمين ثم يعودون فيحرضون المسلمين من ناحية أخرى على الأقباط . وشرعت المصالح الحكومية تخرج إحصاءات ، غير مطلوبة ، كى تبين عدد الموظفين من القبط والمسلمين . وشرع كل فريق يعقد المؤتمرات ويطالب بطلبات كأن مصر لم يعد لها طلبات قبل الإنجليز المعتدين علينا جميعاً وإنما صار كل ما نطمع فيه أن يطلب المسلمون من الأقباط ترك هذه الوظائف أو تلك ويطلب الأقباط من المسلمين هذا الحق أو غيره . وهكذا انتهى جورست إلى « تهنيد » مصر . وسعد الإنجليز وشقينا نحن ونسينا الدستور ونسينا الاستقلال . وخيم الشر على الأمة حتى أن كاتباً يدعى عبد العزيز جاويش كتب فى اللواء جريدة الحزب الوطنى يقول فى رعونة إن المسلمين كانوا يستطيعون أن يصنعوا نعالا من خدود الأقباط . . .

وعاشت مصر أياماً سوداً اغتبط فيها العدو وابتأس الصديق . وقتل بطرس غالى باشا رئيس الوزراء فحمل قتله على أنه ثمرة التعصب الدينى . وهكذا تحققت الأسطورة التى اخترعها إدوارد جراى وزير الخارجية البريطانية كى يبرر بها فظيعة دنشواى وهى أن التعصب الإسلامى قد فشا فى مصر وعم أفريقيا الشمالية . واستغل المستعمرون هذه الأسطورة .

ومات جورست قبل أن ينال جميع الثمرات التى كان ينتظرها من الوقيعة التى غرسها بين الأقباط والمسلمين . وجاء بعده كتشنر ، وكان عسكرياً فظاً غليظ العقل يحمل حقداً قديماً على الخديوى . وبقى إلى ١٩١٤ ، وكانت غايته محو الحركة الوطنية وضم مصر إلى الممتلكات البريطانية . وسار بسيرة الضغط والعداء للأمة وللخديوى . وأفشى التجسس فى الحكومة . وأرسل بعثة مصرية إلى موسكو كى يتعلم رجالها طرق التجسس التى كانت تستعملها حكومة القيصر نيقولا فى مكافحة الأحرار الروس حتى تصل إلى شنقهم أو نفيهم إلى سيبريا . وأقام قلعة تحت ستار ثكنة فى ميدان باب الحديد لا تزال قائمة إلى الآن وعلى كل زاوية منها مزاغل من الحديد . وكنت أقرأ هذه الأخبار فى الجرائد التى واظبت على الاشتراك فيها وأنا بفرنسا وكلى يأس واغتمام . وكانت تصل إلى أيضا خطابات خاصة من أقاربى وأصدقائى الأقباط وهم حانقون على إخوانهم المسلمين وخاصة لهذا المقال البذىء الذى كتبه ذلك الكاتب الشاطح عبد العزيز جاويش ، عن خدود الأقباط تصنع نعالا ، فى نقاش صحفى بين جريدتى اللواء والوطن .

ولكن مع هذا الظلام الذى عم مصر فيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٢ كانت هناك أشعة من نور . منها الدستور الذى دأب حزب الأمة ولسانه « الجريدة » فى المطالبة به . ومنها هذا التطور الملحوظ فى الوطنية المصرية . والفضل فيه أيضاً للجريدة وأعنى به الانتقال من الوطنية العثمانية إلى الوطنية المصرية البحتة . وقد كان هناك تطورات أخرى غير ملحوظة لأنها سارت فى هدوء . فقد رأيت مصر سيدة مصرية تكتب فى الجرائد باسم « باحثة البادية » هى ابنة المرحوم حفنى ناصف بل رأيت أيضاً الآنسة نبوية موسى تنجح فى نيل الشهادة الثانوية

على الرغم من معارضة دنلوب لها ومنعها من التقدم للامتحان فى السنة الأولى . ومن التطورات غير الملحوظة أن الثروة انتقلت من العائلات التركية إلى العائلات المصرية . وذلك لأن أبناء الأتراك قنعوا بثرواتهم الموروثة ولم يتعلموا . فى حين أقدم الشبان المصريون على التعلم ، فصار منهم الأطباء والمحامون والمهندسون وعامة الموظفين . وكان هذا انتصاراً عظيما للعنصرية المصرية . والقراء الذين ألفوا رؤية وزراء من المصريين فيما بين ١٩٢٠ و ١٩٤٧ قد يتعجبون حين يعرفون أن المصرى القح لم يكن يعين وزيراً إلا نادراً ، بل نادراً جداً ، قبل ١٩٠٠ . وكان بطرس غالى باشا أول رئيس مصرى للوزارة منذ الاحتلال البريطانى . كما أن فرح الأمة باختيار سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف فى وزارة بطرس باشا كان يرجع بعضه إلى أنه مصرى العنصر . والتفاتى هنا إلى هذا الموضوع يدل القارئ على أننا منذ بداية هذا القرن كنا على وجدان بالعنصرية المصرية . وقد ضعف هذا الوجدان بتقهقر السلالة التركية فى الوظائف الحكومية .

وعدت إلى مصر بعد قضاء سنة فى فرنسا فى ١٩٠٩ ، وأذكر أنى حين نزلت فى الإسكندرية سارعت إلى قطع التذاكر عند شركة كوك لرؤية مدن الصعيد إلى الأقصر . وقضيت شهرين أتنقل من بلدة إلى أخرى أدرس الآثار المصرية . وكان الباعث المؤلم بل المخزى على هذه الرحلة أنى لم أكن ألقى أحداً فى أوربا إلا وكان يفاجئنى بالسؤال عن تاريخ الفراعنة الذين كنا نجهلهم تمام الجهل . لأن الإنجليز كانوا يشعرون أن هذا التاريخ الذى يشتعل مجداً وعظمة يجب ألا يعرفه أبناء الفراعنة فى القرن العشرين لئلا يشتعل فيهم مثل هذا المجد أيضاً فيطلبون الاستقلال . ومنذ ذلك الوقت وأنا أهتم بالفراعنة وثقافتهم ،

وكان كتابى « مصر أصل الحضارة » ثمرة هذا الاهتمام .

وعدت إلى القاهرة بعد هذه الرحلة . وكانت الحركة الوطنية على أشدها ، فكانت هناك المظاهرات من الطلبة ، كما كانت هناك الصحف التى تطالب الإنجليز بالجلاء والخديوى بالدستور والشعب بالنهوض . فكتبت أنا بعض المقالات فى اللواء جريدة الحزب الوطنى . وكان يرأس التحرير فيها المرحوم عثمان صبرى . وكان رجلا حكيما عرف الهوة التى أردى فيها عبد العزيز جاويش الأمة حين وصف خدود الأقباط بأنها تصنع نعالا فشرع يستصلح ويسترضى ويضع الوفاق مكان الشقاق . ودعانى إلى التحرير . وكان من أعظم ما طربت له أنى وجدت هناك فرح أنطون صاحب الجامعة التى وجدت فيها الثقاب الذى أشعل فى نفسى الرغبة فى درس الآداب الأوربية . وقد انتفعت كثيراً بصحبة فرح أنطون فى ذلك الوقت . فإنى ، زيادة على ما كنت أستمتع به من حديثه فى الصباح كنت أجتمع به فى المساء ، فى إحدى القهوات بميدان الأوبرا . وكان فرح جميل الطلعة عصرى الذهن أوربى التفكير ، يكره الأتراك والإنجليز على السواء . وكان مسامراً يتنقل من الأدب إلى السياسة ولا تفوته النكتة العالية والاقتباس الفريد .

وكان المندوبون الإنجليز ، كرومر وجورست وكتشنر ، سواء فى الغاية وهى استغلالنا ونهب أموالنا . ولكنهم كانوا يختلفون فى الوسيلة . فقد كان كرومر لورداً لا يعد هتلر شيئاً فى جانبه من حيث الاعتقاد بأن الآريين يفضلون الأسيويين والأفريقيين . وكان يصرّ على مظاهر السيادة البريطانية فى كل شىء بحيث كان يصرح بأنه يجب على الرئيس المصرى أن يخضع للمرءوس الإنجليزى . وكان لكل وزارة

« مستشار » هو فى حقيقته وزير يتصرف كما يشاء ، وليس على رؤسائه سوى الخضوع . وأستطيع أن ألخص سياسته كما أذكرها الآن فيما يلى :

١ — قتل الصناعة المصرية قتلا تاما بحيث لا يجوز لمصرى أن ينشئ مصنعاً ، إذ على مصر أن تستورد جميع المصنوعات من انجلترا ، بل من غير انجلترا ، إذا اقتضى الأمر ذلك ، حتى لا يتعلم المصريون شيئاً من الثقافة الصناعية .

٢ — إحالة القطر المصرى كله إلى عزبة للقطن ، كأنه ضاحية زراعية لمصانع لنكشير . وتوجيه نشاط الحكومة كله إلى هذه الغاية . حتى فقدت كلمة « مشروعات » معناها اللغوى عند الحكومة وأصبح معناها الوحيد زيادة المياه للرى حتى تزيد مساحة الأرض التى تزرع قطناً . وكانت هذه الزيادة فى المياه السبب فى تفشى البلهارسيا والانكلستوما واستشباع التربة بالماء حتى وهنت .

٣ — قصر التعليم وتحديد عدد المدارس لتخريج الموظفين للحكومة فقط ، وذلك بعد قصر نشاط الحكومة على مهمة واحدة هى زراعة القطن .

٤ — المحافظة على تقاليدنا التى ورثناها من القرون المظلمة وكانت تؤخرنا . وأهمها بقاء البرقع والحجاب للمرأة وتثبيط تعليمها . وقد اتبع من جاءوا بعده هذه الخطط كلها . حتى أننا لم نؤسس مدرسة ثانوية للبنات إلا فى ١٩٢٥ .

أما جورست فكان بعيداً عن صراحة كرومر . ولكنه كان يسير فى الخطة نفسها من حيث تثبيط التعليم ومنع الصناعة وزيادة الزراعة القطنية . وزاد على ذلك الوقيعة بين المسلمين والأقباط . وزاد أيضاً حباً متبادلا بينه وبين الخديوى عباس على حساب الشعب .

أما كتشنر فقد عاد إلى صراحة كرومر . وكان يكره الخديو عباس كراهة شخصية ، ولم يكن فيه من الميزات السياسية ما يمكنه من إخفاء هذه الكراهة . وكان صغيراً فى أساليبه شرساً فى مبادئه الأمبيريالية . فقد أراد الخديو عباس حوالى ١٩١٣ أن يزور بعض المدن . وكان الأعيان يستقبلونه على المحطات . فكان من صغار كتشنر أنه عندما كانت القهوة توشك أن تقدم على المحطة يصفر القطار ويطير فى سرعة مفاجئة فيرتبك الخديو ويضطرب المستقبلون ويعم الهرج . وكان هذا الصغار يلذّ لكتشنر . وقد ذكر هذه القصة جورج لويد مع الإعجاب ، لأن هذا الأخير كان ، نفساً وذهناً ، لا يختلف عن كتشنر صغاراً وانحطاطاً .

وقد كانت شهرة كتشنر حربية . ولذلك كانت له الكلمة العليا فى الحرب الكوكبية الأولى . وقد عانى الإنجليز أعظم خسائرهم باستماعهم لمشورة كتشنر الذى أوصى بإنفاذ حملة إلى الدردنيل كانت من بدايتها لنهايتها خساراً فادحاً للإنجليز وهزائم متوالية منكرة .

ولم أبق سوى بضعة أشهر فى اللواء جنيت فيها مرانة حسنة على الكتابة وبعض الدراية عن الشئون الداخلية فى مصر . ثم سافرت إلى فرنسا عن طريق سويسرا التى تركت لى أجمل الذكريات النفسية عن جبالها وبحيراتها ومدنها وناسها وحريتها وثقافتها .

وكنت وأنا بفرنسا أتتبع الجهاد الوطنى فى مصر وأشترك فى معظم الجرائد والمجلات . ووجدت فى «الجريدة» نزعة وطنية جديدة خلاصتها أن الجهاد يجب أن يتركز فى بؤرة وطنية هى أن مصر للمصريين وليست للإنجليز أو الأتراك . وإن الشعب يجب أن يحكم نفسه بدستور

حتى لا يترك الخديوى حاكماً مطلقا للبلاد . وقد أدت هذه الدعوة إلى تقهقر الحزب الوطنى ، وإلى اعتناق الأقباط للوطنية المصرية التى كانوا قبل ذلك يتوجسون منها ويخشون أن تكون وطنية تركية لمصلحة السلطنة العثمانية .

وأخذت الحركة للمطالبة بالدستور تنتشر وتعم الأمة ، وأصبح الخديوى بعيداً عن الحركة الوطنية إن لم يكن مناهضاً لها .

الآفاق الأوروبية تتفتح لى

لما فوجئ العالم فى أوائل أغسطس من هـــذا العام (١٩٤٥) بالقنبلة الذرية وجد كثير من شباننا « المتعلمين » أنهم محتاجون إلى أن يراجعوا حياتهم وأن يفتشوا أذهانهم كى يعرفوا موقفهم على هذا الكوكب . وقد اضطر كثير منهم إلى أن يغيروا الأوزان والقيم الثقافية التى كانوا يرتضونها من قبل وأن يستبدلوا بها قيما وأوزاناً أخرى . وقد أحدثت هذه القنبلة صدمة فى أذهان هؤلاء المتعلمين أؤكد أنها لا تقل ، فى قيمتها الروحية ، عن الصدمة المادية التى أحدثتها فى هيروشيما وناجازاكى فى اليابان .

أعرف من هؤلاء الشبان اثنين كلاهما يستمتع بمركز مالى حسن كما أنه على اطلاع حسن بالتيارات الثقافية العصرية . وقد كان إلى أغسطس الماضى قانعاً بمعارفه وتطوراته الذهنية . ولكن هذه القنبلة كشفت له عن نفسه فجاءة . فقال لى واحد منهما : « أشتهى أن أعيش طويلا كى أتعلم وأعرف كثيراً من تطورات العالم بعد ظهور هذه القنبلة . »

وقال الثانى : « إنى أحس كأنى أحتاج إلى تربية جديدة كاملة أولد بها من جديد أتعلم معارف جديدة وأقف على كنه هذه القنبلة وعواقبها الحربية والمدنية » .

وقد ذكرت مثلى هذين الشابين كى أقول إنى فى عام ١٩٠٨ أحسست مثل هذا « الوجدان » وضاقت نفسى إلى حد الانفجار . فقد وجدت من الأدب الذى نقله إلى العربية فرح أنطون ومن نظرية التطور التى دأب فى شرحها يعقوب صروف سنوات فى «المقتطف» أنى إزاء

رؤيا أنا أعمى إلا عن بصيص منها ، وأن هناك آفاقاً مغلقة يجب أن يكون همى واهتمامى فى حياتى أن أفتحها . وذلك بعد أن استقر عندى أن جهلى عميق ، وأنى فى مصر أعيش فى حياة ذهنية صحراوية تقفر من التفكير الخصب . لذلك قررت وأنا فى التاسعة عشرة أن أترك مصر وأرحل إلى أوربا كى أبحث عن الحياة وأربى نفسى وأولد من جديد . وكنت فى ذلك الموقف الذى وجدته فى أغسطس من ١٩٤٥ من ذينك الشابين اللذين ذكرتهما ، وأحسست كأنى أريد أن أنسى ، عن ظهر قلب ، كل ما سبق أن تعلمت ، وأن أمسح لوحة ذهنى كى أنقش فيها المعارف التى أختارها بنفسى .

وكان من حظى الحسن ، كما سبق أن ذكرت ، أن الناحية المالية بفضل ما ورثت من عقار صغير مغل ، لم تحوجنى قط إلى الاهتمام بالكسب ولم يكن الإسراف أو الاستهتار فى مزاجى . ولذلك لم أبال فى دراستى أن أعين هدفاً بنية الارتزاق والكسب ، بل كان كل قصدى ونشاطى أن أستنير وأن أقشع هذا الظلام المخيم على عقلى . وشرعت آخذ تربيتى فى يدى وأعين برنامجى أو برامجى لا للدرس فقط بل للحياة أيضاً . بل الحق أن الدرس كان عندى هو الحياة ؛ لأنى شعرت أنى أعيش لأدرس وأنى أدرس لأعيش . ويبدو لى أنى أحسنت الاختيار فى هذا البرنامج ؛ لأنى أجد فى ١٩٤٥ أن همومى الثقافية لا تزال هى نفسها تلك الهموم التى كانت تشغل قلبى وذهنى فى ١٩٠٨ و ١٩٠٩ . وإذا كان هناك تغيير فهو فى التوسع والتفرع فقط .

فى ١٩٠٨ سافرت إلى فرنسا وهبطت باريس :

شباب وفراغ وباريس ، وأنا فى التاسعة عشرة ، ولكن لا ! فإن باريس عندى لم تكن مدينة الأنوار التى كان يحج إليها المصطافون

ويجدون فيها ما يشتهون . لأن هذا الذى يشتهون قد وضع لهم وحدهم . إذ أن سواد الباريسيين يجهله . وباريس من حيث الانغماس الجنسى تعد من أنسك العواصم الأوربية . ثم كانت شهواتى الملتهبة فى تلك السنين ذهنية أكثر مما كانت جنسية . وكانت الدهشة عندى على أعظم ما تكون حين وجدتنى فى مجتمع يخالف المجتمع الذى نشأت فيه فى مصر . ولم تكن دهشة منبهة فقط بل كانت صدمة موقظة .

كنت فى مصر قبل ١٩٠٨ أعرف الحجاب وأرتضى شعائره ولا أجد غرابة أو عيباً فى التلميذات الصغيرات يدخلن المدرسة السنية الابتدائية وعلى وجوههن براقع بيض . وكنت أجد الفصل بين الجنسين شيئاً مألوفاً . والبيت فى مصر خدر كامل ونساؤنا مخدرات كاملات . ولا أكاد أذكر أنى طوال عمرى فى مصر قبل سفرى إلى فرنسا قد تحدثت إلى آنسة أو قعدت إلى سيدة أو فتحت عينى فى وجه امرأة مصرية . فلما وجدت المجتمع الباريسى واختلطت به ورأيت فيه المرأة الفرنسية على حريتها وصراحتها وطلاقتها شعرت أن أفقاً جديداً يتفتح أمامى لم يستطع يعقوب صروف أو فرح أنطون أن يفتحه لى من قبل . فإنهما لم يمسا هذا الموضوع ، أى حرية المرأة ، لسبب واضح وهو أنهما مسيحيان . وكانا بالطبع يخشيان أن يعاب عليهما النقد للعقائد أو التقاليد الإسلامية . ولم أكن قد عرفت قاسم أمين أو بالأحرى لم أتحمس له . ولا أدرى العلة لغيابه عن وجدانى فى ذلك الوقت . لذلك كنت حين أضطر إلى محادثة إحدى الباريسيات أحس ارتبا كا يغمر كيانى فلا أجد اللعثمة فى لسانى فقط بل التخاذل أيضاً فى سائر أعضائى . وقد احتجت إلى سنوات كثيرة حتى أتغلب على هذا الشعور المتعس الذى غرسته فى نفسى تسع عشرة سنة من الفصل بين الجنسين فى مصر .

وواضح أن هذا الشلل النفسى منع عاطفة الحب أو كظمها فى الوقت الذى كان يجب أن تنفرج فيه أو تتسامى . ذلك أن للحب فناً كنا نجهله نحن فى مصر فى تلك السنين . وكانت أية محاولة منى نحو التعارف الحميم بآنسة تنتهى بخيبة تكوى القلب والعقل معاً . وفى مصر فى وقتنا هذا من ينظر إلى الاختلاط بين الجنسين بعين المقت أو النفور ولكنى حين أقارن حالى سنة ١٩٠٩ وما كنت عليه من تعس جنسى ووكس عاطفى بحال شبابنا الآن فى سرورهم ولهوهم أرانى مضطراً إلى الاعتراف بأنهم سعداء يغتبطون فى ظروف كنت أنا فيها شقياً يرثى لى .

وحبست نفسى فى مدرسة ابتدائية فى قرية قريبة من باريس تدعى موليرى من قرى القرون الوسطى . واندغمت فى عائلة ناظر المدرسة ، وشرعت أتعلم اللغة الفرنسية فى نشاط ومثابرة حتى نبزت بين المعلمين بعبارة «كيه فوديرسا » أى « ما المعنى» وذلك لإلحاحى على السؤال . ولم تمض أشهر حتى وجدتنى أقرأ الجريدة اليومية بل الكتاب فى فهم وتحقل بمساعدة المعلم . وكان انتفاعى بجرائد فرنسا اليومية عظيما لأنها وجهتنى فى السياسة وجهة عالمية كانت جرائدنا فى مصر فى ذلك الوقت تعجز عنها . وانقطعت صلتى بمصر باستثناء « الجريدة » التى كان يصدرها لطفى السيد وكان يلقن بها تعاليمه الجديدة : مصر للمصريين لا للأتراك ولا للإنجليز . حرية المرأة . الحكومة الدستورية بإيجاد برلمان . وكان يكتب فى هذه الشئون وغيرها بأسلوب اقتصادى بعيد عن الزخارف التى كنا نتعلمها فى المدارس الثانوية ونحسب أنها قمة البلاغة وتاج الفصاحة . وقد عرفت أن مجلة « المقتطف» قد جمعت هذا العام (١٩٤٥) عدداً كبيراً من مقالاته التى كتبها بالجريدة فيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٤ . والقارئ يستطيع أن يجد فى هذه المقالات ذلك

التوجيه الوطنى الذى وجدته أنا فى تلك السنين منها .

وكانت المرأة الفرنسية كما قد عرف القارئ مما ذكرت ، أعظم ما حرك وجدانى الاجتماعى . بل كذلك حرية المرأة فى أوربا الغربية . فإن هذه الحرية كانت لهباً يلسع ويجرحنى فى كرامتى الوطنية كلما ذكرت حال المرأة المصرية . وإلى هذه السنوات وإلى هذا الوجدان تعود ثورتى بعد ذلك على التقاليد المصرية التى لم أعد أطيق صبراً عليها ؛ وكثيراً ما فقدت صداقات كنت أحرص عليها لموقفى من هذه التقاليد . بل هناك من أصدقائى من يقول إنى فقدت مكاسب .

وبعد ذلك قرأت هنريك إبسن ودعوته إلى شخصية مستقلة للمرأة ثم عرفت المنظمات والجمعيات النسوية التى كانت فى لندن تطالب بحقوق الانتخاب والنيابة . وامتلأ قلبى وذهنى نوراً وتفاؤلا بمستقبل البشر.

وقد نشأت فى مصر فى وسط ريفى . ولذلك التفت إلى الريف فى فرنسا وتعلمت منه . فإننا فى مصر لا نرحل إلى الريف إلا مضطرين كارهين لأننا نتوقع الغبار على السكك والإهمال الصحى فى المساكن . وريفنا فضلا عن هذا صحراء الروح لما يخيم عليه من جهل وفاقة وقذر للجسم كأنه الدنس للنفس . ولكن ريف فرنسا جنة العين . وكنت أجد السعادة العظمى فى فسحة أقضيها ماشياً على الطرق الزراعية التى يكسوها البلاط (وقتئذ) بين حقول تموج بحركة الحياة النامية فى البقول أو تزدان بالكروم وأشجار الفاكهة الزاكية . وما زلت أذكر ذات مرة أنى رأيت على مسافة فى جولاتى هرماً صغيراً أحمر أثار استطلاعى فقصدت إليه . فلما بلغته وجدته شجرة قد كساها التفاح الأحمر حتى كاد يخفى أوراقها . . .

والقرية الفرنسية ، مهما صغرت ، تحتوى كثيراً من المرافق

الاجتماعية حتى لكأنها مدينة صغيرة . فإن فيها المطعم والحانة والفندق والسوق الأسبوعيـــة . ولذلك كثيراً ما يقضى الباريسى أسبوعاً أو شهراً فى الريف كما يقضى أحدنا مثل هذه المدة فى الإسكندرية أو رأس البر .

وفى الحرب الكبرى الثانية أشار الماريشال بيتان شبهات وشكوكا بشأن المجتمع الفرنسى أوهمت كثيراً من القراء المصريين أن هـذا المجتمع مريض قد تفككت فيه العائلة وتزعزع الإيمان . والواقع أن كل هذا وهم ؛ فإنه ليس فى أوربا عائلة متماسكة كالعائلة الفرنسية . ولا يزال نظام هذه العائلة بطريركياً لا تخرج فيه السلطة عن الأب . وليس فى كل أوربا الغربية أمة تحترم الكنيسة كما يحترمها الفرنسيون . وحسب القارئ أن يعرف أن جميع الكنائس فى فرنسا ، وبعضها ينفرد فى ريف ناء ، تترك مفتوحة ليلا ونهاراً . ومع ذلك لا يسرق ما فيها من الأثاث الغالى الذى يقدر أحياناً بمئات أو ألوف الجنيهات . وهذا على الرغم من حرية الفكر المستفيضة . لا بل على الرغم من الدعايات النشيطة ضد الدين والكنيسة . وما زلت أذكر منظراً كان له أثر الصدمة الموجعة لأول شهر كنت فيه فى باريس فى ١٩٠٨ . فقد رأيت جنازة تسير فى أحد الشوارع تتقدمها راية قد كتب عليها « لا رب ولا سيد » !

ومثل هذا المنظر يوهم أن الأمة الفرنسية قد استفاض فيها الكفر والإلحاد . ولكن وقفة واحدة خارج الكنيسة أو داخلها يوم الأحد كانت تكذب هذا الوهم . فإن كاهن القرية هو الرئيس الروحى الذى يخاطب السكان بلهجة الأمر تحيط به هيبة التقاليد . والواقع أنه ليس فى أوربا كلها كنيسة حية كالكنيسة الفرنسية .

والحانة ، على الرغم من اسمها وشهرتها ، هى فى باريس والمدن والقرى مؤسسة اجتماعية للسمر بين الرجال أو بين الرجال والنساء . وكثيراً ما يجد فيها الزائر الطعام إلى جنب الشراب . ومع أن فى فرنسا آلاف الحانات ،ومع أن الأطفال يشربون الخمور ، فإنى لا أذكر أنى رأيت طوال إقامتى فى فرنسا فى ١٩٠٨و١٩٠٩ رجلا سكران . ولعل مرجع ذلك أن الفرنسى يأكل ويشرب ويسكن ويلبس ويعمل وله فى كل ذلك مأرب فنى يحمله على أن يتأنق فى معيشته . فهو يتجنب السكر عن تأنق وفن كما يجد فى التمالك كرامة ولياقة . والمائدة الفرنسية ، بأوانيها وزهورها ، هى متعة فنية للعين كما هى لذة الذوق بمهارة طهاتها .

وبدهى أن لتماسك العائلة الفرنسية نتيجة هى أن فرنسا أقل أقطار العالم كله طلاقاً . وأن البيت الفرنسى يشبه فى كثير من الأحيان متحفاً يحوى كثيراً من التحف القديمة والطرف الغالية . والجيل الجديد يرث عن الجيل السابق تقاليد فى البيت هى الشعائر الاجتماعية التى يتعارف بها الأفراد كما يرث الأبناء تراث الآباء من أثاث مادى أو ذكريات روحية .

وتعلمت اللغة الفرنسية فى سرعة عجيبة . وقد هبطت وحدى بلا معونة على طريقة ، وجدت بعد ذلك أن المربين التفتوا إليها ، هى أن الجملة ،دون الكلمة ،هى التى تحفظ وتستذكر . وحين كنت أزور باريس كنت على الدوام أعنى بحضور إحدى الدرامات . وقد أتيح لى أن أستمتع برؤية سارة برنار وهى تمثل « العقاب الصغير » ولكنها كانت فى كهولتها قد ذهبت عنها لمحة الشباب مع بقاء البراعة الفنية .

ودأبت فى قراءة الجرائد الفرنسية اليومية . وكانت تباع بأثمان

التراب . وتعرفت إلى الأحزاب الفرنسية وشغفت بقراءة الأومانيتية التى كانت تعبر عن آراء الاشتراكيين . وكانت الاشتراكية رؤيا جديدة حملتنى على أن أذكر الطبقة الفقيرة فى مصر وأجعلها موضع اهتمامى . وأكسبتنى الجرائد الفرنسية العقلية السياسية الأوربية ، واستطعت أن أفهم كثيراً فى ضوء المذهب الاشتراكى . وكانت جرائدنا فى مصر « محلية » قد أنهكها الكفاح للاستقلال وحال بينها وبين دراسة الشئون العالمية . ولذلك انتفعت كثيراً بهذه النظرة الواسعة . وخاصة لأن إقامتى فى فرنسا صادفت تلك السنوات التى سبقت الحرب الكوكبية الأولى . فكانت الخماثر تختمر لمن يتشمم الأخبار ويتنسم الطوالع .

ومع أن اللغة الفرنسية هى لغة الإفصاح والإيماض . لغة الأدب الحر الذى يمتاز بعبقرية خاصة فى الدقة والوضوح ، ومع أن باريس بؤرة الآداب الأوربية بل شعلة الثقافة التى تعشو إلى ضوئها عيون الأوربيين ، ومع أن فرنسا لا تزال فى وجدانى فكرة أكثر مما هى قطر ، فإنى ، لاتجاهى العلمى ، وجدتنى فى مستقبل أيامى أميل إلى قراءة الكتب الإنجليزية وأوثرها على الفرنسية . لأن الإنجليزية تعبر عن نزعة عملية تحقيقية كثيراً ما نجدها بعيدة أو غائبة عن المزاج الذهنى الفرنسى ، ولذلك أعزو تربيتى أو بالأحرى معارفى الثقافية إلى الإنجليزية أكثر مما أعزوها إلى الفرنسية .

وإذا سألنى القارئ : هل وجدت فى الإنجليزية أديباً له مرانة الفن ودقة الحس وإناقة التفكير وجمال التعبير مثل أناطول فرانس أو هل وجدت أديباً فى الإنجليزية له حكمة فولتير وثورة روسو وجنونهما المقدس فى خدمة الحق والفن؟ فإنى أجيب بلا . بل إنى أعترف أن هناك

آخرين غير أناطول فرانس وفولتير وروسو ممن أثمرتهم الثقافة الفرنسية ولا يوجد من يضارعهم من أدباء الإنجليز أو الأمريكيين . ولكن ميزة الكاتب الإنجليزى ، وأسمى كتاب الإنجليز عندى هو برنارد شو ، ميزته أنه يلصق بالحقائق ، وله قدم ثابتة فى الأرض حتى حين يرتفع رأسه فوق السحاب . ومع أنى ما زلت إلى الآن اوثر الجريدة الفرنسية فى القاهرة على الجريدة الإنجليزية ، ولا أترك نزعة أدبية فرنسية تفوتنى ، فإنى حين أحتاج إلى دراسة ، تطالبنى بالهرس والطحن ، أعمد إلى الكتب الإنجليزية .

وفضل فرنسا علىّ أنها جعلتنى أوربى التفكير والنزعة . وقد تركت باريس فى نفسى إحساساً بأنها عاصمة العالم المتمدن . ولم يتركنى هذا الإحساس إلى الآن . بل إنى أرى من الحق أن نصف المصرى أو الألمانى أو الروسى أو الصينى الذى استشبع بالثقافة الفرنسية بأنه « فرنسى » كما كان يوصف سكان البحر المتوسط من الرومان والمصريين والمشارقة بأنهم « هلّينيون » إذ استشبعوا بالثقافة الإغريقية ونزعوا النزعة الأتينية . لأن إغريقيا لم تكن وطناً جغرافياً للإغريق فقط بل كانت أيضاً وطناً ثقافياً لغيرهم من أبناء الأمم المجاورة . وكذلك فرنسا ليست الآن وطناً جغرافياً للفرنسيين وحدهم ، وإنما هى وطن كل مثقف درس الثورة الفرنسية وأحب باسكال وروسو وعرف كلود برنار وأناطول فرانس . ولا يستطيع أحد أن يقول مثل هذا القول عن أى قطر آخر . لقد فتحت لى فرنسا الآفاق الأوربية التى لا تزال تنبسط أمامى فتكسب حياتى مغزى حتى حين أعيش فى وسط ليس له معنى فضلا عن مغزى . وأى عزاء أكبر من هذا ؟

أنا أربي نفسي

فى ١٩٠٩ قصدت إلى لندن بعد قضاء شهرين فى مصر عقب عودتى من فرنسا . وهنا يجب أن أذكر أن السفر كان فى ذلك الوقت حراً . فلا جوازات وتقييدات أو عراقيل حكومية . وكان السفر إلى باريس أو برلين أو لندن لا يختلف عندى من السفر إلى طنطا أو أسيوط . وأذكر أنى أخذت إلى لندن باخرة قادمة من الهند عليها موظفون من الإنجليز فى الحكومة الهندية . فقاطعونى حتى على المائدة حين يحتاج كل واحد إلى مناولة الملاحة أوإناء الماء أو غيره . ولم أنجح فى حمل أحد من هؤلاء الإنجليز على الحديث معى ونحن على سطح الباخرة . وعوملت كما لو كنت هندياً . أنا العبد وهم السادة . ولكنى وجدت بعض الهنود الذين عزلوا أيضاً ، اجتماعياً ، مثلى . فكنا نتحدث معاً ونحن على وجدان بهذا الاستغراض الإمبراطورى . أجل . لقد عرف الإنجليز نظرية « الشعب السائد » ومارسوها حين كان لايزال الألمان مبتدئين فى تفهم مغزاها يكتبون عنها فقط . وكان هذا أول اختبارى للاستغراض اللونى . لأن أوربا كلها لم تكن تعرف هذا الاستغراض . وكنا نحن المصريين نجد الاحترام بل الإكرام فى عواصم أوروبا إلا فى عاصمتين : استامبول حيث كان الأتراك ينظرون بالاحتقار إلى كل عربى ، ولندن حيث كان الإنجليز على وجدان وقح بسيادتهم للهنود والمصريين وسائر الأمم التى استولوا عليها .

وقد يسأل القارئ : لماذا لم أعد إلى باريس بعد أن قضيت

فيها نحو سنتين كانت بالطبع لا تكفى للتعلم ؟

وللإجابة أقول إن باريس بعد أن بسطت لى آفاق الثقافة الأوربية حملتنى على أن أسرف فى الطموح . فقد كنت فى مصر أعيش فى عزوبة ثقافية لا أقرأ غير اللغة العربية ولا أستنير عن شئون هذا العالم حتى بقراءة الجريدة العربية . وكان تعلمى للفرنسية بمثابة التزوج من الثقافة الأوربية . وخشيت إن أنا بقيت فى باريس أن أنسى اللغة الإنجليزية التى تعلمتها بمصر . فأضمرت برنامجاً لتربيتى الذاتية ، برنامج الحياة ، هو أن أعيش فى لندن سنة أو أكثر ثم أقصد إلى برلين فأتعلم الألمانية . وامتلاك هذه اللغات الثلاث يكفل الاتصال بالعالم المتمدن كله جملة وتفصيلا من حيث الوقوف على معارفه واتجاهاته . وقد اختل هذا البرنامج فيما بعد . فإنى وأنا فى لندن شرعت فى تعلم الألمانية . ولكن صعوبة هذه اللغة ، وأيضاً سوء الطريقة التى اتبعها المعلم معى ، كلاهما جعلنى أكف عن الاستمرار فى تعلمها . وبدلا من أن أبقى فى لندن سنة بقيت نحو أربع سنوات .

ورأيت وأنا بلندن أن أتخذ دراسة نظامية إلى جنب دراساتى الأخرى الاختيارية . ولم يكن لى من قصد فى هذه الدراسة النظامية سوى الحصول على الشهادة للوجاهة لا للكسب . ولذلك لم أبال أية دراسة . والتحقت بلنكولنز إن . وهى أشبه بهيئة نقابية للمحامين فى لندن تجهز الطلبة الملتحقين بها بدراسات قانونية ينتهى من يجتاز الامتحان فيها بالحصول على شهادة هى فى الحقيقة رخصة بأن يكون محامياً أو وكيل دعاوى . وقد كان اختيارى لهذه الدراسة كارثة . فإنى بعد أن درست الدستور البريطانى بشىء من الحماسة والتوسع وجدت سائر القوانين الإنجليزية لا تطاق ولا تستحق العناء وخاصة

تلك القوانين التى تعالج مشكلات التجارة البحرية . ولذلك شملنى فتور حال دون الاستمرار فى الدراسة .

ولكن هذا الفتور فى دراسة القوانين الإنجليزية كان يصحبه نشاط محموم فى دراسات أخرى كنت أتهجد لها فى الليل . كما كانت هناك فترات تطول أياماً بلا دراسة ولكن فى تأمل وفى امتحان ذاتى حين كنت أبحث عن مراسىّ فى هذه الدنيا المبلبلة . وأذكر أنى ، فى إحدى هذه الفترات ، وجدتنى قاعداً على الكرسى كأنى قد سمرت به . وكأنى نويت أنى لن أبرح هذا الكرسى حتى أصل إلى قرار حاسم . ماذا أنا عامل فى هذه الدنيا ؟ من هم خصومى الذين يجب أن أكافحهم ؟ من هم أصدقائى الذين يجب أن أؤيدهم ؟

ووجدتنى أفكر وأجيب . وأحياناً يحتد تفكيرى فأسمعه كلاماً أنطق به . أجل . ليس لى مأرب فى هذه الدنيا . فلست أبالى أن أكون ثرياً . لا بل لست أبالى أيضاً أن تكون لى زوجة وأطفال . وإنما قصدى أن أفهم ، أن أعرف كل شىء وآكل المعرفة أكلا .

ثم عدت فقلت : ولكن لماذا ؟ وأجبت لأكافح .

أكافح الإنجليز حتى يجلوا عن وطننا . وأيضاً أكافح تاريخنا .

أكافح هذا الشرق المتعفن الذى تنغل فيه ديدان التقاليد . وأكافح هذا الهوان الذى يعيش فيه أبناء وطنى : هوان الجهل وهوان الفقر . أجل إنى عدو للإنجليز وعدو لآلاف من أبناء وطنى ، لهؤلاء الرجعيين الذين يعارضون العلم والحضارة العصرية وحرية المرأة . ويؤمنون بالغيبيات . وصارت هذه الأفكار هماً يؤرق .

وعقب مقامى فى لندن بأربعة أشهر فقط أصبت بنزلة شعبية فنهضت منها منهوكاً حتى نصح لى الطبيب المعالج بأن أعود إلى مصر كى أنتفع

يشمسها . فوجدت أن العودة إلى مصر بعد شهو، فقط قد تحدث ارتباكاً كبيراً فى برنامجى . ولما كان الغرض هو ترك جو لندن أى الضباب والبرودة فإنى فكرت فى مراكش لقربها من إنجلترا . وقلت: أقضى بضعة أسابيع هناك وأعود فى مارس حين يكون قد خف البرد . وتجهزت للسفر . وكانت الرحلة من لندن إلى جبل طارق حافلة بعناء الأمواج المضطربة فى خليج بسكاى ونغاصة الإقامة مع الموظفين الإنجليز العائدين إلى مصر والهند وسائر الإمبراطورية . وكان هؤلاء ينظرون إلينا كأننا كلاب بل أشنع . ونزلت فى جبل طارق حيث طاب لى أن أتردد على المركشيين التجار وأتحدث معهم بالإنجليزية والعربية .

وقصدت إلى طنجة مدينة ابن بطوطة . وهناك قضيت نحو عشرين يوماً كان أعظم وقعها فى نفسى أنى اقتنعت بأن الشرق مفلس وأن طراز الثقافة الذى يعيش به ويسترشد بقواعده يجب أن يتغير . فقد كانت الحكومة المراكشية تبيع الحشيش للأهالى وتحتكر الاتجار به تؤثر بذلك ربحها على صحة السكان . وقد حدث أنى خرجت مع الدليل لرؤية بعض الآثار الرومانية التى تبعد أميالا عن طنجة . وكان كل منا على بغلة . ولما وصلنا إلى سفح تل نزلنا للاستراحة . فانطلقت بغلة الدليل وفرّت فوق التل . فلما طلبت إليه أن ينهض ويدركها أجابنى فى برود وطمأنينة بأن الحشيش « قطع » قلبه . وإنى يجب أن أنهض أنا وأعدو وراء البغلة حتى أمسكها وأعود بها إليه . ونظرت إلى وجهه وتأملت شحوبه وتحقق لى أنه ليس هناك مفر من أن أستمع لكلامه . وقمت أجرى خلف البغلة على التل . وقد احتجت إلى نحو نصف ساعة وأنا ألهث جهداً حتى قبضت عليها وعدت بها لهذا الدليل الحشاش .

وقيل لى وأنا فى طنجة إن الرقص ممنوع . ولكن الدليل أسرّ

فى أذنى بأنه على الرغم من هذا المنع فإنى أستطيع أن أرى الرقص وأسمع غناء المغربيين . ولكن فى مكان غير علنى . وبعثنى الاستطلاع على أن أستجيب لاقتراحه . وقصدت معه بعد الثامنة مساء إلى هذا المكان حيث وجدت فتيات عاريات لا تستر أجسامهن خرقة وهن يرقصن ويغنجن ويغنين أغانى مراكشية ويطربن الأجانب وبعض الوطنيين بهذا الابتذال الذى بعث فى نفسى اشمئزازاً عظيما .

وكانت لغة المغاربة عربية بالطبع . ولكنها تنطق بلهجة تغاير لهجتنا فى مصر حتى كنت أوثر التحدث بالفرنسية . فإذا لم يفهمهما محدثى ألقيت عليه السؤال باللغة العربية الفصحى . وكان ، بعد أن يتأملنى فى دهشة ، يجيب بفهم على سؤالى . وقد كتبت عن رحلتى هذه مقالا بالمقتطف فى ١٩٠٩ بعنوان : « أسبوعان فى المغرب » .

وعدت إلى لندن منتعشاً معافى وقد فطمتنى الزيارة للمغرب من أى أثر باق من الولاء للشرق . وشرعت أتعرف إلى ينابيع الثقافة الإنجليزية العصرية وأتتبع مناقشات الصحف . والتحقت بالجمعية الفابية التى كانت تنشر الاشتراكية بين المتوسطين والأغنياء دون العمال . وكانت هذه الجمعية فى ذلك الوقت تجمع عدداً كبيراً من المتيقظين للتطورات الاجتماعية والاقتصادية بزعامة برنارد شو وولز . وكان الثانى قد تركها ولكن أثره كان باقياً . ولم أنقطع منذ عرفت هذين المؤلفين عن دراسة مؤلفاتهما التى تعد تربية عصرية فى الاقتصاد والاجتماع والدين والأدب والعلم . وقد تربى عليهما جيل فى أوربا وأمريكا أصبح أفراده يقودون عصرهم ويرتادون المستقبل . وعرفت أيضاً جمعية العقليين . وكانوا يطبعون مؤلفات مبسّطة رخيصة عن العلوم والمكتشفات التى تناهض العقائد الدينية المألوفة . وقد طبعوا الملايين

من هذه الكتب التى كان يباع الواحد منها بنحو ٢٥ مليما . وقرأت جميع مؤلفاتهم ومطبوعاتهم .

وكان المذهب العقلى يتفشى فى أوربا فى تلك السنين ويجد أخصب تربة لنموه فى فرنسا . فقد كان فى باريس جرائد يومية ، مثل لو لانترن ، تكافح الغيبيات . ولا أنسى مظاهرة هائجة ارتجت لها لندن وسائر العواصم الأوربية حوالى ١٩١٠ . فقد حدث أن رجلا من هؤلاء العقليين يدعى فرانسيسكو فيرير أعدم فى أسبانيا . وكانت التهمة التى حوكم من أجلها أنه دبر مؤامرة لقلب نظام الحكم من الملوكية إلى الجمهورية غير تهم أخرى خاصة بالجيش . ولكن التهمة الحقيقية كانت أنه كان ينشر فى أسبانيا المظلمة مؤلفات الأحرار فى أوربا مثل فولتير ونيتشه وكوربتكين وروسو وتولستوى ويترجم مؤلفات العقليين ، وخاصة ما اتصل منها بنظرية التطور ، إلى اللغة الأسبانية ويبيع هذه المؤلفات بأثمان منخفضة حتى تصل إلى العامة . ورأى الكهنة والرجعيون أن هذه المؤلفات خمائر سوف تقوّض سلطانهم وتلغى امتيازاتهم واحتكاراتهم . فدبروا له تهمة «قلب نظام الحكم عنوة» وأعدموه .

وهاجت أوربا كلها لاعدام هذا الرجل . فكانت مظاهرات فى كل مدينة بل فى كل قرية . وكانت الخطب النارية فى كل ناد ومحفل استنكاراً لهذه الجريمة . وحضرت المظاهرة الكبرى التى سارت مواكبها فى لندن وتجمعت أخيراً فى ساحة « الطرف الأغر » حيث ألقيت الخطب من الأحرار والديمقراطيين فى التشنيع بالحكومة الأسبانية واستبداد الكنيسة الكاثوليكية . وعقدت اجتماعات كثيرة بعد ذلك فى هذا الشأن . ووصلت الأخبار من باريس فى مساء ذلك اليوم بأن المظاهرات جمحت وقتل عدد من المتظاهرين الذين حاولوا الهجوم على الكنائس

والأحزاب الرجعية . وصدرت الكتب العديدة فى شرح الحركة العقلية التى كان يقوم بها فيرير ومحاكمته الجائرة التى انتهت باعدامه . واتضح من هذه المحاكمة أن وكيل النيابة الذى شرح التهمة للمحكمة صرح بأنه لا يعرف من هو تولستوى الذى كان فيرير يتعب وينفق ماله فى نشر مؤلفاته باللغة الأسبانية . ولما وثب الطاغية فرانكو إلى الحكم فى ١٩٣٧ ، وحارب الديمراطيين والاشتراكيين ، بمعاونة الكهنة ، وقتلهم ودمر المدن الأسبانية بمساعدة الطيارين الفاشيين من ألمانيا وإيطاليا ، تذكرت فيرير . وتذكرت ما كان يقول الأحرار وقتئذ عن أسبانيا وهو أن الفاصل بين أوربا المتعلمة المتمدنة وبين أفريقيا السوداء هو جبال البرانس التى تفصل أيضاً بين فرنسا وأسبانيا . . .

وقد أنعشتنى هذه المظاهرات وبت ليلتى وأنا أفكر فى هذا الروح البشرى فى مدن أوربا المتمدنة وقراها ؛ هذا الروح الذى انطلق بالسخط واللعنة على الحكومة الأسبانية لأنها أعدمت رجلا أوربياً من أبناء القرن العشرين فى حين هى أصرت على أن تعيش فى القرون المظلمة وأن تكون أفريقية متوحشة . وأخذت أسائل : هل مثل هذه المظاهرات يمكن أن يوجد فى مدن الشرق ؟

وكان من الأغلاط التى وقعت فيها أنى آمت بمذهب النباتيين فامتنعت عن تناول االحم نحو عام كدت أموت من الهزال فى نهايته . وكانت المطاعم النباتية فى لندن كثيرة تقدم لزبائنها مختلف الألوان الشهية التى تغنى فى الطعم عن اللحم . فلم أجد صعوبة فى الكف عن ألوان اللحوم . ولكنى هزلت حتى كدت أمرض .

والتحقت ببعض الكليات لدراسة العلوم المختلفة التى جذبتنى ،

مثل المصرلوجية للأستاذ بترى ، ومثل البيولوجية والجيولوجية والاقتصاد . وانغمست فى هذه الدراسات كثيراً .

وعلى الرغم من الشهرة التى تتمتع بها باريس بشأن حرية المرأة فقد وجدت أن المرأة الإنجليزية أكثر حرية . والشبان والفتيات يتحابون ويتغازلون جهرة فى الحدائق العامة بل أحياناً فى الشوارع . ولكن الشلل النفسى الذى أحدثته التربية الشرقية فينا حال دون استمتاعنا نحن المصريين بهذه المسرات فى لندن . واحتجت إلى مرانة طويلة قبل أن أجرؤ على المبادأة والسلوك الاستقلالى فى الحب . ثم حانت فرصة .

ذلك أنى كنت أصطاف فى إحدى المدن الصغيرة على الشاطئ الشرقى لانجلترا . فعرفت هنالك فتاة إرلندية فى سنى أو أكبر قليلا كانت تعمل فى التدريس . وكان تحنق على الانجليز لسلوكهم الامبراطورى فى إرلندا كما كنت أحنق أنا على احتلالهم لمصر . وتوطدت بيننا صداقة على أساس هذا الحنق . ثم صارت الصداقة حبا فغراماً . واستسلمت لى واستسلمت لها . وكنا نقضى ليالينا فى غرفة واحدة وكانت من الجهال بحيث تحدث فيمن يحبها أو فى بعض ذلك العيب الأكبر الذى كان يعلله فرويد بمركب أوديب . وقد استطعت أنا بعد ذلك بعشرين سنة أن أشفى صديقاً عزيزاً إلى من هذا المأزق . ولكنى لتعسى فى ١٩١٠ كنت أجهل فرويد وأجهل السيكولوجية . وكانت اليزابيث جميلة تمتاز ببشرة غاية فى النعومة والصفاء . وكانت مديدة القامة كنت أحس وهى قادمة إلى عن بعد أنها علم يخفق . وكان نشاطها يبدو فى حركاتها كأن جسمها وذهنها يتقفزان . وتناسقنا

كلانا فى التفكير والعواطف . فكنا نقرأ الجرائد معاً ونتفق على مغزى الأخبار .

وعدت إلى لندن وعادت هى إلى مدينتها فى وسط انجلترا . ولم تنقطع المراسلة بيننا . وعقد فى لندن مؤتمر الشعوب المخضعة . وكان محمد فريد يمثل مصر . وكان دى فاليرا يمثل إرلندا . فجاءت اليزابيث وقضينا أياماً فى لندن حضرنا فيها اجتماع هذا المؤتمر الذى خطب فيه دى فاليرا باللغة الأرلندية التى لم يفهمها أحد . ولكنه أصر على ذلك كى يثبت حق أمته فى ثقافة ولغة مستقلين . وترجمت خطبته إلى الإنجليزية . وكذلك خطب محمد فريد باللغة الفرنسية . وبعد هذه الزيارة القصيرة للندن عادت إلى بلدتها وتأكد لى عندئذ أن الزواج غير مستطاع لأنى لن أبرأ . وبعثت إليها بذلك مع هدية غالية . وتزوجت هى بعد ذلك ولكنى لم أرها وهى متزوجة .

وقد ملأ هذا الاختبار نفسى غما ومرارة ولكنه بعثنى على الاستطلاع والدراسة للشئون الجنسية . فعرفت هافلوك أليس وأوجست فوريل قبل أن أعرف فرويد . بل إن هذا الاستطلاع الجنسى كان سبباً فى استطلاعات ثقافية أخرى عديدة .

وكانت الحركة النسوية على أشدها فى لندن حوالى ١٩١٠ . فكانت مظاهرات النساء للمطالبة بحقوق الانتخاب . وكان بعض هذه المظاهرات عنيفاً تشتبك فيه السيدات والفتيات مع رجال البوليس . وكانت زعيمة هذه الحركة سيدة تدعى المسز بانكهرست وكانت جريئة مقدامة تتخير الكلمات الجارحة عندما تصف رجال الحكومة الذين كانوا يعارضون هذه الحركة . وحضرت أحد هذه الاجتماعات وعجبت للحماسة بين الحاضرات المستمعات وهى حماسة تجلت عن جمع نحو خمسة

آلاف جنيه فى بضع دقائق للانفاق على هذه الحركة .

وكان البيت الإنجليزى يمتاز برفاهية لا تعرفها البيوت فى أى قطر آخر فى أوربا . وذلك لارتفاع مستوى المعيشة بين الإنجليز بما كانوا ينهبونه من محصولات الأمم الخضعة فى إمبراطوريتهم أو يشترونه رخيصاً من هذه الأمم ويبيعونه غالياً لهم ولغيرهم . وكذلك بما كان يرد إليهم من دخل آخر هو أرباحهم من الشركات التى يؤسسونها فى الهند أو مصر أو غيرها . ولذلك كثيراً ما كنت أجد منزل النجار فى أحد المصيفات مؤثثاً بالرياش التى تعد فى مصر فاخرة لايحصل على مثلها إلا موظف فى الدرجة الرابعة .

وانتفعت كثيراً باختلاطى بأعضاء الجمعية الفابية . وكانوا ، كما قلت ، من الاشتراكيين . ولكنهم كانوا مع ذلك أماميين فى شئون أخرى . وأيما حركة كانت تنتشر فى الأدب ، أو نظرية يقول بها العلميون ، أو دعوة إلى بدعة جديدة فى الدين أو الفلسفة ، كنا نجد لها من يمثلها أو تمثلها فى الجمعية الفابية . فقد كانت بها اجتماعات لبحث اليوجنية أى هذا العلم الجديد لترقية النسل . كما كان بها اجتماعات أخرى لدرس التطورات الاجتماعية أو الاقتصادية فى ألمانيا أو فرنسا . وقد عرفت الأدب الروسى عن طريق هذه الجمعية كما عرفت إبسن . ولا أذكر شو أو ولز وكلاهما كان من أعلام هذه الجمعية .

وكان برنارد شو فى تلك السنين فى شبابه أحمر اللحية يتعلق به الفابيون ويتكأكأون حوله ، وكان أول لقائى له لفى الحديث أنه رآنى أتأمل رسما له على الحائط . فجاءنى وقال : ما رأيك فى هذا

القذف ؟ فقلت إن الرسم جميل ولا يعد قذفاً . فلما عرف أنى قبطى قال : أنت مونوفيزيت ؟

فأربكنى السؤال لأنى لم أكن أعرف هذه الكلمة الضخمة . وتبادر إلىّ أن الكلمة تتعلق بالطعام النباتى . لأن برناردشوكان مقروناً فى ذهنى إلى الطعام النباتى . وكنت قد داعبت الفكرة بأن اقتصرت أنا أيضاً على النبات وانقطعت عن اللحم جملة أشهر . وظننت أن الخطاب موجه إلينا كأمة لأن كلمة أنتم تقال فى الإنجليزية للمفرد كما للجمع . وأنه قد حسب أننا مثل الهندوكيين نقتصر على الطعام النباتى . فقلت : لا ، نحن نأكل اللحم أيضاً فى مصر .

فانفجر بالضحك . وطلب إلىّ أن أبحث فى المعجم عن «مونوفيزيت» وبحثت عنها ذلك المساء فوجدت أنها تتعلق بالغيبيات المسيحية . وأن الأقباط يؤمنون أن طبيعة المسيح البشرية قد اندغمت فى طبيعته الإلهية . وأن له لذلك طبيعة واحدة أى مونوفيزيت . وأن هذا المعنى هو النقطة الجوهرية فى الخلاف بيننا وبين الكاثوليك الذين يعتقدون أن طبيعة المسيح حين كان على الأرض كانت بشرية . وأن طبيعته الإلهية تبدأ من رفعه إلى السماء بعد صلبه .

وكان برناردشو فى تلك السنين « الطفل المدلل » فى الصحافة والأدب . وكانت دراماته قد بدأت تغزو المسارح وأفكاره تستحيل إلى مذاهب تتشيع لها أو عليها الجماعات المفكرة . وقد غزا برنارد شو عصره وأشعل نوراً ، كثيراً ما كان يستحيل إلى نار ، حين كان يجد جوراً إمبراطورياً أو ظلمات استغراضية أو تعصبية .

وقد كانت لندن حوالى ١٩١٠ فى ثورة فكرية على التقاليد التى كانت تسود الأمة فى العصر الفكتورى أى القرن التاسع عشر . فقد

اختمرت فى هذا القرن جملة خمائر فى الاقتصاد والدين والاجتماع : واتفق وجودى فى لندن فى الوقت الذى كانت قد شرعت فيه هذه الخمائر تغير الآراء والعقائد والاتجاهات . وكان أعظم ما تركته فى نفسى ، الثقافة العامة الإنجليزية فى ذلك الوقت ، هو الشك فى القيم والأوزان الأخلاقية والروحية . وقد رأيتنى أسير فى لندن بلا قبعة احتجاجاً على العرف مع أن الرأس العارى لم يكن وقتئذ مألوفاً كما هو فى أيامنا . وكان إكبابى على دراسة كتب العقليين دليلا آخر على هذا القلق الذى كان يشيع فى الأوساط المتعلمة اليقظة . وزادنى قلقاً اختلاطى بأعضاء الجمعية الفابية وكانوا على وجدان بالتغيرات الكامنة والقادمة يضعون أناملهم على نبض الثقافة الأوربية ويتعرفون اتجاهاتها . وفى هذا العام (١٩٠٩) ألفت رسالة صغيرة دعوتها « مقدمة السبرمان » وأرسلتها إلى المرحوم جرجى زيدان محرر الهلال فطبعها لى بعد أن حذف بعض الفقرات الجريئة . وهى تدل القارئ على القلق العام لشاب مصرى لم تزد سنه على ٢٠ أو ٢١ سنة . شاب مسته بل كوته الثقافة الجديدة وقطعت ما بينه وبين الماضى وسددت نظره إلى بصيص من نور المستقبل .

وقد نفدت هذه الرسالة ولم أعد طبعها . ولكنى ، بعد تنقيحات أو تلطيفات ، جعلتها فصلا من فصول كتابى « اليوم والغد » .

ولا أنسى هنا أن أذكر المتحف البريطانى . فإن هذا المتحف ، زيادة على ما فيه من الآثار القديمة التى تحوى مقداراً كبيراً من مخلفات الفراعنة ، يحتوى أيضاً مكتبة بها نحو أربعة ملايين مجلد . وكنت أتردد كثيراً على هذه المكتبة . بل لقد قرأت فيها بعض الكتب العربية .

وقد ذكرت شيئاً عن الاستعراض اللونى فى لندن . ولكن هذا

الاستغراض كان مع ذلك ضعيفاً . وكان لا يبدو إلا فى بعض البنسيونات أو الفنادق التى كانت ترفض نزول الهنود فيها . وكنا نحن المصريين نعامل أحياناً مثل الهنود . وأحياناً كنا نجد التسامح لأن لوننا كان قريباً من لون الأوربيين . أما فى الريف الإنجليزى فلم نكن نجد شيئاً بتاتاً من هذا الاستغراض .

والريف فى إنجلترا هو أجمل ريف فى العالم كله ؛ لأن الإنجليز لا يعنون بالزراعة . فالجبل والسهل ، والبحيرة والغابة ، لا تزال جميعها على عذريتها لم تمسسها سكة المحراث إلا فى نبذ صغيرة متباعدة . ولذلك يجد الزائر الجائل فى الريف الإنجليزى الطبيعة الساذجة فى صميم جمالها ؛

والريف فى كل أوربا يعد مزاراً فى الربيع والصيف حين ترغى الحقول وتزبد بفيض الحياة الهائجة . والقرية الأوربية مبلطة الشوارع جميلة البناء تغسلها الأمطار حتى لتبدو عقب شؤبوب من المطر كأنها صورة مزخرفة بالألوان الزاهية . وكل قرية ، مهما صغرت ، تحتوى الحانة والمطعم والفندق . ولذلك يستطيع الزائر أن يجد الراحة أسبوعاً أو أكثر . وقد انتفعت كثيراً واستغللت هذه الحضارة القروية فى تأملات ومقارنات مع ريفنا الكالح الأسيف الذى لا يزال يعيش الفلاحون فى قراه فى جحور تحطم صحتهم وتجرئ المستبدين على انتهاك كرامتهم .

وأذكر أنى فى بعض زياراتى للريف البريطانى قعدت على العشب أتحدث إلى فلاح مسن . وكان ، قريباً منا ، حقل قد نمت فيه الذرة وزكت ارتفاعاً وغصوناً . فسألت الفلاح : هل تشوون الذرة كما نفعل ؟ فلم يفهم سؤالى . وعرفت أن الذرة تنمو فى إنجلترا ولكنها لا تثمر : أى أن الكوز أو القنديل لا يتكون . لأن القمة التى تتألف من اللقاح الذكرى لا تتم . وإنما تزرع الذرة كى تصير مرعى فقط

للبهائم . وبرودة المناخ هى التى تمنع نمو الذرة إلى النضج :

وإيجار الفدان لم يكن يزيد على نصف جنيه أو جنيه . فمن يملك مئة فدان فى انجلترا لا يحصل إلا على خمسين أو مئة جنيه فى السنة إيجاراً . أما الفـــلاح المزارع المستأجر فيحصل على نحو عشرة جنيهات ربحاً من الفدان . وهذا عكس ما نجد فى مصر حيث أكثر الربح للمالك وأقله بل أقله جداً للمستأجر .

وزرت فلاحاً آخر فى بيته . فوجدته يربى نحو خمسين عجلا يشتريها وهى فى الأسبوع الثالث من عمرها . ثم يرضعها فى بيته بالبزازات . أى أنه كان يبيع قشدة اللبن ثم يأخذ المخيض ويخلطه بزيت القطن ويرضع بمخلوطهما هذه العجول . فيكسب ثمن القشدة أوالزبدة فى حين أن العجل يجد فى الزيت عوضاً عنهما . فإذا فطم العجل حبس حتى لا يكاد يتحرك ثم يسمن بالغذاء المركز من كسب القطن وبعض البروتينات . والعجل المسمن فى إنجلترا يبلغ وزنه أحياناً طناً كاملا (٢٢ قنطاراً) ويباع لحمه بأغلى مما يباع الضأن .

وقد كان تأملى للمزارع الأوربية يبعثنى على الاكتئاب كلما فكرت فى فلاحينا فى مصر ، لأن المقارنة بين القرية الأوربية والقرية المصرية إنما هى مقارنة بين النعيم والجحيم أو بين الجمال والقبح أو بين الكرامة والمهانة .

تربيتي الأدبية

عند ما أرجع بذاكرتى إلى البذور والجذور التى نشأت ونبتت منها ثقافتى الحاضرة أجد أنها تكاد جميعها تعود إلى الفترة الواقعة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ حين كنت فى لندن . فنى تلك الفترة كانت هناك طائفة من المذاهب والنظريات ، فى الأدب والعلم ، « تتجرثم » . وقد كان من حظى الحسن أن أدركت الجراثيم الأولى لهذه الحركات . ومع أنى الآن مشرف على الستين ، فإنى أجد ، بالاستبطان الذهنى ، أن ما أعرفه أو أعتقده أو أدعو إليه من نظريات أو مذاهب فى ١٩٤٦ إنما أخذت جراثيمه الأولى من تلك الفترة . ولم تكن الزيادة فى السنين بعد ذلك سوى زيادة فى نمو هذه النظريات والمذاهب أو التوسع فيها أو التفرع منها . وظنى أن هذا هو المألوف أيضاً فى سير التكشف الثقافى عند غيرى . أى إننا لا نكاد بعد العشرين نجدد شيئاً ، وإنما قصارانا أن ندافع عما أحببنا أو تلقينا راغبين ، ثم يبعثنا الحب إلى النمو بالتوسع والتعمق . وعندى البرهان على ذلك . فإنى فى ١٩٠٩ ألفت رسالة صغيرة تبلغ نحو ٤٠ صفحة بعنوان « مقدمة السبرمان » ، حين أعود إليها الآن ، أجد فيها جميع الجراثيم الفكرية التى لا تزال تشغل ذهنى . وهى تمتاز بفجاجة فى الأسلوب مع فجور فى التفكير . إذا كانت تدل على عقل خام ناشئ ، فهى أيضاً تدل على عقل مستطلع واثب .

واندمجت فى المجتمع الإنجليزى الجديد . وأعنى بنعت « الجديد » تلك الطوائف والجماعات المستطلعـــة المتسائلة فى « الجمعية الفابية » و «جمعية العقليين» وأمثالها . وكان كل شيء فى تلك السنين فى البوتقة فى سبيل التغير والتطور . فقد كان حزب الأحرار فى مجده يقوده كامبل بانرمان واسكويث ولويد جورج . ولكن هذا المجد كان يحمل غبار القرن التاسع عشر . وتراكم هذا الغبار حتى لم يستطع الأحرار أن ينفضوه عنهم . فلم تمض عليهم بعد ذلك نحو عشر سنوات حتى خنقهم فلم نعد نسمع شيئاً عن الأحرار بعد الحرب الكوكبية الأولى . وكانت جراثيم الاشتراكية تختمر فى كل أوربا ، وكان هؤلاء الأحرار أنفسهم عجينتها التى نمت فيها هذه الجراثيم .

ولم يمض علىّ عام فى لندن حتى وجدتنى أتجه نحو اليسار أى نحو الاشتراكية . ولم يكن هذا الوجدان سياسياً فقط ، فقد وجدتنى اشتراكيا قبل أن أقرأ ماركس لقوة الجذب التى كانت عند الاشتراكيين فى ناحيتى العلم والأدب . ذلك أن هؤلاء المجددين فى السياسة كانوا أيضاً مجددين فى العلم والأدب ، يؤمنون بمذهب داروين ، ويؤلفون جمعيات لليوجنية أى إصلاح النسل ، كما كانوا يقرأون الأدب الروسى ونيتشه وإبسن . ولذلك أدركتنى الاشتراكية فى تلك الأيام عن طريق الأدب أكثر مما أدركتنى عن طريق السياسة . وكان «التطور» لا يزال مذهباً أكثر مما كان نظرية علمية . ولذلك أنفق « العقليون » مجهوداً كثيراً فى المقاومة السلبية للكتب المقدسة بدلا من أن ينيروا أو يشرحوا حقائق التطور .

وأذكر أنه فى تلك السنوات طغى الأدب الروسى على لندن . فلم يكن هناك حديث أو سمر إلا عن جوركى أو دستويفسكى وأمثالهما ،

وأذكر أني حضرت محاضرة عن تولستوى فوجدت الحاضرين المستمعين كأنهم فى معبد خاشعين . وكانت المحاضرة أيضاً أشبه بعظة دينية . وكان هذا طبعاً من الانحرافات فى تفسير تولستوى ؛ لأن مقام تولستوى فى الفن كان أكبر جداً من تلك التطوحات الوعظية التى شطح فيها . وأذكر أن أحد الناشرين عرض قصة صغيرة لأحد الروس فسارت فى المكتبات كأنها حريق ، فلم يكن أحد يتكلم إلا عنها . وهذا يدل القارئ على المكانة العظمى التى احتلها أدباء الروس فى لندن فى تلك الفترة ، حتى أشار إليهم برنارد شو مرة بكلمة « العمالقة » . ولما عدت إلى القاهرة شرعت ، بهذا التأثير ، أترجم « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى وطبعت منها على نفقتى جزءاً يبلغ نحو ١٢٠ صفحة . ولكنى أخفقت فى نشره حتى بعت هذا الجزء بسعر مليم واحد للنسخة . وثبطنى هذا عن المضى فى الترجمة لسائر القصة . ولكنى دأبت فى الحديث والكتابة عن الأدباء الروس ، حتى صار كثير من القراء الذين كانوا يجهلونهم على وجدان بهم .

وفى تلك السنوات عرفت إبسن ونيتشه وبرنارد شو وولز . وأذكر أنى قضيت ليلة كاملة إلى الصباح وأنا أقرأ نيتشه وقد أخذنى سحر أسلوبه وجراءة تفكيره . ونيتشه لا يخطو ولا يعدو ، وإنما يقتحم ويثب . ولكنى عند ما أرجع أيضاً إلى الاستبطان الذهنى أجد أنى لم أتأثر كثيراً به أو أن أثره كان مقصوراً على سنوات ، على الرغم من الحماسة التى كنت أتلقى بها مؤلفاته وأحفظ بها عباراته . فأنا الآن خلو أو كالخلو من المركبات الذهنية التى أستطيع أن أعزوها إلى نيتشه ؛ ولكنه غرس فىّ الإقدام الفلسفى وحطم عندى ما كان باقياً من قيود غيبية . أما مؤلفات داروين مثلا فكنت أقرؤها فى عناء التفكير حتى

كنت أترك الكتاب أياماً أو أسابيع ثم أعود إليه يحفزنى إحساس الواجب لا الرغبة ، فلم يكن له فى صدرى حماسة . ومع ذلك هو الباقى الآن فى كيانى الثقافى . وكتابى « نظرية التطور وأصل الإنسان » هو إحدى ثمرات داروين . ولا تزال هذه النظرية تفتق فى خلاياى الذهنية ، وتحملنى على توسع وتعمق فى التفكير البيولوجى والسيكلوجى والاجتماعى .

وهنريك إبسن يعد الآن من الكتاب القدامى ، ولكنه كان جديداً فى تلك الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ . وكان وقعه فى نفسى كبيراً ، أكبر مما كان فى نفوس قرائه الأوربيين . وذلك لأنه كان يجدد فى مجتمع كنت أعده أنا جديداً بالمقارنة إلى مجتمعنا المصرى الجامد ؛ إذ كنت أدمن التفكير فى حال المرأة المصرية والمرأة الأوربية ، وكنت كثير الإعجاب بحرية الثانية فى باريس ولندن وأنها تملك جزءاً كبيراً من مصيرها وتقرره . ولكن درامة إبسن « بيت اللعبة » أو « بيت عروس » كشفت لى حقائق مرّة ، وبسطت لى آفاقاً جديدة ؛ لأن ما كنت أتوهمه عن حرية المرأة أو استقلالها فى أوربا إنما هو فى نظر إبسن لم يكن سوى طلاء سطحى يخفى حقيقة الاستعباد القائمة ؛ لأن المرأة لا تجد من المجتمع سوى التدليل لأنها لعبة الرجل أو هى كالعروس من الخشب يلعب بها الأطفال ، أطفال الرجال الذين لا يطيقون المساواة الحقيقية بينهم وبين النساء . ومغزى الدرامة أن المرأة يجب أن ترتفع من الأنثوية إلى الإنسانية ؛ ويجب أن ترفض التدليل وأن تربى نفسها وتكسب الاختبارات فى هذه الدنيا ؛ لأنها إنسان قبل أن تكون زوجة أو أماً .

وعندئذ انجابت عن ذهنى غشاوة ؛ واتضح لى أن المرأة الأوربية كالمرأة الشرقية سواء ، وأن ما بينهما من فرق إنما هو طلاء الحضارة

فقط . أو هو فقط فرق الدرجة فى الاستعباد . وهو استعباد بعيد أحياناً عن أية رحمة أو رأفة ؛ لأن المرأة التى تعمل كالرجل لا تحصل على أجزه . وفى أقطار أوربية كثيرة كانت لا تحصل على ميراثه . وكانت الجامعات ترفض قبولها طالبة . كما كانت ترفض الدولة قبولها ناخبة أو مرشحة لعضوية المجالس البرلمانية .

وليس لهذه الدرامة قيمة فى أوربا الآن ؛ لأن الحال تغيرت فى ١٩٤٦ عما كانت عليه فى ١٩١٠ ، بل تغيرت كثيراً جداً . وكثير من هذا التغيير يعزى إلى هذه الدرامة التى أهابت بالمرأة أن تكون إنساناً له شخصيته ومكانته فى هذه الدنيا قبل أن تكون أنثى أو زوجة لها مكانتها فى البيت .

وكنت فى تلك السنوات لا أعرف عن المسرح إلا ما كان يخرجه لنا سلامة حجازى من التمثيل الميلودرامى والأغانى الغرامية . فكانت الدرامة عندى لهواً فنياً لا أكثر . ولكن إبسن جعل الدرامة اجتماعية بل أحياناً فلسفية . وقرأته فى انتباه وقلق وتفكير وتعب . وأصبحت أصد ، فى اشمئزاز ذهنى ، عن المرأة المؤنثة المغناج ، وأحترم المرأة العاملة الكاسبة التى تصر على أن تحيا وأن تعرف وتختبر . وعندى أن إبسن كان محورياً فى ثقافتى ؛ لأن دراماتة بعثتنى على دراسات أخرى متصلة بالموضوعات التى عالجها هو فى أسلوبه الدرامى .

وإذا كانت أوربا قد أهملت إبسن الآن فذلك لأنها تعلمت منـــه وعملت بجميع مبادئه . ويعد برنارد شو إحدى ثمرات إبسن . فإن جميع دراماته اجتماعية أو فلسفية . و لكنه يختلف عن معلمه من حيث عجزه عن الكمال الفنى الذى استطاع إبسن أن يرتفع إليه .

وقد تأثرت كثيراً ببرنارد شو . وعندما أسائل : لماذا لم أؤلف

كتاباً عنه إلى الآن ؟ أعود بذاكرتى إلى محاولات فى هذا التأليف كان يصدنى عن المضى فيها أنى أعرف الكثير عن برنارد شو . فصعوبتى هى صعوبة خراش ، بل هى أكثر . وهى أنى زيادة على أنى سأضطر إلى الاختيار مع الإسهاب والتفصيل فإنى أيضاً سوف أواجه من المبادئ والأفكار والفلسفات ما أحتاج إلى تفصيله مما لا يطيقه قارئ رجعى أو جامد لم تتفتح مسام ذهنه للتفكير العصرى بل المستقبلى . فإن برنارد شو يفكر للمستقبل . وهو علمى الذهن يفكر فى آفاق فلسفية بلغة أدبية . وقد أمضيت من حياتى نحو أربعين سنة وأنا أتعلم على يدى هذا الحكيم الذى أعد حياته فى عصرنا نوراً وناراً لجميع الذين يعرفونه ولا أظن أنه فاتنى شىء مما كتب . وكتاباته هى إلى الآن هورمونات ذهنية توقظنى وتحركنى .

والكاتب ينفعنا إما بما يبسط لنا من معارف ، وإما بما يرسم لنا من خطط واتجاهات . وبرنارد شو من النوع الثانى ؛ لأنه يسدد العقول الزائغة نحو أهداف بشرية جديدة ، ويبعثنا على الاستطلاع العلمى للدنيا والإنسان والمستقبل . والنزعة العلمية فى برنارد شو قوية جداً ، ولكنها ممزوجة بنزعة فنية أيضاً . ولذلك نشعر كأنه يحس بعقله ويفكر بقلبه . وهو أحياناً يسب ويهاتر ويهدد بالمعانى العلمية . ومشاجرته مع داروين بشأن « تنازع البقاء » هى مشاجرة فلسفية سيتوقف على الإجابة عليها ، وخاصة بعد اختراع القنبلة الذرية ، مصير الإنسان . إذ ماذا يكون مصير ٩٩ فى المئة من البشر إذا ثبت أن الحق للقوة ، مهما يكن نوع هذه القوة ؟ أو إذا كان معنى تنازع البقاء هو بقاء الأصلح كما نرى هذا « الأصلح » فى عصرنا ؟

لقد رد برنارد شو على داروين بأن ذكره بأن المسيح لم يكن صالحا

للبقاء . . . فى النظام البيولوجى الذى وضعه داروين للتطور .

وبرنارد شو مجاهد . وأدبه هو الأدب الجهادى ، أو كما يسميه هو الأدب الصحفى ؛ لأنه يبحث الهموم والاهتمامات العصرية بالذهن العلمى فى ضوء المستقبل . وقد أحدث لى مركبات أو عقداً أدبية وفنية ذهنية كثيرة فى حياتى الثقافية لاتزال إلى الآن مثار التفكير والتأمل .

وأحياناً حين أتأمل الكاتب العظيم أجد أنه عظيم من حيث إنه قادر على أن يترك لنا عقدة ذهنية ، فى المعنى الحسن ، تترتب عليها أفكار واهتمامات متصلة متشابكة نامية . فقد ترك إبسن فى ذهنى عقدة ذهنية هى « الشخصية الاستقلالية » التى هى الواجب الأول على كل إنسان . وترك برنارد شو عندى طائفة من العقد ربما كان أهمها هو النظر البيولوجى للإنسان ، وأن التطور المستقبلى للبشر يجب أن يكون له المقام الأول عند أية حكومة متمدنة . بل هو يقترح أن تكون لكل دولة وزارة خاصة بالتطور غايتها بحيث الوسائل كى تتطور الأمة .

ولا عبرة بأن تكون له أخطاء وأوهام . إذ ماذا نبالى ، كما يقول نيتشه ، أن يكون فى رأس المفكر بعض الديدان ؟

ولم أر رؤيا واحدة فى برنارد شو ، بل رأيت ثلاثاً أو أربعاً . والرؤيا الأولى هى الاشتراكية الإنسانية . وهى بالطبع لا تختلف عن اشتراكية ماركس العلمية . ولكن برنارد شو ، لأنه أديب وفيلسوف وفنان ، جعل المذهب الاشتراكى مذهباً إنسانياً ، ودمغ بالخزى كل من يجهل الاشتراكية أو لا يسعى لها . وهو الذى استطاع أن ينشر هذا المذهب بين الأثرياء ؛ لأنه أثبت لهم أن أموالهم لا تساوى همومهم وما يتعرضون له من قلق ، وأن الاشتراكية إنما جاءت لتغنى وتزيد لا لتفقر وتنقص .

والرؤيا الثانية هى ديانة برنارد شو ، فإن مشاجرته مع داروين

ينتهى مغزاها إلى أنها مشاجرة دينية . إذ كيف يمكن أن نسكن إلى كون يكون محوره ومغزاه تنازع البقاء وبقاء الأصلح؟ وقد قلت إن من الموانع التى حالت دون تأليفى عن برنارد شو أنى كنت أخشى الأذهان الجامدة التى لم تتسع مسامها الذهنية للآراء الجديدة . وهنا أيضا أقول إنى عاجز عن بعض الإسهاب أو التفصيل لديانة برنارد شو . وقصاراى أن أقول إنها ديانتى وإن عمودها الفقرى هو التطور الذى يعد فيها أسلوباً وهدفاً .

أما الرؤيا الثالثة فهى الإيمان بالعلم بل السلوك العلمى ولكن مع الدين ، وعلم بلا دين هو القنبلة الذرية وبقاء الأصلح كما يفهم هذا الأصلح أو يتخيله تجار منشستر ونيويورك ، ولكن العلم مع الدين هو السعادة البشرية والتطور إلى السبرمان .

وبرنارد شو مثل جوتيه قد جعل من حياته كتاباً آخر ، بل ربما كان هذا الكتاب أحسن مؤلفاته . فإن الناس يقرأون حياته ويستوحون منها القدوة والصلاح . فهو الآن فى التسعين ، وقد عاش منها ستين سنة وهو نباتى . وهو يسير كل يوم ساعياً على قدميه نحو سبعة كيلومترات ويقرأ ويكتب كما لو كان فى الثلاثين أو العشرين . وهو يخفف من ألم الحقائق بالفكاهة ، تلك الفكاهة الجدية النارية التى تخرج منه كأنها تشنجات الحكمة أو وخزات الفلسفة .

ومن عجب أن هذا الرجل ، الذى تسترشد بآرائه وتستنير برؤاه أحسن الطبقات المثقفة فى العالم ، هذا الرجل لم يتعلم قط فى مدرسة أو جامعة . وقصارى ما حصل عليه تعليم أبتر فى السنتين الأولى والثانية من المدرسة الابتدائية . ولكن إذا عد هذا تقصيراً أو قصوراً فى النظام التعليمى وبرامجه ، فإنه يجب علينا أن نعد ارتقاء برنارد شو

إلى القمة فى الثقافة العصرية برهاناً على أن الثقافة السامية قد أصبحت مشاعة بين الجمهور ، بحيث إذا توافر الذكاء والعناية استطاع أى فرد منه أن يصل ، من الكتب المطبوعة ، إلى أرقى ما يستطيع المتعلم فى الجامعة بل أكثر . وهذا ما لا يمكن أن يقال فى قطر مثل مصر . وإنما يقال مع التأكيد عن فرنسا أو بريطانيا أو الولايات المتحدة ؛ لأن الثقافة شائعـــة تفشو فى كل مكان بكل طرزها الابتدائى والمتوسط والعالى . ولذلك سرعان ما يتعـــلم الأمى أو من هو فى مقامه ويتسلق إلى القمم .

وهناك شخصية فذة أخرى كانت محورية توجيهية فى حياتى هى شخصية هـ . ج . ولز . وظنى أنه الآن (١٩٤٦) فى مرض من الموت . وكل من شو وولز يبحثان العالم وكأنهما يشرفان عليه كما يشرف العمدة فى ألفة ومعرفة على قريته . ولكن بينهما مع ذلك فرقا ؛ فإن شو يتجاوز الأعماق والآفاق إلى ما وراءها . وولز يتعمق ولكنه لا ينظر إلى ما وراء الآفاق . يعيش على الأرض فى حين يعيش شو فى السماء ، حتى لنحس ونحن نقرأ ولز أننا نختنق بهواء المدينة ولو أننا نتحدث إلى رجل يعرف كل ما فيها ، ولكنا نحس حين نقرأ شو أننا نتنسم أوزون البحر المعقم . وكلاهما طائر ، ولكن ولز يدرج وقلما يحلق . أما شو فدأبه الطيران والتحليق .

والمغزى فى شو أن الإنسان سيتغير ، جسما ونفساً ؛ لأن التطور يقضى بذلك . ورسالته هى أن يبعث وجدان التطور فى قرائه .

ولكن المغزى فى ولز أن المجتمع سيتغير ، فى نظمه وأخلاقه ؛ لأن الآلات قد أحدثت قوات اقتصادية جديدة سوف تضطر شعوب

العالم إلى أن تكون أمة واحدة . ورسالته هى أن يبعث فى قرائه وجداناً هو أن هذا العالم قريتنا الكبرى .

وولز هو بلا شك الأب الروحى للعالم الجديد ؛ فإنه يدعو إلى لغة واحدة وثقافة واحدة . بل لقد ألف فى شرح الطرق التى يجب أن تتخذ لإيجاد موسوعة عالمية يتحد فيها أبناء هذا الكوكب فى آراء واتجاهات نحو الخير والحضارة . وله ثلاثة مؤلفات تدل على اتجاهه العالمى . أولها « خلاصة التاريخ » وقد ألفه عقب الحرب الكبرى الأولى حين كانت عبارة « الحرب لإنهاء الحرب » تجرى على الألسنة وتوحى الخيالات الزاهية بشأن اتحاد العالم . وهذا الكتاب هو محاولة نيرة خيرة غايتها أن نفهم أن الحضارة القائمة هى مجهود البشر جميعهم . وأن هذه الشعوب الكثيرة المختلفة إنما هى أمة واحدة ، أو يجب أن تكون كذلك . وكتابه الثانى : « علم الحياة » هو دعوة إلى النظر العلمى لهذه الدنيا وسكانها من الأحياء . وهى دعوة دينية علمية . وكتابه الثالث : « أعمال البشر وثروتهم وسعادتهم » هو بحث فى حاضر البشر وطاقتهم لحضارة قادمة .

وقد كان أثر ولز عندى نفسياً أكثر مما كان ذهنياً . أى إنه أكسبنى مزاجاً عالمياً يكاد يكون مساوياً للحماسة الوطنية ، فإن اهتمامى بالحركة الوطنية مثلا فى الهند كان يحرك عاطفتى ويثير انفعالى كالحركة الوطنية فى مصر . وكنوز أفريقيا من الحيوان تشغل ذهنى وتثير غضبى عندما أقرأ عن عبث الصيادين فى الغابات ، كما تشغل ذهنى وتثير غضبى سياســة الإنجليز فى تحديد زراعة السودان أو ضبط مياه النيل . بل كسبت من ولز مزاج التساؤل والاستطلاع والتوسع الثقافى فى العلم والأدب والفن .

وقد كان اهتدائي إلى شو وولز عن طريق الجمعية الفابية حوالى سنة ١٩٠٩ . ولكني واليت اتصالي بهذين الكاتبين إلى وقتنا هذا وهما يدرسان السياسية العالمية على آفاقها العالمية . ومفتاح دراستهما هو الاشتركية والتطور .

وفي الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ كان إبسن وشو وولز عالقين بقلبي يرسمون لي معالم دراساتي في المستقبل . ولكن كان هناك مؤلف آخر تسلط فترة قصيرة على ذهني ، وكان تسلطه نارياً ثم عاد تحريرياً ، أعني به نيتشه . فقد التهمت مؤلفاته في حماسة ولذة فعصفت بي ؛ وكان ظني وقتئذ أنه فتح لي أبواباً كانت مغلقة من قبل . ولكن الحقيقة أني كنت مأخوذاً بسحره في الأسلوب وجرأته في التفكير ، وهما سحر وجرأة يستهويان الشباب . وهو يؤلف النثر وكأنه يقرض الشعر ، ويفكر وكأنه يقتحم . وانتفعت كثيراً بتحليله للأخلاق . ولكن هذا التحليل بالطبع فقد قيمته بعد أن عرفت التحليل الماركسي ، وإن كان كلاهما ينتهي إلى أن الأخلاق السائدة هي أخلاق السائدين . ولكن ماركس وصل إلى هذه النتيجة بالتحليل الاقتصادي للمجتمع على حين وصل إليها نيتشه بالتحليل التاريخي اللغـــة . أما أخلاق الأقوياء التي دعا إليها نيتشه وجعل منها ديانة جديدة يجب أن يبشر بها الفيلسوف الجديد فقد استهوتني سنوات ، بل انحزت إليها وآمنت بها ، فيما يشبه الحزبية الفلسفية ، بتأييد من نظرية التطور حين استسلمت لتنازع البقاء وبقاء الأصلح . ولكن رويداً رويداً تقهقر نيتشه من وجداني وتغير عندي مغزى التطور بل تطورت عندي نظرية التطور ، فلم يعد نابليون هو السبرمان ، ولم يعد للإمبراطوريات مغزى التفوق البيولوجي الذي كاد نيتشه يوهمني أنه كذلك .

وعرفت بعد ذلك ماركس وجوتيه وفرويد . عرفتهم عن سبيل تلك المركبات أو العقد الذهنية التى أحدثها لى شو وولز وإبسن وداروين .

وفى تلك السنوات أيضاً كان فى لندن مجلات أسبوعية أدبية كثيرة تختص بدراسة الأدب الإنجليزى والأوربى . وكانت « ذى أثنيوم » ثم « ذى أكاديمى » أقوى هذه المجلات . وكانت الأولى راقية حاوية موضوعية . أما الثانية فكانت شخصية جدلية ، وكان يحررها اللورد ألفريد دوجلاس صديق أوسكار وايلد . وكان شاعراً أنيقاً ، ولكن تاريخه الماضى وعلاقته الحميمة الشاذة بأوسكار وايلد كانا يجعـلان الجمهور الإنجليزى المحافظ يصد عنه ، وكانت مجلته تنزوى فى استحياء فى المكتبات يسأل عنها طالبها .

وربما نستغرب فى مصر أنه ليس عند الإنجليز الآن مجلة أسبوعية واحدة للأدب إذا استثنينا الملحق الأدبى للتيمس ومجلة جون أو لندن وهى تكتب للعامة . وقد يعد القارئ هذه الحال تأخراً للحركة الأدبية ، ولكنى أعده تقدماً . ذلك أن الأدب انتقل من برجه العاجى ، أدب للأدباء ، إلى الميدان الاجتماعى بل السياسى والاقتصادى . ولذلك فإن المجلات السياسية الإنجليزية تعالج الأدب فى عناية وخبرة تدلان على أنها تعرف قدره فى التفكير والتوجيه . أو قل إن التطور السياسى فى أوربا قد أصبح حافلا بالانقلابات والانفجارات ، وإنه جذب إليه جميع الأدباء ، ولذلك صار الأدب مذهبياً يتحزب ويتشيع لآراء معينة فى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد .

وغاية الثقافة بعد ذلك أن نزيد الحياة وجداناً بأن نجعل مشكلات العالم مشكلاتنا الشخصية لأن الحياة تنادينا إلى اليقظة والفهم والجد

كلما استولى علينا النعاس والركود . والأدب هو إحدى الوسائل لزيادة هذا الوجدان . وعندى أن الرجل المثقف هو الذى يرتفع وجدانه الشخصى إلى الوجدان العالمى . ولا يكون هذا إلا بالانغماس فى المشكلات البشرية العالمية .

وهذا هو ما يجب أن يكون ؛ لأن الأدب للأدب هو الأدب فى الهواء . وقد يقال حسب الأدب أن يكون إنسانياً . ولكن كيف يكون كذلك إذا لم يشتبك فى المشكلات الإنسانية الحاضرة : السياسة والاقتصاد والاجتماع ؟

ووجدت من هذه الحركات الأدبية فى تلك السنوات توجيهاً لى وتربية . وكثير من مؤلفاتى ، إن لم يكن جميعها ، اتجهت فيها هذه الوجه الاجتماعية ، حتى صرت أوصف بأنى «كاتب اجتماعى» . وكأن هؤلاء الواصفين أرادوا أن يميزوا بينى وبين الأدباء الذين ما زالوا يفصلون بين الأدب وبين الاجتماع . ولكنى ، مع ذلك ، أجد فرقاً أساسياً آخر بينى وبين بعض الأدباء فى مصر ، هو أنى أمارس طرازاً من البلاغة يمارسون هم غيره . ذلك أن طرازى أوربى وطرازهم عربى . وقد حملنى هذا الفرق على أن أؤلف كتابى « اللغة العربية والبلاغة العصرية » ؛ لأن بلاغتنا التقليدية لا تلابس حضارتنا العصرية ، وقد وجدت فيها عجزاً عن التعبير لشئون عصرنا ، فاخترت أسلوباً آخر للتعبير الذى يجمع بين الفن والاقتصاد ، كما يكون على وجدان بقيمة التفكير ثم التعبير العلمى . فإن معاجمنا العربية التى ورثناها عن الأدب العربى تقول مثلا إن الطب هو السحر . ولكننا فى القرن العشرين نقول إن السحر هو الخرافة . وإن الطب قد صار علماً

تجريبياً اجتماعياً بيولوجياً . ويجب ، لهذا السبب ، أن تلابس البلاغة العصرية عند الكاتب العصرى ، هذا الطب الجديد فتكون هى أيضاً علماً تجريبياً اجتماعياً بيولوجياً . وبكلمة أخرى أقول : إن البلاغة ، كاللغة ، اجتماعية . أى إنها تخدم المجتمع وتلابسه . فإذا تغير المجتمع وجب أن تتغير البلاغة . ومجتمع القرن العشرين يحتاج إلى بلاغة القرن العشرين ، بلاغة العلم والاجتماع الجديدين لا بلاغة العباسيين ولا بلاغة الأمويين .

تربيتي العلمية

لما تركت مصر إلى فرنسا فى سنة ١٩٠٧ كان « التطور » من مركباتى الذهنية البارزة ، بل المركب الأول . حتى إنى حين هبطت باريس جمعت طائفة من الكتب التى تعالج هذا الموضوع ، ولكنى لم أستطع فهمها وقتئذ ؛ لأنى أسأت الاختيار فلم أقتن الكتب الابتدائية أو بالأحرى لم أجدها . فلما قصدت إلى لندن وجدت العشرات من هذه الكتب الابتدائية . وكانت جمعية « العقليين » تنشرها وتبيعها بأثمان التراب بسعر ٢٥ مليما لكل كتاب . فأكببت عليها فى دراسة مثابرة ، مع استخراج الخلاصات وكتابة التعليقات . وقرأت كتاب داروين « أصل الأنواع » . وليس فى هذا الكتاب شىء يشق على الفهم . ولكنه يحتاج إلى التأمل الكثير . وداروين بعيد كل البعد عن التعبير المسرحى ؛ إذ هو متواضع معتدل يكتب فى حذر كأنه يخشى أن يؤمن القارئ بكل ما يقول . وهو الضد لنيتشه فى الأسلوب . فإن نيتشه نارى سماوى . أما داروين فأرضى طينى . وأسلوب نيتشه عاطفى ذاتى حتى حين يهتدى إلى الحقائق الموضوعية . أما داروين فيكتب عن وجدان وتعقل ؛ حتى لتحس أنه ينفض عن نفسه عاطفته وذاتيته كما ينفض أحدنا الغبار عن شخصه .

وليس شك أن حبى لداروين وتحيزى لنظرية التطور ، منذ نشأتى الثقافية ، قد تركا أثرهما فى أسلوبى الكتابى . فقد قيل إن الأسلوب يدل على الجانب الأخلاقى للمؤلف بل يكشف عنه . أى يدل على الاتجاه التفكيرى وإيثار بعض القيم على بعض . وأنا أوثر أسلوب

داروين : أسلوب المنطق الصارم والحذر والاعتدال على أى أسلوب آخر يوصف بأنه « أدبى » . وكثيراً ما وصفنى الكتاب فى مصر بأنى لست « أديباً » ؛ لأنهم لا يجدون عندى تلك الزخارف والتزاويق المألوفة فى غيرى من الكتاب . ومع ذلك فإنى لا أنكر سحر الأسلوب العاطفى . ولكنى إذا كنت ألتذ السحر أحياناً وأستمتع بما فيه من مهارة فإنى أوثر عليه أسلوب التعقل والوجدان . وأذكر أنى حين قرأت « من الأعماق » تأليف أوسكار وايلد أعجبت بسحره . حتى إنى عندما بلغت الصفحة الأخيرة عدت فوراً إلى الصفحة الأولى أقرؤه ثانية كأنى أستعيد لحناً جميلا وأنغاماً رائعة . ولكنه لم يترك فى رأسى مركبات ذهنية كتلك التى تركها « أصل الأنواع » لداروين . فقد غيرنى داروين . أما أوسكار وايلد وجون روسكين وكارليل من الكتاب الذاتيين فقد نسيتهم ؛ لأنهم جميعاً بعيدون عن الحقائق الموضوعية . وحين أقرؤهم الآن أشعر أنهم يخطبون أو يصرخون أو يتفصحون . فأجد اللذة العابرة فى أسلوبهم ولكنى أحس أنهم ليسوا مفكرين أساسيين . والمفكر الأساسى عندى هو داروين الذى يتحدث فى اعتدال وحذر . وأسلوبه هو الأسلوب الرصين . وأقرب الناس إليه فى هذا الأسلوب هو برنارد شو . وقد سبق أن قلت إن أحسن ما نقيس به الكاتب أن نعرف مقدار ما تركه لنا من المركبات الذهنية ؛ لأنه على قدر هذه المركبات يكون تفكيره محورياً أو بذرياً ، أى إننا لا نأخذ منه المعرفة الجامدة فقط ، بل نأخذ المعرفة النامية التى تنمو وتتشعع فى الخلايا الرمادية من الدماغ فتتركنا ونحن نفكر ونشتبك فى اشتباكات جديدة لا تفتأ تنبهنا إلى توسع وتعمق فإيناع . ومنذ ١٩٠٨ حين قرأت « أصل الأنواع » وأنا فى هذا التوسع والتعمق . فقد درست البيولوجية والجيولوجية بل سيكلوجية

فرويد بحافز من إيحاء داروين . كما أن داروين كان السبيل إلى التعرف إلى هربرت سبنسر . وكان داروين يصفه بأنه « فيلسوف التطور » والحق أن سبنسر هو المسئول عن تعميم هذه النظرية ونقلها إلى المجتمع ؛ ولا عبرة بأنه ارتكب أخطاء كثيرة فى التفاصيل . فإن الأخطاء أحياناً قد تكون منيرة مثل الإصابات ؛ لأنها تفتح كوة على ناحية لم تكن مفتوحة من قبل . فإذا كان الناظر إليها قد أخطأ الرؤية ، فإن فضله لا يزال عظيما لأنه فتح الكوة . وهذا هو ما أراه فى كثير من المفكرين مثل فرويد وسبنسر بل داروين نفسه . فقد نبهنا فرويد فى خطئه عن « مركب أوديب » ، كما نبهنا سبنسر فى خطئه عن سوء النظام الاشتراكى ، وكذلك نبهنا داروين فى خطئه عن تنازع البقاء . وكل هذه الأخطاء كانت كوات جعلتنا نفكر ونبحث ؛ لأنها فتحت لنا آفاقاً جديدة . وقد انتقلنا بها من الميدان البيولوجى إلى ميادين الاجتماع والدين والاقتصاد .

ومن الكتاب البذريين الأساسيين الذين تأثرت بهم ، وما زالت المركبات الذهنية التى خلفوها فى خلاياى الرمادية قائمة بل نامية ، كارل ماركس . فقد وصلت إليه عن استغراض ضده من كتّاب «الانفرادية» الذين يقولون بالمباراة الاقتصادية مثل هربرت سبنسر ، وخرجت منه على احترام له واحتقار لهربرت سبنسر وأمثاله . ولكن هذا الاحتقار فى هذه النقطة المعينة ، لم ينقص إكبارى للقوة التفكيرية عند سبنسر . والحق أنها قوة عظيمة جداً . فإن نظرته شاملة وهو فيلسوف أكثر مما هو عالم . ولكنه فيلسوف بعيد عن الغيبيات . وقد احترف هذا الرجل التفكير احترافاً . حتى ليسأم الإنسان حين يقرؤه

ويكاد يسائل : لماذا هذا الجد ؟ لماذا يلهث ويعرق ؟ ألا يفكر فى إجازة يستريح فيها ؟

والحق أنه لم يفكر فى إجازة . وقد أصيب لهذا السبب بانهيار عقلى تألم منه نحو سنتين ، وحتى بعد ذلك كان أحياناً يطلب من ضيوفه ألا يتكلموا بل أن يبقوا فى ضيافته أو رفقته صامتين ...

وفى هذه السنين كدنا ننسى هربرت سبنسر . ولكن كارل ماركس يزداد بمرور السنين قوة بل حياة . فإن نظرياته تحيا فى كل مكان فى العالم ، والأزمة العالمية الحاضرة هى أزمة الصراع المنتظر ، أو الوفاق المحتمل ، بين الماركسيين دعاة الإنتاج التعاونى وبين الديمقراطيين دعاة المباراة الاقتصادية . ولذلك لا يمكن أحداً أن يصف نفسه بأنه مثقف إذا كان يجهل الماركسية ولو كان يكرهها . لأن الأزمة العالمية هى فى صميمها أزمة ماركسية .

وقيمة الماركسية فى فهم السياسة العالمية والتطورات الاجتماعية والأخلاقية الحاضرة كبيرة جداً . ولكن لها قيمة أخرى فى فهم التطورات التاريخية . والتعمق فى دراسة ماركس لا يتمالك من الشعور بأنه هو ، لا فرويد ، الأساس الصحيح للفهم السيكلوجى . فإن ماركس أثبت أن العواطف الاجتماعية ، أى التى نكتسبها من المجتمع ، أكبر قيمة وأبعث على التغيير والتطور وأثبت فى كياننا مما نسميه العواطف الطبيعية . ولذلك لا يقتصر فضل ماركس على أنه جعل الاقتصاد علماً ، لأن الحقيقة أنه جعل كذلك الأخلاق والاجتماع والسيكلوجية علوما . ولا يستطيع أحد أن يفهم هذه الثلاثة على حقيقتها الفهم الموضوعى إلا إذا كان ماركسياً .

داروين وماركس ، كلاهما قد غرس فى رأسى مركبات ذهنية ،

وجعلني أنظر إلى الدنيا وإلى الأحياء في استغراض علمي وتحليل اقتصادي وسيكولوجي . وعندما أستبطن إحساسي الديني أجد أن بؤرة هذا الإحساس هو «التطور» . وهذا الإحساس الديني هو فهم وممارسة : فإني أفهم أننا وجميع الأحياء أسرة واحدة بما في ذلك النبات ، وأن الخلية الأولى التي نبض بها طين السواحل قبل نحو ٧٠٠ مليون سنة هي عنصرنا الأول . وأننا ما زلنا ننبض ونتغير في تجارب لا تنقطع . وأن سنتنا هي لذلك سنة التغير ، وجريمتنا هي لذلك جريمة الجمود . ونحن حين نجمد إنما نكفر بسنة الكون مادة وحياة . ولكن إلى جنب هذا الفهم الديني يجب أن « نمارس » ممارسة دينية باحترام الحياة أيا كانت والتعرف إلى أشكالها وحمايتها من الأميين المستهترين بالطبيعة . هذه الطبيعة التي تكتسب في ذهني قداسة كلما فكرت في غابات أفريقيا أو الهند وما تحوى من تحف الحياة ، أو كلما فكرت في غياهب المحيط الهادى أو الأطلنطي أو المحيطين القطبيين وما بهما من أحياء يحاول التجاريون ، في غير شرف ، أن يبيدوها بالإلحاح عليها في الصيد .

وكذلك لا أقرأ الجريدة اليومية ولا أسمع عن خبر سياسي أو مشروع لقانون جديد إلا وأنظر إليه بالاستغراض الماركسي من حيث دلالته على النوازع المختفية التي دفعت إليه ، في حين أن الذي يجهل الماركسية يتطوح ويتخبط في تقديرات « شخصية » للممثلين السياسيين أو الحربيين . مع أن هؤلاء ليسوا سوى أدوات تأخذ مكانها في دورة الآلة الكبرى ، في حركة المجتمع الاقتصادي . ولذلك أيضاً أصبحت فكرة «البطل» في التاريخ من الفكرات التي كانت تتقهقر في وجداني كلما تقدمت في التحليل الاقتصادي . ولكن يجب أن أعترف أنها مع

تقهقرها لم تنمح ، وأنه لا يزال للشخصية قيمتها فى تفكيرى .

وفرق عظيم ، بل عظيم جداً ، بين شخص قد قرأ ماركس ودرس التفسير الاقتصادى للتاريخ ، وبين آخر يجهله . لأن الأول الذى امتاز وجدانه بالحاسة التاريخية التى اكتسبها من ماركس يجد فى أخبار الجريدة اليومية من المعنى والمغزى ما لا يجده الثانى الذى يحسب أن الحوادث التافهة والخطيرة ، والاتجاهات السياسية ، والتطور والثورة والحرب والسلام ، كلها أشياء تجرى جزافاً .

ويأتى فرويد ، بعد داروين وماركس ، فى إيجاد المركبات الذهنية التى عملت فى توسعى وتعمقى . وعندى أن «مركب أوديب» الذى يعد محور السيكلوجية الفرويدية هو خطأ : ولكنه خطأ منير ، لأنه نبهنا ، كأنه دسيسة عملية تحركنا إلى البحث والتنقيب فى كهوف النفس المظلمة ، إلى قيمة السنين الأولى أيام الطفولة فى تكوين الشخصية . وقد وصفت أقوال فرويد بحق بأنها « سيكلوجية الأعماق » . وهى كذلك وإن كنا نختلف كثيراً عما نجد فى هذه الأعماق . ولولا فرويد لما كان هذا الجيش الذى يتألف من آلاف العلميين الذين يبحثون النفس البشرية فى جميع الأقطار المتمدنة . وقد جمعت بين فرويد وماركس وخرجت منهما بأزكى الثمرات ، بل فطنت إلى أن ماركس هو السيكلوجى الأساسى ؛ لأنه يجعل وجدان الفرد ثمرة المجتمع .

وعبارة « التحليل النفسى » من العبارات التى تعزى إلى فرويد وهى « اللافتة » لجميع أنواع العلاج السكلوجى ، وليس ثمة شك فى قيمة التحليل . ولكنى أحس أن « التأليف النفسى » أهم وأنفع من التحليل وإنه إلى الآن مهمل لأن السيكلوجيين مقيدون بفرويد .

وفى حياتنا العصرية لا يستطيع أحد أن يهمل التفكير العلمى ؛ لأن الحضارة الصناعية السائدة هى حضارة العلم . وقد دأبت فى دراسة العلوم التى تدور حول التطور أو الاقتصاد أو السيكلوجية أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة ، ولذلك أستطيع أن أتناول كتاباً عن الهورمونات ، أى مفرزات الغدد الصماء ، أو كتاباً عن الايكولوجية ، أى علاقة الحى بالبيئة ، أو كتاباً عن مشكلات الوراثة ، أو كتاباً عن جنون الشيزوفرينا ، فأقرؤها جميعاً فى رغبة وفهم ولا أجد ذلك الصدود الذى يجده غيرى ممن لم يعنوا بالعلوم .

وكل هذه العلوم هى دراستى المستقلة ؛ لأن ما حضرته من محاضرات فى لندن لا يؤبه به . ومما آسف عليه أحياناً أنى لم أجد المرشد حوالى ١٩٠٧ الذى كان يستطيع أن يعين لى منهجاً دراسياً فى العلوم . ولكنى ، بعد التفكير ، أسائل : هل كان يكون أفضل لى لو أنى كنت قد أنغمست فى دراسة علمية تجريبية معينة ؟ ألم تكن مثل هذه الدراسة مانعة بطبيعتها الاختصاصية من ألوان أخرى من الثقافة الموسوعية التى أتمتع بها الآن ؟ إنى لا أكاد أعرف اختصاصياً فى علم ما ، نجح فى أن يكون موسوعياً ينطلق فى سهولة ويسر إلى رياض الفلسفة والأدب والاجتماع ؛ مع أن كل هذه الميادين ، فضلا عن العلوم ، قد ألفتها وجلت بل نقبت ، فيها وفكرت فى تناسقها . وسرت فيها بروح المتعلم الذى يربى نفسه فى بعد عن الاغترار والزهو . فإذا اعتبرت القيم ، قيم الحياة لا قيم التخصص الثقافى ، فإنى أجد أنى نجحت فى تربية نفسى أكثر مما لو كنت قد تخصصت . لأن المتخصص فى الجيولوجية أو البيولوجية أو الايكولوجية قلما يفكر فى دراسة أفلاطون أو قراءة الجاحظ أو دراسة الحضارة الفرعونية . ولكنى أنا بالاتجاه الموسوعى الذى اتجهته قد درست

هذه العلوم ، فى غير تخصص ، ولكن مع الاستطلاع الدائم لغيرها من الثقافة . حتى أنى أقدر ، مثلا ، عدد المؤلفات التى قرأتها عن حضارة الفراعنة بما لا يقل عن أربعين أو خمسين كتاباً . ولم أترك كلمة مطبوعة للجاحظ لم أقرأها . وكذلك أستطيع أن أؤلف كتاباً عن جوتيه أو الإصلاح الزراعى فى مصر أو المسألة الهندية بأيسر عناء .

ولذلك يرى القارئ أنى درست ، لا للثقافة ، بل للحياة . وقد حملتنى دراستى العلمية على أن ألتفت كثيراً إلى المراحل البعيدة التى قطعتها العلوم المادية ، كالطب والهندسة والكيمياء والميكانيات والطبيعيات ، مع تأخر العلوم الاجتماعية ، التى حال دون التفكير الحر فيها وتغيير قواعدها ، تقاليد وشعائر وسنن وقوانين تعمل كلها لتجميد تطورنا الاجتماعى . فالاجتماع ، باعتباره علماً ، يعيش على مستوى التفكير فى ١٦٠٠ أو ١٧٠٠ ميلادية ، بل هو فى أقطار آسيا وأفريقيا يعيش على مستوى سنة ١٠٠٠ للميلاد ، فى حين أن الكيمياء أو الطب يسبقانه بنحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة . ولذلك نحن لا نعيش المعيشة العلمية فى بيوتنا ولا يسود حكومتنا النظام العلمى . ولو أنه كانت هناك تقاليد وشعائر وسنن وقوانين للكيمياء مثلا ، كما للمجتمع ، لبقى هذا العلم على مستواه حين كان كل هم الكيماوى أن يحيل الرصاص إلى ذهب . كما أننا لو استطعنا التخلص من تقاليدنا ومن الاستغراضات التى تخدم بعض الهيئات والطبقات لكان فى مقدورنا أن نرتفع بالاجتماع إلى مستوى العلوم التجريبية المادية .

ولهذا أيضاً نجد أن الطالب الذى يدرس الطب نقول له فى صراحة إن الذباب ينقل عدوى الرمد أو الدوسنطاريا ، أو إن لحم البقر الذى أصيب بالدرن تنتقل عدواه إلى آكله من البشر ، ولكننا لا نقول لهؤلاء

التلاميذ أو الطلبة إن الأجور المنخفضة التى يحصل عليها العمال فى مصر تفشى بينهم الدرن والعمى والموت ؛ لأننا نخشى هنا الاستغراضات الامتيازية والاحتكارية والاقتصادية . ونخشى أن نصرح للفلاحين بأن كثيراً من الغيبيات التى يؤمنون بها خرافية .

ذات يوم فى ١٩١٨ كنت قاعداً فى الريف إلى قناة صغيرة فى ظل شجرة وإلى جنبي فلاح قد بلغ الثمانين . وكنت أتأمل يرقات الضفادع وهى تسبح . فسألت الشيخ عنها فاتضح لى أنه لا يعرف أنها ضفادع صغيرة . ثم تشعب الحديث إلى النبات فقال : « إن لكل نبتة من هذه الأعشاب التى تنمو على شطوط القنوات ملكا يحرسها . » ولما نهضت أخذت أفكر فى هذه الرواسب الثقافية التى انحدرت إلينا عن الفراعنة والكلدانيين والبابليين ، وجعلتنا نعيش فى غيبيات تحملنا على النظر المخطئ لحقائق هذا العالم وتباعد بيننا وبين النظر العلمى الموضوعى . وقلت فى نفسى : هذا الرجل غيبيّ يؤمن بأن العالم حافل بالأرواح التى تحرس الناس والحيوان والنبات . إذن هو من خصوم داروين .

ولكن هذا الفلاح المسن يمثل فى سذاجته المركّزة جهل الرجل العادى والمرأة العادية . وكلاهما يعيش بذهنه على رواسب قديمة من العقائد . حتى إن فكرة « القرينة » عند الفراعنة ، لا تزال حية فى أيامنا . أجل ! لقد ذكرت الآن ؛ فقد كنت طفلا لم أتجاوز السابعة أو السادسة ، وكنت قد غضبت وصرخت ورفست وأنا على العشاء . فقالت لى أمى تخيفنى : « دلوقت أختك تزعل منك وتضربك » .

وكانت تعنى بأختى هذه «قرينة» الفراعنة . وقصدت إلى الفراش ونمت بلا عشاء . وإذا بى أحلم أن فتاة قد حضرت وهى تحمل سوطاً

ترفعه فى الهواء كى تتحفز لضربى ، فصرخت فى النوم . وأقبلت إلى أمى فى فزع فأيقظتنى وحضنتنى وجاءتنى بكوب من الماء شربت منه جرعة . ثم أخبرتها عن الحلم ، فأخذت تقبلنى وهى تبكى : «حقك على يا ابنى . أنا كنت بضحك . مفيش أخت . مفيش أخت . »

ولكن مجتمعنا لا يزال فى أسر هذه القرينة أو ما يشابهها من العقائد التى تتخذ أحياناً أساوب البحث العلمى . كما نرى مثلا فى أولئك الذين يزعمون أنهم يستجلبون الأرواح فتنقر على المائدة وتتحدث عن العالم الثانى ... وهذه العقائد تعيش كأنها كابوس للمجتمع تعمل على تجميده وتخويفه حتى لا يتطور . ودعاة الروح هؤلاء لا يختلفون عن تلك الأم الساذجة التى تقول عندما يعثر طفلها : «وقعت على أختك أحسن منك» تمدح الأخت وتسترضيها حتى لا تصيب طفلها بأذى ...

وهذه القرينة أو هذه الأخت التى أفزعتنى فى نومى ، وهذه الملائكة التى تحرس النباتات عند ذلك الفلاح المسن ، هى ضباب العقل الذى كان يجب أن يقشعه العلم . وقد انقشع أو كاد فى أمريكا وأوربا . ولكنه لا يزال يخيم علينا ؛ لأن الثقافة العلمية لا تزال بعيدة عنا لم نتنفس هواءها الصافى .

وهذه الثقافة العلمية هى ما أفتأ أرجو أن أجعلها أسلوبى فى الحياة الشخصية والاجتماعية . ولكنى لم أخطئ قط ذلك الخطأ المألوف بأن أجعل العلم غاية إذ هو وسيلة فقط . أما الغاية فيعينها الأدب والفن والفلسفة . أى إن غاية العلم هى الدين الذى نكسبه من الأدب والتاريخ والفن والفلسفة . أى كيف نعيش فى مجتمعنا أصلح العيش وأروحه وأقصده وأشرفه .

وقد وضعت كتابى « نظرية التطور وأصل الإنسان» ولى مأرب

هو مكافحة الغيبيات الشائعة . ونشرته كله مقالات فى « البلاغ » قبل طبعه كتاباً ، كى أصل إلى أكبر عدد من القراء . ومن الذكريات السعيدة أنى وقفت ذات يوم إلى دكان صغير لا تزيد مساحته على ثلاثة أمتار مربعة أشترى لابنى بعض الحلوى ، فعرفنى البائع وأخبرنى أنه قرأ كتابى هذا وفهمه .

ولو أنى وجدت التشجيع لأرصدت حياتى لإخراج كتب شعبية مثل « نظرية التطور » و « العقل الباطن » ونحوهما . وكثيراً ما كنت أتحسر حين كنت أرى مؤلفات العقليين فى لندن . فإن كتاب « أصل الأنواع » الذى زلزل به داروين الثقافة الأوربية كان يباع بأقل من خمسة وعشرين مليما .

وحوالى ١٩٣٠ وجدت أنا والأستاذ فؤاد صروف الفرصة سانحة لإيجاد حركة علمية شعبية فى مصر . فعقدنا العزم على تأليف « المجمع المصرى للثقافة العلمية » . وكانت الغاية منه أن يضم جميع المهتمين بالثقافة العلمية ونشرها بين الجمهور . ونجحنا فى المشروع نجاحاً لم نكن ننتظره ، مما دل على أن المجمع أدى حاجة عضوية فسيولوجية فى مجتمعنا . وعقدنا الاجتماع السنوى الأول له وألقيت فيه محاضرة سيكلوجية عن طبيعة التفكير فى ضوء الأحلام فى قاعة الجمعية الجغرافية . ولكنى فى ذلك الوقت كنت أمارس نشاطاً سياسياً مركزاً فى مكافحة إسماعيل صدقى (باشا) حين ألغى الدستور واستبدل به غيره ، واتفق مع المستعمرين والمستبدين على إعادة الحكم التركى الشركسى الذى حاول عرابى أن يحطمه . وأدى نشاطى هذا فى السياسة إلى طردى من المجمع .

وكان من حظنا السيئ أننا اخترنا معظم الأعضاء من الموظفين . ولذلك حين اختير حسين سرى (باشا) رئيساً لاجتماعه الثانى أرسل

إلى خطاباً يفصلنى من المجمع « مع الشكر » . وكان وقتئذ وكيلا لإحدى الوزارات ، فوافق جميع الأعضاء « الموظفين » ولم يشذ غير واحد ، غير موظف ، هو الأستاذ إسماعيل مظهر . وجاء فى عقب طردى الصديق زكى أبو شادى يعتذر إلى بأنه لم يجرؤ على مخالفة « وكيل وزارة » ، ولذلك أعطى صوته ضدى ووافق على طردى ، على أنه يعرف أنه ليس من حق المجمع أن يفصلنى لنشاطى السياسى . واتجه المجمع بعد ذلك وجهة اختصاصية غير شعبية ، ولذلك لم ينتفع به الجمهور كثيراً .

وعندما أقارن بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية أجد أن القيمة العظمى للأولى أنها تحريرية ؛ لأن التفكير العلمى يسير على نهج ارتقائى : هذا سيئ فيجب أن نبحث عن الحسن ، وهذا أحسن ولكن يجب أن ننشد أحسن منه بالاكتشاف والاختراع ، والتفكير الارتقائى هو بطبيعته تفكير علمى . وهو لم ينشأ فى أوربا إلا بعد أن اتجه الأوربيون وجهة علمية فى القرن السابع عشر . أما قبل ذلك فلم يكن هناك من يقول بأن الشعوب يجب أن ترتقى وتتغير . وقد يرد هنا على بأنه كان هناك طوبويون يتخيلون حالا سعيدة للبشر غير حالهم الحاضرة . ولكن الفكرة الارتقائية لم تنبت قط فى هذه التربة الطوبوية . وإنما نبتت من البذور العلمية .

والثقافة الأدبية ، إذا لم تجد الحافز من العلوم ، تركد . وقد كان هذا شأنها فى العصور الوسطى : وسط زراعى راكد يعيش فى ثقافة أدبية راكدة محافظة . أما الآن فالعالم المتمدن يعيش فى وسط صناعى متحرك ، يعيش فى ثقافة علمية متحركة متغيرة .

ومن هنا قيمة التوجيه العلمى فى الثقافة العربية الحاضرة . بل يجب أن يرتفع هذا التوجيه إلى مقام الدعاية .

ذكريات الحرب الكبرى الأولى

كانت الحرب الكبرى فى ١٩١٤ متوقعة ، وكان أساسها المباراة العظيمة بين الإنجليز والألمان . فإنهما كانا على تقدم صناعى عظيم يحتاج إلى المستعمرات والمواد الخامة والأسواق . وكان الإنجليز حاصلين على كل هذا ، ولم يكن الألمان حاصلين على شىء يؤبه به . فكانت الصناعات الإنجليزية تمتاز بالمواد الخامة الرخيصة التى تحصل عليها من الهند وجاوة ومصر وغيرها ، فتستطيع بيع مصنوعاتها بأثمان منخفضة . ثم فى الوقت نفسه كانت تجد التفضيل فى الأسواق فى هذه الأقطار وغيرها . وإذا لم يكن هذا التفضيل بالامتياز الجمركى الصريح ، الذى يجعل مصنوعاتها تدخل هذه الأقطار بسهولة ، فإنه يكون بألاعيب أخرى تؤدى إلى التفضيل ، ويقوم بها موظفو المستعمرات لخدمة طبقة الصناعيين والتجاريين فى بريطانيا .

ولم يطق الألمان هذه الحال ، أى أن يثرى الإنجليز بأوضاع اقتصادية عالمية غير عادلة ، ويبقوا هم فى تخلف اقتصادى . وشىء من هذه الحال كان أيضاً بارزاً فى مقدمات الحرب الكبرى الثانية التى دعت اليابان فيها إلى « الرخاء المشترك » .

وكانت الشرارة الأولى للحرب قتل أحد الأمراء من أسرة الامبراطور فرانز جوزيف ، وكان إمبراطوراً هرماً على إمبراطورية هرمة ركيكة . ولم تمض إلا أيام حتى كان العالم كله مشتعلا ، وأخذ الجمهور فى مصر على دهشة .

وكنت أصدر مجلة « المستقبل » فى القاهرة . فدعيت إلى تعطيلها فى إدارة المطبوعات . ثم شرع الإنجليز فى اعتقال من يتوجسون فى اتجاهاته . ولبثت بعض الشهور وأنا أعمل مع مى فى جريدتها ، أى جريدة والدها « المحروسة » . ولكنى سئمت الرقابة التى لم تكن تسمح بنشر خبر صحيح إلا بعد أن تزيفه حتى تخرج الهزيمة التى كانت تقع بالحلفاء كأنها انتصار رائع لهم .

ورحلت إلى الريف ، ورأيت كيف كان يسلط الانجليز علينا الموظفين المصريين من مأمورين ومديرين وحكمدارين وشرطة لخطف محصولاتنا . وكانت الجمال والحمير بل الرجال يخطفون أيضاً كما لو كانوا فى قرية زنجية على خط الاستواء قد كبسها النخاسون لخطف سكانها وبيعهم فى سوق الرقيق . وكان المنظر يهين النفس كما يفتت القلب . فكان الرجل يربط بالحبل الغليظ من وسطه ، وخلفه أمثاله ، ويسيرون على هذه الحال صفاً إلى أن يبلغوا « المركز » فيحبسون فى غرفة المتهمين ثم يرحّلون إلى فلسطين . وكنت أنجح أحياناً بالرشوة فى استخلاص بعض هؤلاء المساكين . وذات مرة وأنا بالمنزل سمعت صراخاً ودخلت على نسوة فى فزع ونحيب . وعرفت أن ثلاثة ممن يزرعون أرضنا ألقى القبض عليهم وهم يحرثون فى الحقل . فخرجت ووجدتهم مربوطين بالحبال الغليظة بحراسة أحد الشرطة . أما سائر الشرطة فقد تركوهم كى يغزوا قرية أخرى . واستطعت بمساومات مع الشرطة أن أحصل على الإفراج عنهم . ولكنى لم أكن أنجح كل مرة . ففى ذات يوم قصدت إلى المأمور فى الزقازيق أطلب منه إطلاق اثنين من الفلاحين . فتأملنى ثم قال : أنا عايز أرحّلك أنت لفلسطين . فتركته إذ لم تكن الظروف وقتئذ تأذن بالتحدى .

وفى تلك السنوات السود أثرى كثير من العمد ثراء فاحشاً ؛ فقد فرضوا ضرائب على جميع الشباب من سن العشرين إلى الخمسين كل على مقدار ما يملك . فهذا يؤدى خمسة جنيهات ، وذاك عشرة جنيهات ، حتى يعفيهم من الاعتقال وبعثهم إلى فلسطين . وعرفت عمدة كان يملك ستة أفدنة فقط جمع نحو خمسة آلاف جنيه بهذه الطرق . وكان الفلاحون يجوعون كى يجمعوا هذه الغرامات ويؤدوها .

وقد استمتعت بعد ذلك بالشماتة عند ما رأيت هذا العمدة وقد قبض عليه الإنجليز بعيداً عن قريته وأجبروه على النزول فى ترعة يبحث عن أحد قضبان الخط الحديدى لشركة الدلتا . فقد فوجئ وهو على حمار قاصداً إلى قرية مجاورة فأنزلوه وضربوه وأجبروه على العمل فى ترميم الخط الحديدى الذى كان الفلاحون قد نزعوه فى ١٩١٩ . وعرفت بعد ذلك أنه تورط فى معاكسات ومشاجرات بينه وبين الأهلين فضاع كل ما جمعه . فقد تعقبوه بالشكايات جملة سنوات وتمسكوا عليه بمخالفات خطيرة جعلته ينفق فى الرشوة وأجور المحامين كل ما كان قد جمعه من هؤلاء الفلاحين المساكين .

وكان معظم النقـــل فى الحرب الكبرى الأولى على الخيول الأسترالية . وكانت ضخمة يعلف الحصان منها بضعف ما يعلف به حصانان من خيولنا . ولذلك كان التبن والشعير يخطفان من الريف . وقد قام عمالنا المصريون ، وهم من الفلاحين ، بخدمة الحملة الإنجليزية فى فلسطين . وكانوا يعدون بعشرات الألوف مات أكثرهم وعمى بعضهم . ومع ذلك عندما انتهت الحرب واشتعلت الثورة فى مصر فى سنة ١٩١٩ وقف السفير البريطانى فى واشنطون ينتقص من قيمة خدمتنا فى الحرب كى يحول دون العطف الأمريكى على قضية استقلالنا ،

فقال إن جميع من قتلوا فى الحرب من المصريين لا يزيدون على ثلاثة أشخاص . ثلاثة فقط .

وكثير من الفلاحين يتركون الأرض إلى المدن لما يلاقون من قسوة المالكين الذين يعصرونهم بالإيجارات والمحاسبات . ولكن الريف لا يزال معموراً بل مزدحماً بالفلاحين على الرغم من جميع ما يلقى هؤلاء فيه من مصاعب . وظنى أن بعض السبب لذلك أن فى الأرض فتنة تسحر الفلاح وتربطه بها مهما قل كسبه منها . فإنه يستيقظ قبل الشروق ، ويخرج إلى حقله ترافقه بقرته وحماره وعنزته أو نعجته . وهو يحس برفقة هذه الحيوانات ويجد فى هذه الرفقة لذة تسمو على الاعتبارات المالية . وهو يتشمم الأرض عقب حرثها حين تنفح التربة الهواء بروائحها التى توحى الرخاء والبركة . بل هو يبكر أحياناً كي يتحقق من النمو الجديد فى الذرة أو القمح . وفى الشتاء حين يكسو الندى البرسيم تبدو الدنيا فى بهاء لا يعدل الإنسان به أى جمال آخر .

وقد وجدت هذه الفتنة فى السنوات التى قضيتها فى الريف مدة الحرب . وكنت كثيراً ما أتأمل الفلاحين وهم يكدون من الفجر إلى الغروب ، ثم يعودون مرحين يتغنون بالمواويل خلف البهائم إلى بيوتهم . وهذا الحب للأرض وللنبات وللحيوان يلصق الفلاح بالريف ويجعله يرضى بالمعيشة الضنينة من حيث الطعام واللباس والمسكن . بل هو يرضى بقسوة الإيجارات والمحاسبات ، بل إن الفلاحة أيضاً تجد من الاهتمامات بتربيـــة الدجاج والبط والحمام ما يجعلها مفتونة بهذه الطيور فتغنى لها كما لو كانت تؤدى هواية لذيذة . وكثيراً ما رأيت إحدى الفلاحات تخاطب البقرة التى عزفت لسبب ما عن الطعام

بقولها : « يا حبيبتى ، يا أختى » ، ثم تمسحها بيديها كما لو كانت طفلا تدلله .

ثم يجب ألا ننسى القمر فى الريف ؛ فإنه يسكب سحره على كل شىء ، وأبناء المدن الذين يرون القمر من خلال المبانى لا يعرفون فتنة هذا الكوكب فى الريف .

وغيرى يعد الريف منفى ، ولكنى أعتقد أن أحسن سنى حياتى هى تلك التى قضيتها فى الريف . فقد أتاح لى الدراسة الجدية كما أتاح لى الاستمتاع بالطبيعة . ولم يكن يمر علىّ يوم دون أن أستيقظ فى الساعة الرابعة أو الخامسة من الصباح وأسير فى الحقول وهى مبللة بالندى فى هدوء الطبيعة الرخيم أنتظر بزوغ الشمس فأحييها وأتأملها كأنى فى صلاة . وهناك آلاف من الناس لم يعرفوا قط هذه الصلاة ولم يحسوا هذا الإحساس الدينى فى الاتصال بالطبيعة فى خلوة الحقول التى تنمو كل نهار بحياة جديدة . والسائر فى الحقول فى هذه الساعات الأولى من النهار تغمره نشوة حقيقية حتى ليجد خفة فى نفسه لا تختلف من تلك التى يحدثها الكئول ، ولكن دون تخدير للوجدان .

والريف يوهم التجزؤ والانفصال . هذا نبات ، وهذا حيوان ، وهذا مسكن ، وهذا حقل ، بل هذا إنسان وهذا بهيم . ولكن المتأمل يجد الترابط والتكافل ، كأن كل هؤلاء وحدة حية .

وقد كان داروين يقول على سبيل الفكاهة إنه يستطيع أن يقدر عدد العوانس فى قرية (فى انجلترا) بملاحظة حقول البرسيم المحيطة . فإذا كان البرسيم مزدهراً ناجحاً فإنه يدل على أن العوانس كثيرات فى القرية . ذلك لأنهن يربين القطط . والقطط تأكل الفئران . والفئران

تأكل النحل . والنحل هو الذى ينقل إلى البرسيم لقاحه من زهرة إلى زهرة . . . فإذا قلت العوانس قلت القطط وزادت الفئران ، وقل النحل ثم قل ازدهار البرسيم .

ونحن نرى هنا بالطبع فكاهة . ولكن لها مغزاها ، وهو أن النبات والحيوان يعيشان فى تضامن سمبيوزى أى إن كلا منهما يخدم الآخر. فحياة هذا تتوقف على حياة ذاك . وقد كنت أبتهج بالتأمل فى الريف لهذه الروابط بين النبات والحيوان . وكثيراً ما كنت آسف وأنصح بشأن البومة . فإن الفلاحين قد ورثوا عقائد غيبية عنها إذ يقتلونها لأنهم يتشاءمون منها ، مع أنها تأكل الفئران التى تقتات بذراهم وخبزهم . ثم إن تكاثر الفئران يؤدى إلى تكاثر الثعابين التى تقتات بها . بل إن للذئاب والثعالب فى ريفنا قيمتها السمبيوزية فى حياتنا الريفية أيضاً لأنها تنظف القنوات من الرمم .

وقد كنت ، وما زلت إلى الآن ، أجد لذة واهتماماً فى أن أتابع فراشة بل أجرى وراءها كالصبي حتى أمسكها وأتأملها وأبحث عن أعضائها ، ثم أطلقها . وسلوكى هذا كثيراً ما كان يبعث الابتسامات بين الفلاحين الذين يعتقدون أن مثل هذا العبث لايتفق والوقار . . وما زلت إلى الآن متعلقاً بالريف أخطف إليه الزيارات بل ما زلت أحلم بأن أقضى السنة الأخيرة من عمرى فى الريف .

وريفنا الذى صنعته الطبيعة ، ريف الحقول والزهر والشجر والطير والفراش ، هذا الريف يتلألأ بالجمال ويبعث الحياة تنبض فى عروقنا حين نشرب من هوائه ونشم منه خضرة البرسيم أو الذرة التى تغمر نفوسنا . ولكن الريف الذى صنعه المجتمع المصرى ، ريف المساكن الكالحة المبنية من الطين المجفف ، ريف الإيجارات والمحاسبات والحرمان

للفلاحين ، هذا الريف لا يوحى إلينا الصلاة بل يوحى الغضب واللعنة وكراهة الحياة فى مصر . فإن المالك يعامل أحياناً الفلاحين بروح تجارى لا يبالى هل هو يجوع أو يمرض بسبب الإيجارات العالية التى يفرضها عليه .

وأذكر أن أحد الفلاحين فى عزبة غير بعيدة قدم إلىّ ذات صباح فى ١٩١٥ وعرض على أن ينتقل إلى عزبتنا ، فقبلت . وقبيل الغروب حضر هو وزوجته التى كانت تحمل ابنتها على صدرها ، وكان هو يحمل جرة بها « مخلل » . وكانت هذه الجرة كل ما يملك من متاع فى الدنيا ، فقد حاسبه صاحب الأرض وأخرجه خالصاً لا عليه ولا له . وفاحت رائحة كريهة من الجرة . فكشف عنها أحد الحاضرين وصب منها على الأرض ، وما زال يصب حتى فرغت . وكان هذا « المخلل » الذى ذكره هذا المسكين لا يتجاوز هــذا السائل الكريه يبلل به هو وزوجته خبز الذرة ثم يبلعانه . وكان الهزال واضحاً فى الثلاثة ، وكان أوضح فى الطفلة التى كانت تتعلق بصدر أمها كأنها خرقة بالية معلقة فى ترهل . وقد ماتت هذه الطفلة بعد نحو أسبوعين .

وقص علىّ علىٌّ ، وهذا اسمه ، مأساته . فقد دخل تلك العزبة قبل ست سنوات ومعه بقرة وحمار ، وكان لزوجته صندوق ولحاف وحصير ومخدة . ولكن المالك كان « يحاسبه » كل عام ، فيخرج مديناً . وباع بقرته وحماره فى تسديد الدين . ثم باعت زوجته كل أمتعة البيت كى تشترى الذرة .

وذات مساء أقبلت على العزبة فوجدت علياً مبطوحاً على بطنه وهو يصرخ صرخات عالية . وفزعت عند ما رأيته على هذه الحال . وظننت أنه قد تسمم أو أن وباء الكوليرا قد نقل إلى مصر مع بعض

الجنود الهنود . ولكن المسكين سكت خجلا عند ما رآنى . وذهبت به فى اليوم التالى إلى الزقازيق لأحد الأطباء . فقال إنه مريض بالبلاجر وهو مرض ينشأ من النقص الغذائى ، فذكرت الجرة التى جاء بها وصببنا منها المخلل على الأرض . . .

وتفاقمت حاله ، وظهرت عليه أمارات البلاهة . وتركته زوجته وتزوجت غيره . ثم حدث حريق فى بهنباى بعد ذلك بسنين ، وكان هو فى أحد أزقتها . فخانه ذكاؤه الذى تقهقر من البلاجرا فعجز عن التخلص من النار ومات بالحريق .

وفى الريف المصرى الجميل ، آلاف من هذه المآسى التى تعود إلى الروح التجارى فى محاسبة الفلاحين وزيادة الإيجارات حتى يموتوا فى بطء لقلة الطعام . وأغلب المسئولين عن هذه القسوة هم من المالكين الذين يعيشون فى المدن ويستغلون ، غيابياً ، أرضهم ، فلا يستطيع وكلاؤهم التسامح ، ولا نقول الرحمة ، مع المأزومين ، والفقراء ؛ بل أحياناً يبرهن هؤلاء الوكلاء على إخلاصهم واجتهاهم للمالكين بزيادة الإيجارات على هؤلاء المساكين .

وكنا نقرأ الأخبار كما يحب الإنجليز أن نفهمها . ولذلك كانت الرقابة صارمة شاملة . فقد اشتركت فى بعض المجلات الأمريكية كى أصل عن طريقها إلى الأخبار الصحيحة . فكانت إما تمنع من الوصول إلى وإما تقص أوراقها التى تحمل أخباراً غير ملائمة للإنجليز . ولكن حتى بين المحررين المصريين من كان يستطيع أن يروى الخبر بحيث يجوز ظاهره على الرقيب ويدرك قارئه ما بين سطوره ، مثل :

« جاء فى التلغراف أن هزيمة الألمان عند فردان كانت فادحة ؛ إذ تقدموا بعد جهد كبير عشرة كيلو مترات . ولكن ارتد عليهم

الجنود الإنجليز والفرنسيون فانتزعوا منهم طاحوناً . وقد أحدث هذا المنظر فرحاً عاماً فى قيادة الحلفاء » .

وكان الرقيب ينخدع بهذه اللهجة وينسى المعانى الواضحة .

وكان إعجاب الجمهور بألمانيا يفوق الوصف . وبعض هذا كان يعود بالطبع إلى الشماتة بالإنجليز المحتلين لوطننا . وكنا نهجس أحياناً بأمل الاستقلال إذا انهزمت بريطانيا أوعلى الأقل لم تنتصر . وكان هذا الأمل قوياً فى بداية الحرب وبقى إلى أن دخلت أمريكا فى صف الحلفاء .

ولم تكن الطائرات عنصراً خطيراً فى الحرب الكبرى الأولى . ولم تزرنا فيها غير طائرتين : الأولى ألقت قنبلة بالقرب من البنك الأهلى . والثانية ألقت قنبلة فى حى الفجالة ، وكان التلف صغيراً . وأيضاً أرسلت ألمانيا بلوناً عبر جونا ، ذهاباً وإياباً ؛ من أوربا إلى المستعمرة الألمانية فى أفريقيا الشرقية . ولم يلق أية معارضة من الإنجليز : وكان على ارتفاع بعيد حتى لم يسمع أحد بأزيز موطراته .

وقد كانت براعة الألمان فى القتال عظيمة ، ولكن إخفاقهم فى السياسة كان عظيما أيضاً ؛ إذ لم يستطيعوا أن يتوقوا انضمام الأمريكيين إلى أعدائهم . ولذلك صحت كلمة لويد جورج رئيس الوزارة الإنجيزية عند ما قال : « الألمان يكسبون المعارك الآن . ولكنا نحن سنكسب الحرب » .

وكان تشرشل بطل الحرب الكبرى الثانية بطلا أيضاً فى الحرب الكبرى الأولى . فقد كان يتهم الألمان بأنهم يصنعون الصابون من جثث القتلى أى يستخرجون الشحم من هذه الجثث ويصنعون منه الصابون . وقال أيضاً إن الألمان يبعثون جنودهم إلى المدن لتلقيح النسوة بلا زواج . . . وكانت هذه التهم بالطبع غير صحيحة . ومما

قام به تشرشل فى تلك الحرب أنه زيف ملايين النقود الورقية وبعث بها عن طريق سويسرا إلى ألمانيا حيث أفسد قيمة النقـــد الألمانى . وتشرشل أيضاً هو المسئول عن الحصار الذى ضربه الإنجليز على ألمانيا أكثر من ستة أشهر بعد إعلان الهدنة . فلم يكن يدخل ألمانيا شىء من الأغذية التى يحتاج إليها السكان ، وكانوا قد بلغوا حالاً بشعة من القحط . وقد عم الكساح أطفالهم لهذا الحصار .

وارتفعت الأسعار والأثمان إلى أربعة أضعاف بل خمسة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب . ولكن الرخاء كان عاماً ، لأن الإنجليز بعد أن كانوا قد حددوا أثمان القطن فى السنتين الأوليين من الحرب تركوها حتى وصلت إلى ٤٠ و ٤٥ جنيهاً للقنطار . وكان أردب القمح يصل إلى ٧ أو ٨ جنيهات . وبقيت إيطاليا مدة طويلة وهى محايدة ، فكانت تموننا بكثير من المصنوعات . ولذلك لم يزد قط ثمن البذلة على ٨ أو ٩ جنيهات . وأحدثت أثمان القطن المرتفعة هوساً عاماً فى الريف حتى بلغ ثمن الفدان خمسمائة جنيه وإيجاره ٤٠ أو ٥٠ جنيهاً . وبدهى أنه فى مثل بلادنا حيث منع الإنجليز تأسيس المصانع يجب أن ترتفع أثمان الأرض كلما زاد النقد المتداول ؛ إذ ليس هناك شىء اخر لاستغلال النقد الفائض . وأعرف اثنين شقيقين فى الريف كانا يتجران بالقطن فى ١٩١٩ . وقد عمهما الهوس بشأن الزيادة المستمرة فى أثمانه ، فصارا يجمعان منه ويكنزان حتى أصبحت ثروتها كلها قطناً لايملكان شيئاً غيره . وكان يعرض عليهما الثمن العالى فيرفضان انتظاراً لارتفاع الثمن إلى خمسين أو مائة جنيه . وهما فى هـــذه الآمال والأحلام وإذا بالثمن يهوى إلى أقل من أربعة جنيهات . فجن أحدهما ومات الآخر . وكثر الانتحار بين المضاربين على أثمان القطن

فى بورصة الإسكندرية . وفى أثناء هذه الحمى كانت الثروات الضخمة تتكون فى أيام أو أسابيع ؛ فقد كان هناك تجار يشترون البيض أو الزبد أو يتجرون فى البهائم . فلما رأوا أن القطن يصعد إلى السماء أقبلوا عليه . فلم يكن يدور العام على أحدهم ، فيما بين ١٩١٨ ، و ١٩١٩ ، حتى كان يملك عشرين أو ثلاثين ألف جنيه مع أن كل ما كان يملك فى بداية تجارته لم يكن يزيد على مئتى جنيه . وكان بعض هؤلاء يتناسى قديمه ويزعم أنه أصيل عريق فى الثراء . وبعض آخر كان يتبجح بعصاميته وأنه جمع ثروته بذكائه ، أو كما كان يقول بذراعه . وكلاهما كان كاذباً ؛ لأن كل ما فى الأمر أن الحظ رفعهم كما خفض غيرهم .

وكانت الحرب تسير فى سلحفة بطيئة خالية من الاقتحامات ، حتى كاد الناس يعدونها شيئاً مألوفاً ليس هناك ما يدعو إلى أن يتغير . فقد حفرت الخنادق . من الجانبين ، فى الإقليم الشمالى من فرنسا وجهزت بالأثاث والمصابيح الكهربائية ، ونظمت بينها المواصلات وحصنت بالأسمنت . وعم الجبهة الغربية ركود حتى صارت عبارة « كل شيء هادئ فى الميدان الغربى » من العبارات الرمزية نقولها عندما لانجد خبراً جديداً . وهنا الاختلاف بين الحرب الأولى والحرب الثانية فى ١٩٣٩ . فإن الغارات الجوية التى وصلت إلى مدننا جعلت هذه الثانية متحركة نشيطة بالمقارنة إلى سكون الأولى فى الخنادق . وحاول الألمان أن يحركوا الجبهة الغربية بالهجوم الكبير على فردان . ولكنهم لم ينجحوا إلا فى قتل عشرات الألوف من شباب الألمان والفرنسيين . والواقع أنه لم يكن فى أخبار الحرب الأولى ، بعد الهجوم البرقى الألمانى الأول ، مما بقى أثره ، سوى ثلاثة أشياء هى : دخول

أمريكا فى الحرب ، ثم انفصال روسيا بنظامها الجديد . وأخيراً شروط ولسن التى أحسسنا بها كأننا نفتتح عصراً جديداً للسلام والعدل . وكان أهم ما فى هذه الشروط حق تقرير المصير للشعوب التى يستعبدها الاستعمار . وكانت عصبة الأمم إحدى الثمرات لجهاد ولسن للسلام العام .

وقد ظهر ولسن بمذهبه الجديد كما لو كان نبياً . فإن العالم الذى كان يئن من الإمبراطورية البريطانية استروح نسيما منعشاً من هذه المبادئ الجديدة التى تقول بالمساواة والحرية وتقرير المصير . وعلقت هذه المبادئ بأذهاننا ، وصرنا نلهج بها ونفكر فيما نستطيع أن ننتفع به منها . وكان الساسة الإنجليز يتململون من هذه المبادئ ولكنهم لم يستطيعوا منعها وإنكارها . وقدعادوا إلى مثل هذه الحال فى الحرب الكبرى الثانية عندما دعا الرئيس روزفلت إلى ميثاق الأطلنطى والحريات الأربع . فقد قبلوا مبادئ ولسن ثم مبادئ روزفلت بالقول مع نية نقضها بالفعل .

وكان ولسن يسير فى أوربا وينتقل من عاصمة إلى أخرى والجماهير تحتشد له وتتلقاه فى خشوع دينى . حتى كان بعضهم يجثو على الركب على أرصفة المحطات . وكان الكاتب الفرنسى رومان رولان فى سويسرا وقد غادر فرنسا احتجاجاً على الحرب .

وقد كتب له خطاباً مفتوحاً قال فيه :

« أنت وحدك ، أيها الرئيس ، بين جميع أولئك الذين يحملون الواجب الرهيب لقيادة الأمم ، أنت وحدك تستمتع بسلطة روحية عالمية . لأنك توحى الثقة العامة .

« أجب نداء هذه الآمال الحارة : وتناول هذه الأيدى التى

بسطت إليك فاجعلها تصافح بعضها بعضاً . . . لأن الأمم إذا وجدت أنها خذلت فى هذه الوساطة فإنها ستتفرق وتهيم فى فوضى ثم لا بد أن تتحطم فى الشطط . وعندئذ تنغمس الشعوب فى الدماء وتنكفئ الأحزاب القديمة إلى رجعية دموية ... أيها الوارث لجورج واشنطون وإبراهام لنكولن هلم إلى الراية وهى ليست راية حزب أو راية أمة وإنما هى راية العالم كله . وادع نواب الشعوب إلى برلمان البشرية . وارأس أنت هذا البرلمان بالسلطة الكاملة التى هى حقك لما لك من وجدان روحى سام ، ولما لأمريكا من مستقبل عظيم . تكلم ! تكلم إلى الجميع . لأن العالم متعطش إلى صوت يعلو ويغمر تخوم الأمم وطبقاتها . كن الحكم للأمم الحرة ، حتى يعرفك المستقبل بأنك كنت المصالح بينها . »

وليس من شك فى أن مبادئ ولسن الأربعة عشر كانت من أكبر العوامل لثورتنا فى ١٩١٩ . وكان ولسن يحاول تغيير العالم ؛ وكان يؤمن برسالته فى جد وشرف . ولكن الرجل فى شرفه وسذاجته لم يقدر عتو اللؤم والخسة فى الإمبراطوريين : كليمنصو رئيس وزارة فرنسا ، ولويد جورج رئيس وزارة بريطانيا . فقد سايره هذان الاثنان وأوهماه بالموافقة التامة على مبادئه كى يلقى بكل القوة الأمريكية فى كفة الحلفاء ضد ألمانيا ، حتى إذا تم الانتصار بفضل هذه القوة للإنجليز والفرنسيين تنكر هذان الاثنان له . وكان من الفكاهات التى يتنادر بها الفرنسيون فى حمق ورعونة قول كليمنصو وقت المفاوضات : « إننى فى مأزق ، فعن يمينى نابليون وعن يسارى المسيح . » وهو يعنى بنابليون لويد جورج فى زعمه أنه بطل ، وبالمسيح ولسن فى زعمه أنه مصلح للعالم . ونحن الآن فى ١٩٤٧ عند ما نذكر هذه المفاوضات

فى ١٩١٩ ندرك أن ولسن لم يكن فقط الرجل البار بالبشر بل كان أيضاً الرجل البصير . أما هذان الاثنان فكانا أحمقين قد طربا للانتصار ورضيا بالنظر القصير . ولو أن مبادئ ولسن عمت العالم لما وقعت الحرب الكبرى الثانية .

وعلى كل حال ربح العالم من ولسن « عصبة الأمم » . وصحيح أن الإمبراطوريين من الإنجليز والفرنسيين أفسدوها وأحالوها إلى هيئة ميتة عند ما أيقنوا أنها تعارض المذهب الإمبراطورى . ولكن هذه العصبة نبهت الأذهان ، وبقيت ماثلة أمام العالم نحو عشرين سنة وهى تشهد ، حتى بضعفها وفشلها ، على ضرورة إقامة منظمة عالمية تشرف على مصالح البشر . وقد كانت هى الباعث بعد ذلك لإيجاد « منظمة الأمم المتحدة » و « مجلس الأمن » .

والحق أن هاتين الحربين قد أنجبتا فى الميدان الديمقراطى الغربى بطلين عالميين فقط ، كلاهما أمريكى هما ولسن وروزفلت . وكلاهما دعا دعوة عالمية فعبر عن أسمى الأمانى وأنضر الآمال فى السلام والعدل والشرف بين البشر .

وفى العالم الآن ثقافة عالمية بشرية جديدة تختمر . وعن قريب ستتبلور . ثم سوف تتجوهر مبادئ أو ديانة عامة نؤمن بها جميعاً ونقول بها إن هذا الكوكب هو وطننا ، هو قريتنا التى يجب أن نجوب شوارعها ونعرف أزقتها ، فى القطب الشمالى أو جبال هملايا فى الصيف ؛ وفى صحارى أفريقيا أو آسيا فى الشتاء . وطن عالمى جديد كبير يلغى هذا العالم المجزأ أو هذه الأوطان القديمة .

وكثير من الفضل فى هذا الاتجاه يعزى إلى ولسن وروزفلت .

ثورة ١٩١٩

فى ١٨٨٢ حكم علينا الإنجليز بمعاونة المستبدين المصريين ، بالموت السياسى . وبقينا فى هذا الموت إلى ١٩١٩ حين بُعثنا وشرعنا نعود إلى التاريخ . وعدنا إليه بالثورة والدم والتدمير .

وكانت جميع طبقات الأمة فى ثورة . فإن الفلاحين بعد أربع سنوات من خطف محصولاتهم ورجالهم كانوا حاقدين على الإنجليز . وكانت الطبقة المتوسطة من الموظفين حاقدة أيضاً على الإنجليز الذين منعوا الرياسة فى الوظائف عن المصرى وقصروها على الإنجليزى . وعادوا بنا بذلك إلى أيام توفيق حين كانت الرياسة للأتراك والشركس دون المصريين .

فطبقات الأمة الفقيرة والطبقة المتوسطة أيضاً كانت فى تململ . ولذلك حين تولت الطبقة المتوسطة قيادة الثورة انقاد الفلاحون والعمال إليهم . ولكن يجب ألا ننسى أن الوجدان الوطنى لم يمت قط منذ ١٨٨٢ . ولكنه كان خامداً . وقد بعث فيه مصطفى كامل الحياة . ولكن هذا الزعيم جاء قبل أوانه ثم مات فى شبابه فى ١٩٠٧ . ثم كانت هناك فترة اختلاط فكرى هو تراث التاريخ : مصر أحد أقطار الدولة العثمانية ؟ أو مصر يجب أن تدعو إلى الجامعة الإسلامية ؟

وكان هذا الاختلاط الفكرى يفتت الوطنية المصرية . فلما كانت الحرب الكبرى الأولى رأينا الإنجليز يتصرفون بحظوظنا كما لو كانوا آلهة فوق السحاب يعلنون على العالم « حماية » مصر . ثم يخلعون

الخديوى . ثم يرتقى عرش مصر بدلا منه السلطان حسين . ثم يمنعوننا من الاجتماع أو الكتابة ويراقبون جرائدنا حتى لايكتب حرف إلا بإذنهم ، ولكن بعد ذلك يصيح بنا ولسن : هبوا إن لكم حق تقرير المصير .

وكان أكثر الأمة وجداناً بأن سنة ١٩١٩ يجب أن تكون سنة فاصلة فى تاريخنا أولئك الذين عاشوا فى الثورة العرابية واشتركوا فيها . وكان سعد زغلول فى مقدمة هؤلاء . فإن لوحة التاريخ المصرى من ١٨٨٠ إلى ١٩١٩ كانت واضحة الخطوط والصور فى ذهنه .

فما هو أن أعلنت الهدنة حتى قصد هو ، وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى باشا ، وكلاهما رأى الثورة العرابية أيضاً وعاش فى سنى الخزى الوطنى التى أعقبتها أو فى العصر الجليدى للوطنية المصرية ، قصدوا إلى دار المندوب السامى البريطانى وطلبوا فى إلحاح الإذن لهم بالسفر إلى لندن كى يطلبوا استقلال مصر .

ولكن المندوب السامى كان يفكر فى تيار آخر هو استعمار مصر . ولذلك لم يسغ هذا الطلب ؛ ورفضه . وشرع سعد يبعث فى الأمة وجداناً بالظروف الجديدة التى تجعل الاستقلال طلباً أساسياً لا نقبل دونه شيئاً آخر . وسرت فى البلاد موجة من السخط على الإنجليز . واعتقل الإنجليز سعد ورفاقه ونفوهم إلى مالطة فى مارس من ١٩١٩ . وزاد السخط وكثرت الإضرابات من الطلبة والموظفين وقطعت السكك الحديدية وأسلاك التليفون والتلغراف . وعندئذ أذن الإنجليز بسفر الوفد أى سعد ورفاقه إلى باريس كما أرسلوا لجنة إنجليزية برياسة الاستعمارى القارح ملنر لتحطيم الحركة الوطنية بإغراء عناصر أخرى ،

غير أعضاء الوفد ، حتى يقبلوا الحكم ويضربوا الأمة بالحديد والنار كي تقبل الاستعمار البريطاني وتخضع له .

ووصلت لجنة ملنر إلى مصر في ديسمبر من ١٩١٩ . وكان سعد ورفاقه أي الوفد المصرى ، في باريس . فكان إرسال هذه اللجنة بمثابة التلصص على الحركة الوطنية أو الدخول إليها من الباب الخلفي للاتفاق مع العناصر التي ليست مع سعد . ولكن الشعب قاطع هذه اللجنة ، بل إن محمد سعيد باشا رئيس الوزراء استقال احتجاجاً على ارسال هذه اللجنة مع وجود الوفد المصرى في باريس .

واستطاعت لجنة ملنر وهي في مصر أن تقنع عدلى باشا بالمفاوضة مع الإنجليز . وكان سعد والوفد ، وهما في باريس ، يطالبان باستقلال مصر باعتبار هذا الاستقلال جزءاً من مفاوضات الصلح العام في ١٩١٩ . وسافر عدلى إلى سعد وأقنعه بضرورة السفر إلى لندن في مايو من ١٩٢٠ للمفاوضة . وهنا تغير موقفنا . فقد كان سعد والوفد يطلبان الاستقلال باعتباره من القضايا التي تتجاوز حق الإنجليز أو حق استشارهم في بحثه . وأن الدول المجتمعة في باريس ، أي الولايات المتحدة وفرنسا وسائر الدول الصغرى ، لها حق البحث لهذا الموضوع إلى جنب بريطانيا . ولكن عدلى نقل هذه القضية من هذا الموقف الرحب إلى موقف حرج هو المفاوضة مع الإنجليز فقط .

وتقهقرت القضية المصرية خطوات إلى الوراء بهذا الموقف الجديد . وسافر الوفد المصرى إلى لندن . فطلبنا نحن الاستقلال وطلب الإنجليز الاستعمار . وهذا هو ما كان ينتظر . وكان الإنجليز يرمون إلى تضعضع الروح الوطني بمرور الأشهر حين يجد المصريون ركوداً وهمودا فتموت الحركة الوطنية .

وعاد سعد والوفد المصرى إلى مصر . وشرع سعد يبعث الحرارة والنشاط فى الأمة بالخطب والمنشورات . وكان عدلى قد فشل فى مفاوضاته مع الإنجليز . وقد وصف سعد هذه المفاوضات بأن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس ، وكثرت الاضطرابات. فعمد الإنجليز إلى العنف والعسف فألقوا القبض على سعد ورفاقه ونفوهم فى ١٩٢١ إلى سيشيل : واتبع الإنجليز سياستهم وهى الإغراء . فأعلنوا «استقلال» مصر فى ٢٨ فبراير من ١٩٢٢ بشروط أربعة هى حق الإنجليز فى :

١ — حماية المواصلات الإمبراطورية فى مصر .
٢ — الدفاع عن مصر ضد أى اعتداء أجنبى .
٣ — حماية الأجانب والأقليات .
٤ — بقاء السودان على مكان عليه .

وفى ١٩ أبريل من ١٩٢٣ اختارت الحكومة ثلاثين من الأشخاص البارزين فوضعوا الدستور المصرى . وكان سعد ورفاقه قد أعيدوا من المنفى وتولى هو أولى الوزارات الدستورية فى ١٩٢٤ .

وفى سنى الثورة هذه ، فى الوقت الذى كان يعمل فيه سعد ورفاقه ، ويهدم فيه خصومه ما يحاول أن يبنيه ، فى هذا الوقت كان الشعب يختمر ويبنى روحاً جديداً . فقد حفظت مبادئ ولسن وكان الطلبة والموظفون والتجار يتناقشون فيها ويجدون فيها إيحاء لمكافحة الإنجليز وتحقيق الاستقلال . وكانت المظاهرات من الطلبة والنسوة بل كانت الغزوات من الريفيين على السكك الحديدية وأسلاك التلغراف . كل هذا ، على ما وقع فيه من شطط ، كان يبعث النشاط فى الأمة .

وكان خروج النسوة فى المظاهرات ليس ثورة على الإنجليز وحدهم بل كان ثورة أيضاً على ألف سنة من ظلام الحجاب . فقد كن يخرجن

مقنعات بالبراقع البيض فى المظاهرات الأولى . ولكن لم تمض أشهر حتى كن قد خلعن البراقع . وتألفت منهن لجان فى الوفد .

ومن القصائد التى نظمها حافظ إبراهيم قصيدة فى وصف المظاهرات الأولى للسيدات المصريات فى ١٩١٩ . وكان الإنجليز لا يأنفون حتى من ضربهن كما كانوا يفعلون بمظاهرات الطلبة . قال حافظ :

خرج الغوانى يحتججـ ن ورحت أرقب جمعهنه
فإذا بهن تخـذن من سود الثياب شعارهنـه
فطلعن مثـل كواكب يسطعن فى وسط الدجنـه
وأخذن يجتزن الطريـ ق ودار «سعد» قصدهنه
يمشين فى كنف الوقا ر وقد أبن شعورهنـه
وإذا بجيش مقبـل والخيـل مطلقة الأعنه
وإذا الجنـود سيوفها قد صوّبت لنحورهنـه
وإذا المدافع والبنـا دق والصوارم والأسنـه
والخيـل والفرسان قد ضربت نطاقاً حولهنـه
والورد والريحـان فى ذاك النهار سـلاحهنه
فتطاحن الجيشان سـا عات تشيب لها الأجنـه
فتضعضع النسوان والنسـوان ليس لهن مُنّـه
ثم انهـزمن مشتتا ت الشمل نحو قصورهنه
فليهنأ الجيش الفخو ر بنصره وبكسرهنـه
فكأنما الألمـان قد لبسوا البراقع بينهنه
وأتوا بهـندنبرج مخ تفياً بمصر يقودهنـه
فلذاك خـافوا بأسهـن وأشفقوا من كيدهنه

وكنا فى تلك الأيام لا نستطيع السفر إلا بإذن من موظف إنجليزى

ولو كان الانتقال لا يتجاوز ما بين القاهرة وبنها . وأذكر أنى حين أردت الحصول على هذا الإذن دخلت على الموظف الإنجليزى فجابهنى بقوله : استكلال ؟ بلهجة التهكم .

وكان الأقباط يداً واحدة مع المسلمين ولم تنجح دسائس التفرقة . حتى كان الشبان المسلمون يخطبون من منابر الكنائس والشبان الأقباط يخطبون من منابر المساجد ، وقد عرفت بعد ذلك أنه كان فى الثورة العرابيــة فى ١٨٨٢ مثل هــذا الاتفاق أيضاً إذ كان يرافق عبد الله نديم خطيب الثورة قسيس ينهض بعده ويخطب فى الدعوة إلى الاتفاق بين العنصرين وحق الأمة فى الحكم النيابى التام .

وكان بديهاً أن يقتل بعض الإنجليز من الأبرياء فى مثل هــذا الاختلاط . لأن الإنجليزى ، أيا كانت شخصيته ، كان رمزاً للاستعمار . ولكن الإنجليز كانوا وحوشاً يهاجمون القرى ويصبون البنزين عليها ويحرقونها . وكانوا ، عقب تحطيم الترام ونزع قضبانه فى القاهرة ، يقبضون على الأفندية ويطرحونهم على الأرض ثم يجلدونهم . وبعد الجلد يجبرونهم على العمل فى ترميم القضبان المنزوعة . وحدث أن قطع الخط الحديدى للدلتا فيما بين الزقازيق وميت غمر . فقصد الجنود الإنجليز إلى مكان القطع واحتشد الفلاحون المساكين نساء ورجالا وأطفالا ، فى سذاجة ، فى ذلك المكان . والأغلب أنهم لم يشتركوا فى قطع هذا الخط . ولكن الإنجليز عند ما اقتربوا منهم صوبوا عليهم البنادق وقتلوا منهم عدداً كبيراً .

وكل هذا التقتيل فى المصريين نسيه الإنجليز وذكروا فقط العدد القليل من قتلاهم . فأنشأوا المحاكم العسكرية لمحاكمة المصريين الذين اتهموا بقتلهم ، وكانت هذه المحاكم تحكم بالإعدام .

وما زلت أذكر نادرة مضحكة وقعت لى فى تلك الأيام : فقد ركبت حماراً من الزقازيق أقصد إلى العزبة . وبينا أنا فى الطريق خرج إلىّ أحد الفلاحين من حقل قريب وأخبرنى أن الإنجليز يرممون الخط الحديدى على مسافة فهمت أنها تبلغ نحو كيلومتر . واقترح علىّ أن أختار طريقاً أخرى لأنهم ، إذا اجتزت بهم ، سيلقون القبض علىّ ويجبروننى على العمل معهم فى الخط الحديدى . وبينا هو يحدثنى خرج علىّ صبى وعرض علىّ أن أشترى منه جرو ذئب. فنفحته بقرش وأخذت الجرو ، وسرت فى بطء أفكر فى طريق أخرى أتجنب بها الإنجليز . ولكن الفلاح الذى أوهمنى أن بينى وبينهم نحو كيلومتر كان مخطئاً أو هو لم يحسن التعبير عن المسافة . لأنى وأنا لا أزال فى التفكير عن طريق أخرى خرج علىّ إنجليزى من خلف جميزة غليظة وهجم علىّ وجرنى فى عنف إلى الأرض وطلب منى العمل مع سائر من قبض عليهم . وكان الجرو لا يزال بيدى . فقلت له : هل لك أن تأخذ هذا الذئب وتخلى عنى ؟ فلم يصدق أنه ذئب . ولكنه بعد أن لوح بيده أمامه وكشر له الجرو عن أنيابه سلم بأنه ذئب وقبل الصفقة . بل زاد عليها أن حمل الجرو وأنا على الحمار وحرسنى من زملائه حتى اجتزت مكان الترميمات وسرت فى طريقى وأنا أتعجب من هذه المصادفة الحسنة وفضل هذا الجرو على .

وتبرز فى ذهنى ثلاثة أشياء من ثورة ١٩١٩ :

أولها الإكبار العظيم للموقف الوطنى الذى اتخذه الأقباط ورفضهم أية مساومة مع الإنجليز بشأن حماية الأقليات . فإن شباب المسلمين وكهولهم كانوا لا يزالون يذكرون موقف الحزب الوطنى وما كان يدعو إليه من الجامعة الإسلامية ونفور الأقباط من هذه الدعوة . ولذلك

كانوا يتشككون فى موقفهم فى ١٩١٩ . ولكن الأقباط كانوا على الدوام فى المقدمة . بل كان منهم كاهن هو القسيس سرجيوس الذى كان لا يبالى أن يقول ويكرر القول بأنه إذا كان استقلال المصريين يحتاج إلى التضحية بمليون قبطى فلا بأس من هذه التضحية . وعندما كانت لجنة الدستور تبحث قانون الانتخاب طلب توفيق دوس باشا أن تكفل حقوق الأقباط فى الانتخابات بالتعيين ، أى إذا لم ينتخب منهم العدد الذى يمثلهم فإن الحكومة تعين حينئذ عدداً من الأقباط حتى لا يكون هناك نقص فى التمثيل . فهببنا ، نحن الشبان فى ذلك الوقت ، نزيف هذا الرأى ونقول بالاكتفاء بالانتخاب .

والشىء الثانى الذى يبرز فى ذاكرتى من هذه الثورة هو وثبة المرأة المصرية من الأنثوية والبيت إلى الإنسانية والمجتمع . فقد مزق الحجاب وشرعنا جميعاً نعد المرأة المصرية إنساناً له حقوق الإنسان بعد أن كنا نتكلم عنها باعتبارها ربة البيت أو الزوجة أو غير ذلك من الصفات التى كنا نصف بها « المخدرات » . وقد زالت هذه الكلمة الآن من لغتنا .

أما الشىء الثالث فهو النهضة الاقتصادية التى أثمرت بجهود طلعت حرب وغيره ، بنك مصر وسائر توابعه من الشركات الأخرى . وبهذا البنك مسخت عن جباهنا الوصمة التى كان يعيرنا بها المستشار المالى برونيات بقوله إنه ليس بين المصريين من يعرف أعمال البورصة .

هذا فى شئوننا الداخلية . أما فى شئوننا الخارجية فإن ثورة ١٩١٩ علمتنا كيف ننظر إلى الدولة باعتبارنا أمة مستقلة لانجرى فى ذيل بريطانيا .

ولكن استطاع الإنجليز بعد ذلك أن يحطموا استقلالنا ويزيفوا دستورنا على يد زيور وإسماعيل صدقى وأمثالهما

ولكننا نحن رجال الذهن المتصلين بالعقل العام فى أوربا وأمريكا كنا نتطلع إلى آفاق أخرى . ومن الحسن أن يعرف القارئ الشاب بعض اختباراتنا ومشاهداتنا فى أعقاب الحرب الكبرى الأولى ويقارنها بما رأى هو وشاهد فى أعقاب الحرب الكبرى الثانية .

ففى ١٩١٩ كانت مبادئ ولسن مذهباً جديدا يشبه الدين المدنى الجديد للبشر على كافة الأرض . وكانت حماستنا لهذه المبادئ أحرّ من الحماسة التى تلقى بها العالم مبادئ روزفلت فى ميثاق الأطلنطى والحريات الأربع . وظنى أن من أكبر الأسباب لخمود الحماسة هنا هو ما لقيه العالم من التزييف والتعويق لمبادئ ولسن فى ١٩١٩ .

وقد حدثت ثورتان فى الحرب الكبرى الأولى . الأولى فى ١٩١٧ فى روسيا حين تسلم الشيوعيون الحكم وألغوا الامتلاك الشخصى للعقارات . وهاج الإمبراطوريون فى فرنسا وبريطانيا وبولونيا وإيطاليا وأنفذوا الجيوش إلى روسيا لقتل هؤلاء الشيوعيين . بل إنهم استخدموا الجيش الألمانى المقهور لهذه الغاية أيضاً .

ومما لا نزال نذكره أن أتلى وبيفن وهما من أعضاء الوزارة البريطانية الحاضرة (١٩٤٧) كانا يحرضان العمال على عصيان الحكومة فى شحن الذخائر والأسلحة إلى روسيا . ونجحا فى إيجاد إضراب فى الموانى الإنجليزية . وفشل تشرشل فى تهيئة حملته على روسيا لهذا الإضراب . وأحدثت الثورة الروسية دهشة عامة . وكان الإمبراطوريون ينشرون الدعاية ضدها بألوان مختلفة ، مثال ذلك أن الروس قد ألغوا الديانة والزواج . وإن هذا هو عاقبة الإلغاء للامتلاك الشخصى .

ولكن أهم من الثورة الروسية فى نظر الجمهور المصرى تلك الثورة التركية التى قام بها مصطفى كمال حين ألغى عرش السلاطين كما قطع

علاقة تركيا بالشرق . ذلك أننا منذ ١٨٨٢ كنا نتطلع إلى تركيا باعتبارها « دولة الخلافة » وكنا نأنس إلى خيال لم يتحقق قط هو أنها يجب أن تحمينا وأن ندخل فى حظيرتها ونكون معها سلطنة عثمانية كبرى . فلما جاء مصطفى كمال يهدم الأسس ويوجه الأتراك نحو الغرب بدلا من الشرق ويلغى الخط العربى ويستبدل به الخط اللاتينى ويفصل الدين من الدولة وينفض العرب والعربية عن تركيا الجديدة ، لما أحدث مصطفى كمال هذه الأحداث تنبه التقليديون فى مصر إلى احتمالات سياسية أخرى وانحازوا إلى الاستقلال المصرى باعتبار أنه كل شىء فى أهدافنا السياسية . وفرق عظيم بين هذه العقلية الجديدة وبين العقلية القديمة التى كان يتّسم بها الشيخ على يوسف فى « المؤيد » حين دعا حوالى ١٩٠٧ إلى أن ترسل مصر مبعوثيها أى نوابها إلى مجلس المبعوثان فى الأستانة . بل كانت هذه عقلية مصطفى كامل أيضاً . أى إنهما كانا يفسران الاستقلال المصرى بأنه الانضواء إلى الراية العثمانية .

وبالطبع كان الاختلاف كبيراً بين الجمهور المصرى بشأن ثورة لنين وثورة مصطفى كمال . ولكن الشعور العام إزاء هاتين الثورتين أن العالم القديم يحطم الأغلال وينطلق فى حرية جديدة . ولا عبرة بأنه فى انطلاقه هذا يتعثر ويكبو ، لأنه سوف ينهض ويستقر .

وقد بعثت فينا هاتان الثورتان تفاؤلا عظيما كما بعثتا تشاؤماً عظيما أيضاً عند المستعمرين الإنجليز . ومن هذا التفاؤل أنى أنا وبعض الإخوان ألفنا حزباً اشتراكياً فى ١٩٢٠ حاربتنا الحكومة بشأنه حتى قتلته .

أما حال ألمانيا فكانت شنيعة ، فإنه عقب الهدنة منع الإنجليز وصول الأقوات إليها أحد عشر شهراً حتى قيل إن جميع الأطفال هناك أصيبوا بالكساح . ثم هبت ثورة سبارتكوس لتحقيق الشيوعية فى يناير من ١٩١٩ . ولكن فشلها كان عاجلا وخاصة بعد قتل الزعيمين كارل ليبنخت وروزا لكسمبرج . ثم جاء بعد ذلك انهيار المارك الألمانى . وقد خسر فيه آلاف من المغامرين المضاربين فى مصر وغيرها حين أنزله الألمان إلى الصفر وأخرجوا نقداً جديداً . فكنا نرى فى مصر كيساً من الأوراق يحمله أحد هؤلاء المغامرين ويقول إنه كلفه ألفا أو خمسمئة جنيه وهو الآن لا يساوى مليما .

وقد جاءت هذه الأحداث عقب الحرب الكبرى الأولى فى تواتر فكانت مجالا للتأمل والتفكير والحديث : مبادئ ولسن ، الثورة الروسية ، الثورة المصرية ، الثورة الألمانية ، ثورة مصطفى كمال .

ولكن كل هذه الأحداث لم تكن شيئاً فى جنب القنبلة الذرية فى أغسطس من سنة ١٩٤٥ . لأن هذه القنبلة تلقى من الآن ضوءاً أو ظلا على مستقبل البشر بعد ألف بل آلاف السنين .

زوجة واطفال

لم أكن طوال عزوبتى أفكر فى الزواج . ولكن كانت أمى تلح على كما هو الشأن فى جميع الأمهات . وكنت من وقت لآخر أستمع لندائها وأزور هذا البيت أو ذاك ، حتى إذا أوشكت أن أجد الفرصة وأن كل شيء مهيأ لإتمام الزواج ، كنت أفزع وأفر بالسفر أو أتمحل الأعذار الكاذبة . وماتت أمى فى ١٩١٦ وكنت فى الثامنة أو التاسعة والعشرين فلم أعد أجد الحافز إلى التفكير فى الزواج . وبقيت على ذلك إلى ١٩٢٣ .

وليس شك أنه كان للصدمة التى لقيتها أيام حبى لتلك الفتاة الأرلندية ، وأنا فى انجلترا ، أثر فى كامنتى لكراهتى أو تجنبى للزواج . فلم يكن يقترح على أحد الزواج بعد هذه الصدمة إلا وأتنهد فى حسرة وأسف . ثم أصد فى جمود وعزوف ، ولكن فى ١٩٢٣ زرت مع صديق لى بيتاً لبعض أصدقائه ، فوجدت هناك فتاة قد أينع شبابها . وكانت لا تزال بالمدرسة وقد قعدت إلى مكتبها وهى مشغولة بالكراسة والكتاب والقلم . وتحدثت إليها قليلا عن مشاغلها المدرسية . ونهضت وودعت وفى نفسى هواجس . وفى اليوم التالى وفى نفس الميعاد حملت صديقى على معاودة الزيارة . وأدرك هو مأربى واستجاب لرغبتى فى سرور .

وبقيت معها فى هذه الزيارة الثانية أكثر من ساعتين . ثم تجرأت بعد ذلك على أن أزورها وحدى وتجرأ والداها على أن يتركانا معاً . وبقيت خطبتنا نحو خمسة أشهر لم أنقطع عن زيارتها يوماً واحداً . وأيام

الخطبة تعد من أسعد الأيام لأن الخطيبين يحسان أنهما فى مؤامرة سرية يرتكبان فيها المخالفات للعرف والقواعد الاجتماعية . وفى الخطبة نحوم ولا نَرِدُ . ونحسو ولا نَعُبّ . فيزيدنا هذا شوقا من يوم إلى يوم . وقد تعلمنا طرقاً فى التخلص من أحد الوالدين أو أحد الإخوة وكنا نجد لذة عظمى فى ممارسة هذه الطرق وخاصة حين كان أحدنا يلفق خبراً يؤدى إلى جلاء هذا القاعد الذى لا يريد أن يفهم أننا نرجو خلوة .

وعقب الزواج وجدت صعوبتين أولاهما أنى أحترف الأدب والصحافة وأتعلق بالقراءة وهوايتى هى الثقافة . والزوجة تعد الإنفاق على الكتب إسرافاً . ثم هى أيضاً لا تطيق رؤية زوجها وهو غارق فى كتابه طوال الوقت أو معظمه فى البيت . وخاصة إذا كانت هى لم تتعود إدمان القراءة . والصعوبة الثانية هى التفاوت العظيم بين مستويينا الثقافيين . فإن الإنجليز كانوا قد حرموا التعليم الثانوى ، ولم يكن فى القطر المصرى كله مدرسة ثانوية للبنات تديرها وزارة المعارف إلى سنة ١٩٢٥ ، وكانت زوجتى قد تعلمت فى مدرسة فرنسية من تلك المدارس التى تديرها الراهبات ويتجه فيها معظم العناية إلى التعليم الدينى . ولذلك وجدت أنه للتغلب على هاتين الصعوبتين أن أشرع فى تعليمها من جديد . فصرت أشركها فيما أكتب وأناقشها فى جميع الموضوعات الثقافية التى أهتم بها . وبدهى أن كل زوجة تهتم بحرفة زوجها . ولما كانت حرفتى هى الصحافة والأدب والعلم فإنها اضطرت إلى تتبع نشاطى حتى ارتفعت على مستواها السابق كثيراً .

وبهذا صح الوفاق بيننا بل أكثر من ذلك إذ هى قد أصبحت صديقتى كما هى زوجتى . وظنى أن خير طريق إلى الصداقة الضرورية بين الزوجين فى مصر أن يرفع الزوج زوجته إلى مستواه الثقافى .

إذ هو حين يقصر فى ذلك يجد أن التفاهم معدوم أو ملتبس . فلا يكون الحديث بينهما إلا فى الشئون التافهة ويعودان وكل منهما يعيش فى عالم منفصل من العالم الذى يعيش فيه الآخر . والصداقة التامة تحتاج إلى التكافؤ الثقافى بينهما أو ما يقاربها .

ومن عجب أنى ، مع الدكتور كامل لبيب ، ألفت كتاباً عن ضبط التناسل أنصح فيه بمنع الحمل إلا عن وجدان ودراية بما يتفق ومصلحة الوالدين والأطفال . ولكنى مع ذلك أجد عندى ثمانية من الأولاد حتى يصح أن أواجه بالبيت القائل فى أحد شطريه :

هلا لنفسك كان ذا التعليم ؟

ولكن هناك ظروفاً جعلت المخالفة للكتاب الذى ألفته قهرية . فإن الأطفال الأربعة الأولين كانوا إناثاً . فكان الشوق إلى ولد ذكر حتى أنجبناه . أما من زادوا فكان سبب وجودهم نقصاً صيدلياً فى منع الحمل . وللرأى العام فى إيثار الذكور على الإناث قوة تجعل أم البنات تحس كأنها موصومة وتشتاق صوناً لكرامتها إلى أن تلد ذكراً . وهذه « غريزة » اجتماعية عامة . وقد عاش أولادنا جميعاً ولم يمرض أحد . وأنا أعزو هذا إلى أننا تعودنا من سنين أن نشرب اللبن نيئاً لا يوضع على النار بتاتاً ، ولم يحدث قط أن احتجنا إلى أن نغير هذه العادة . وقد وجدت من نحو عام مقالا لأحد الإنجليز يدعو فيه إلى تناول اللبن نيئاً ويقول بأن غليه على النار يفقده كل ميزاته تقريباً .

والأولاد فى البيت ، حين يرفرفون ويغردون يملأون الجو حياة بل يزيدون الحياة حيوية . وليس شىء أجمل وألذ من رؤية الذكاء ينبجس فى الطفل وهو فى سنيه الأولى حين يسأل ويستطلع . والأطفال أحياناً عذاب جهنمى عقيب الغداء أو وقت القراءة أو الكتابة . ولكنه

عذاب حلو سرعان ما ننسى آلامه . فإن الابتسامة التى تشرق على وجه الطفل تضىء الجو وتقشع كل ما تكاثف فيه من غيوم . والآنسة الصغيرة التى اشترت فستاناً جديداً تسير به فى خيلاء وطرب كأنها فى عيد تملأنا سروراً وبهجة . ومنذ أن شببت عن الطفولة ، كانت تمر بى الأعياد فلا أعرفها إلا من الجرائد أو الأصدقاء إلى أن امتلأ البيت بالأولاد فعادت الأعياد مهرجانات . فيكون منها صداع قبل ميعادها بشهر ، ونحن فى مساومات بشأن البذلة الجديدة والحذاء الجديد والفستان الجديد ، حتى إذا كان يوم العيد زهى البيت بالأحمر والأخضر وامتلأت أرضه بقشور النقل وضج هواؤه بالصواريخ وتجاوبت جدرانه بصيحات الحماسة والسرور .

ولكن الأولاد مع كل هذه المسرات يحملون الآباء على النكوص بدلا من الإقدام وعلى البخل بدلا من السخاء . وقد يقال إنهم يزيدون مسئوليات الآباء ويجعلونهم اجتماعيين بعيدين عن الشذوذ أو الانحراف الأخلاقى أو الاجتماعى . وهذا القول صحيح ولكنه يحمل فى طياته أيضاً معنى الجبن والخوف من الاقتحام . لأن الأب يفكر كثيراً ويقلق كثيراً بشأن المستقبل ، مستقبل أولاده ، وليس مستقبله . وهذا التفكير أو القلق يحيله من حيوان حر جرىء ينطلق فى مفاوز الحياة ويقتحم غاباتها إلى حيوان مدجن كأنه دجاجة لا ينشد غير السلامة . ولذلك من الشاق وكل المشقة ، أن ينشد المجد ، الذى يحتاج إلى أن نرقى إليه السموات ، رجل متزوج له أولاد .

وحين نحترف الأدب نحتاج إلى شجاعة قد تحملنا على ألا نبالى الرأى العام وعلى أن نجحد التقاليد ونخرج على السنن . لأن الأديب الحق يجد أنه محتاج فى بعض الأوقات إلى أن يغير القيم والأوزان

الاجتماعية والأخلاقية وأن يجهر بما يجبن غيره عن الجهر به . ولكنه حين تحدثه نفسه بذلك ، يجد نداء العائلة أى الزوجة والأولاد صارخاً فى وجدانه : قف ؛ ألا تتذكر ابنتك هذه التى ستتزوج بعد عام أو عامين ؟ فينكص فى جبن وذلة . وصوت الزوجة هنا هو صوت الضمير الاجتماعى الكامن . والزوجة فى البيت تمثل المجتمع بعاداته وعرفه وشعائره فإذا ثار الزوج وحاول أن ينفصل ويطير ويحلق غير آبه للمجتمع جرته هى إلى الأرض .

ولهذا السبب آثر كثيرون من المفكرين والأدباء العزوبة على الزواج . بل أحياناً وقفوا فيما يشبه منتصف الطريق بين العزوبة والزواج . كما فعل هافلوك أليس . فإنه تزوج ، ولكن ، بالاتفاق مع زوجته ، عاش كل منهما مستقلا فى منزله الخاص . كما أنهما امتنعا عن التناسل . وقد قرأت سيرتيهما كما كتبها كل منهما وكما كتبها ثالث اتصل بهما فوجدت أنهما نجحا فى تحقيق الحرية التى ابتغياها . وعاش كل منهما فى استقلال فكرى وفنى وفلسفى . وهذا الانفصال بينهما فى العيش زاد رباط الحب والصداقة قوة بينهما . حتى لقد روى عنهما أن شخصاً لا يعرفهما رآهما فى القطار معاً . فظن أنهما خطيبان . وذلك لما رأى من سلوكهما الغرامى ووفرة الكلمات والإيماءات التى كانت تدل على شوق مفرط وحب عميق . مع أنهما كانا قد مضت على زواجهما السنين . ولكن يجب أن أقول إنى أحسست عقب قراءة سيرتيهما أن الزوج استمتع بالاستقلال والعزلة . ولكن الزوجة تألمت منهما كثيراً حتى إنها وقعت أو أوشكت أن تقع فى هاوية الشذوذ الجنسى مرة وفى هاوية الانتحار مرة أخرى . ولكن قد يعترض هنا بأن المركز الاجتماعى للمرأة فى الحضارة القائمة لا يتيح لها الاستمتاع باستقلالها .

لأنه أى هذا الاستقلال كثيراً ما يكون غرماً لها بدلا من أن يكون غنما . إذ هى محرومة من كثير من الفرص التى تكسب الرجل كرامته الاقتصادية والاجتماعية . وأنا أسلم بكثير من هذه الحجة . ولكنى أكتب فى حدود الحضارة القائمة .

وشخصية الأديب الصميم هى ،سيكلوجياً ، شخصية سيكوباثية ، أى إنه والمجرم سواء . ولكن الفرق بينهما أن المجرم ينحرف إلى أسفل المجتمع . والأديب ينحرف إلى أعلى . كلاهما متقلقل متأفف نازع إلى الشذوذ لا يرضى بأوزان المجتمع وقيمه . وكلاهما مكروه من الرجل العادى . وكما أن العائلة من العوامل الكبرى التى تحول دون الإجرام كذلك هى أيضاً من العوامل الكبرى التى تحول دون الأدب أو تعوق رسالته . أو بكلمة أخرى ، تعمل العائلة للاعتدال وتحول دون الشطط ، الإجرامى والعبقرى معاً .

وكل ارتباط هو ، فى معنى ما ، تقيد . فإن الارتباط ، بالمذهب أو بالحزب السياسى ، يقيد الأديب ويحدّ من حريته ومن هنا دعوة ألدوس هوكسلى الأديب الإنجليزى وأندريه جيد الأديب الفرنسى إلى « الانفصال » أى يجب أن ينفصل الأديب من الأحزاب والمذاهب ويستقل فى فنه وتفكيره . والحق أن لهذا القول وجهاً بل وجوهاً من الصواب . وخاصة فى عصرنا هذا حيث نرى الأحزاب تستخدم الأديب لتأدية أغراضها بل أحياناً أغراضها السافلة . ولكن عصرنا هذا أيضاً يتسم بصراع روحى بين الحق والباطل . والأديب الذى تنفذ بصيرته إلى صميم هذا الصراع ويقف على البينات والمعارف إنما يكفر بحرفته وفنه إذا هو نكص عن الدفاع عن الحق . وإذن ليس هناك مجال فى عصرنا لهذا الاستقلال المزعوم . فللأديب المخلص

حزب كما أن له عائلة وهو يرضى بشيء من القيود يتقيد بها فنه كي يبقى متصلا بالمجتمع يدرس ، عن اختبار ، مشكلاته ويجعلها أساس الفن ومحور الحرفة .

وقيود العائلة مع ذلك لها ما يقابلها من الميزات بما تهيئ للأديب من نظام في المعيشة لا يحصل على مثله الأعزب الذي يتعود عادات التسكع . ثم إذا كانت مسئولية الأطفال تؤخر أو تنقص من الشجاعة والحرية فإنها أيضاً تزيد الإحساس الاجتماعي وتصل بين الأديب وبين المجتمع بروابط قوية تجعـله على قدرة لخدمته . والإنسان يتربى بعائلته ويزداد بها فهما للطبيعة البشرية . فالأولاد يربون الآباء كما يربي الآباء الأولاد . لأننا ونحن نربي أولادنا نبصر بالطبيعة البشرية في سذاجتها واستطلاعها وتمردها . وكل بيت هو لذلك معهد للتجارب البشرية . وهذا المعهد يخرّج العبيد ، كما يخرّج الأحرار ، والمجرمين والعبقريين .

ولكني إذا كنت قد وجدت من العائلة قيوداً من الحرير فإني وجدت من الحكومة المصرية ، بإيعاز الإنجليز وتسلطهم ، أغلالا من الحديد . فهي التي منعتني خمسة عشر عاماً من أن أكتب حرفاً إلا بعد أن يقرأه رقيب حتى ولو كان في اللغة أوالتاريخ أو السيكلوجية . وهي التي حرمتني ، إلا في فترات من حياتي ، من احتراف الصحافة التي أهواها .

شخصية عرفتها

حوالى ١٩١٥ كنت بالإسكندرية مع « الصحفى العجوز » توفيق حبيب . وبينا نحن نتنزه على الكورنيش إذ قابلنا أحد الشبان وسلم فى ألفة على المرحوم توفيق . وتعارفنا . فإذا به طبيب قد عاد من باريس وشرع يعمل ولكن فى غير نشاط ولذلك فهو فى قلة من الكسب .

وقص على توفيق قصته . فقال إنه من أسرة عريقة فى الصعيد وأنه ورث ثروة كانت تغل له نحو خمسين جنيهاً فى الشهر . ولكنه بددها فى باريس لأنه آثر أن يعيش باذخاً فى مدينة النور والجمال ؛ وعاد من باريس وهو لا يملك غير مهنته التى مضى عليه وهو يمارسها بالإسكندرية نحو ثلاث سنوات .

وفى اليوم التالى تقابلنا ووجدنا فسحة من الوقت تحدثنا فيها فوجدت فيه اطلاعاً واسعاً وخاصة فى البيولوجية ، والتطور ، والنظريات الاجتماعية . كما وجدت فيه حرية فكرية لم أكن فى تلك السنين أجد لها مكاناً فى مصر ، ولذلك ائتنس كل منا بالآخر . فصرنا نعين المواعيد صباحاً ومساء نلتقى ونتنزه ونتحدث .

واتصلت معرفتى به بعد ذلك . فكنت أكتب إليه من القاهرة . وكان إذا زار العاصمة قضى كل وقته معى . وكان يعجبنى منه ، خاصة ، صراحة تكاد تكون طفلية إلى ولاء للبشرية يتجاوز الوطنية ، وإلى حب وتقدير للحرية والثقافة الحرة . وكان يكتب ، كما أكتب أنا

أيضاً ، فى الجرائد والمجلات باسمه أو باسم مستعار عن شئون علمية أو إنسانية .

فلما كانت السنين الأخيرة للحرب الكبرى الأولى انقطعت عنى أخباره ، فظننت أن مرجع ذلك إلى وفرة عمله ، ولم أبال كثيراً ، وقلت فى نفسى إذا ذهبت إلى الإسكندرية فإنى لابد واجده .

وذات يوم مشئوم من سنة ١٩٢٠ كنت فى الترام بالقاهرة . فرأيت شخصاً زرياً رث الملابس مشعث الشعر يواجهنى فى آخر العربة ويسلم على . فلم أرد السلام لأنى ظننت أنه لابد قد قصد غيرى . فتلفت حولى كى أجد أحداً آخر يرد عليه السلام فلم أجد . فعدت أحدق فيه ، وعاد هو يسلم على . وفى لحظة شعرت كأن قلبى قد استحال إلى كرة ثقيلة وأنه يسقط فى جوفى . فقد فزعت وارتعت ، أجل هو صديقى الطبيب . صديقى الحميم الذى أحببته وأحبنى ، صديقى الذى كنت أقعد معه وأنظر إلى عينيه فأكاد أعرف كل ما فى ثنايا عقله من أفكار وأوهام وآمال . ونهضت إليه . وتكلمت وسألت وأنا فى لهفة عما حدث له . وعرفت شر ما يُعرف .

ونزلنا من الترام وقعدنا فى قهوة قريبة . وقص على قصته بل مأساته وهى أنه وقع ضحية للكوكئين ... وأنه قد مضى عليه أعوام وهو يتناول هذا السم وأنه لم يعد يطيق تركه . وما أعجب ما تغيرنا الملابس ! فإن هذا الطبيب الحبيب لم يتغير شىء فى وجهه إذا استثنيت شحوباً وهزالا . فملامحه الحلوة ونغمة صوته وبريق عينيه بل إيماءة يده ، كل هـذا كان كما عرفته منـذ خمس سنوات .

ولكن ما قيمة كل هذا إلى جانب اللحية التى لم تحلق منذ عشرة

أيام ؟ وما قيمته إلى جانب القميص الأبيض الذى فقد بياضه وحمل من العرق والتراب ما يدل على أنه بقى على جسمه أكثر من شهرين ؟ وما قيمته إلى جانب الصدر الذى بان عنه القميص فبرزت عظامه ، وإلى جنب البنطلون الذى تمزق من خلفه الأعلى . . .

كنت إزاء شخصية هذا الصديق وأنا أحس أن الكوكئين قد فصل بيننا . كأننا من كوكبين مختلفين . فقد مضت عليه مدة طويلة انقطع فيها عن عمله وعن قراءة الصحف وعن الاختلاط بعائلته التى قاطعته . ومع أنى كنت أعرف أن المدمن لهذا السم يحتاج إلى معالجة طويلة فإن أسفى عليه حملنى على أن أطلب منه أن يكف ويقلع . ولكن إجابته لهذا الطلب ردت إلى وجدانى وجعلتنى أدرك أننى إزاء مريض له منطق آخر . ولم نعد نتحدث عن العلم أو السياسة أو الأدب ، لأن كل همه منى كان الحصول على ريال يشترى به جرعاً أخرى . وأخرجت له كل مافى جيبى وأنا واثق أنه سينفقه فى هذا الشر .

وبهذه المقابلة « تجددت » صداقتى له . ولكنها كانت صداقة من نوع آخر . إذ كان همه الوحيد أن يحصل منى على الريال وكنت حين ألقاه أسلمه المبلغ وأنا أتوقى ألا يرانى أحد لأن رثاثته كانت ازدياد حتى لقيته ذات مرة بلا حذاء . . .

وفى إحدى المرات لقيته وكان لا يكاد يستر جسمه إلا بخرق مهلهلة . فقدته إلى بيتى . وهنالك سلمته بذلة كاملة ومعها الملابس الداخلية . ومع أنى أقصر منه فإن البذلة كانت على كل حال حسنة لائقة .

وقابلته بعد ذلك . ولشد ما كانت دهشتى إذ وجدته لا يزال فى الخرق المهلهلة القديمة . وعرفت أنه باع بذلتى . . .

وساءت الحال حتى صرت أتجنبه ولكنى لم أفقد العطف والأسف

عليه . وذات مرة كنت جالساً فى قهوة مع بعض المعارف ، ورأيته وهو يدخل من الباب فأدرت وجهى كى لا يرانى . ولكنه لمحنى ، ومر علينا وسلم على فتعاميت خجلا ممن كانوا معى . وخرج هو وظننت أن كل شىء قد انتهى وأنه فهم أنى لم ألحظه وهو يمر بمائدتنا :

ولكن لما انتهت قعدتنا وخرجت سرت قليلا ولم أبعد . فوجدت صوتاً خلفى يلعن ويسب ... فالتفت ورائى فوجدت صديقى الطبيب الذى أخذ يعتب على بكلمات الهاوية التى تردى فيها لأنى تعاميت عنه فى القهوة وهو يسلم على . فأوضحت له موقفى . وسلمته الريال الذى أعاد إليه الصفاء .

واشتغلت بعد ذلك فى تحرير مجلة «الهلال» . وكان يزورنى من وقت لآخر . وفى ذات مرة جاءنى وهو فى اتزان لم أعهده فيه . وكان ذلك بعد غيبة استغرقت سنوات كدت أنساه فيها . فلما سألت عرفت أنه قد شفى من الكوكئين .

وكان شفاؤه بمصادفة عجيبة بل بمأساة . ذلك أنه أحس ذات يوم ألماً موجعاً فى بطنه يرافقه قىء . فلما قصد إلى الطبيب أخبره أنه فى حاجة عاجلة إلى عملية لإخراج الزائدة الدودية التى التهبت . ولم تمض عليه ساعة حتى كان قد أجريت له العملية فى نجاح وهو غارق فى غيبوبة الكلوروفورم . والمعروف أننا لا نحس ألمين معاً . بل نحس الألم الشديد الذى ينسينا الألم الخفيف . ولذلك أنساه تعب العملية وتخدير الكلوروفورم آلام الحرمان من الكوكئين . ونهض من فراش المرض بعد ١٥ يوماً وهو برىء من الإثنين ؛ التهاب الأمعاء من الزائدة الدودية والتهاب المخ من الحرمان من الكوكئين .

وفرحت بهذا الانقلاب . وإن كان الاتزان الجديد لم يثبت . فقد

كان يتفزز من وقت لآخر ولا يكاد يطيق الجلوس على الكرسي أكثر من دقائق . ولكن صحته عادت إليه فعاد الدم يجرى فى وجنتيه .

وهنا انقدح فى ذهنى خاطر . قلت له يا دكتور ألا ترغب فى خمسة جنيهات كاملة . فأشرق وجهه وسأل فى لهفة : «كيف ذلك ؟»

قلت : « أكتب لنا مقالا فى «الهلال» عن الهاوية كيف ترديت فيها وكيف نجوت منها وابدأ الآن إذا شئت . وهاك جنيهاً » .

فوقف فى احترام أو حماسة يتسلم الجنيه الذى مضى عليه بضع سنوات لم يلامس مثله كفه . وسلمته الورق والقلم . وشرع يكتب : ولكن أنا وهو كنا واهمين . فإن اتزانه الذى لمحته فيه لم يكن يكفى للكتابة . لأنه ما كاد يكتب خمسة سطور حتى مزق الورقة : ثم مزق أخرى وأخرى . وأخيراً تركنى على وعد أن يعود ويكتب ما طلبته منه . وقضى نحو ثلاثة أشهر وهو يكتب هذا المقال الذى لم يزد على خمس أو ست صفحات .

ونشرنا المقال فى « الهلال » . وكان مأساة . وقرأته السيدة الكريمة مدام فهمى ويصا . فاشترت نحو خمسمائة نسخة وزعتها على أعضاء البرلمان . وكان من أثر هذا المقال أن سن قانون جديد لمعاقبة المتجرين والمتعاطين للكوكئين .

وانتعشت رويداً صداقتنا القديمة بانتعاش صحته النفسية والجسمية فصرنا نتواعد ونقعد معاً على القهوة أو فى ناد . وعاد يحترف صناعته ويجد فيها شيئاً من الكسب الذى يكفى للوقار فى الملبس والمطعم . وهو لا يزال حياً إلى الآن أقعد إليه فأجد النور القديم فى عينيه كما أجد أثر العاصفة التى مرت به ولكن مع الإنسانية والتفكير المنظم ، وقد بلغ الخامسة والستين . وظنى أنه سيعيش كثيراً وسيذكر هذا

الكابوس الذى جثم على عقله وأظلمه نحو خمس أو ست سنوات . ولكن ما أضيع هذه السنوات ...

والآن بعد نحو ربع قرن من هذا الحادث المؤلم أعود بذاكرتى إلى تلك الأيام وأتعجب وأسائل : كيف كان الكوكئين يباع فى كل مكان ويشتريه الجمهور بالقرش والجنيه ولا يجد أى إنسان صعوبة فى الحصول عليه ثم مع ذلك كان بوليس القاهرة يعجز عن ضبط المتجرين به ؟

أذكر أنى كنت قاعداً مع بعض الإخوان ذات مساء فى قهوة بباب الحديد . وشرع أحدهم يتشمم هذا المسحوق الأبيض . فدفعنى الاستطلاع إلى أن آخــذ قليلا منه وأستنشقه . فأحسست انتعاشاً أو « يوفوريا » . ولم أحس أى تخدر . ولما آويت إلى الفراش لم أحس أى ميل إلى النوم . فشرعت أقرأ ولا أدرى متى نمت . ولكن استيقظت فى الصباح فى الساعة العاشرة فعرفت أن الكوكئين قد أرّقنى ، أى نبهنى ، إلى الساعة الثالثة أو الرابعة من الصباح . وتأخرى فى الاستيقاظ هو وحده الذى أذكرنى أنى تناولت قليلا من ذلك السم فى المساء السابق .

كفاحي الثقافي

واختباراتي الصحفية

الثقافة إما أن تكون راكدة وإما مكافحة . وهي تركد حين تعالج موضوعات لا تثير المناقشة . وقد يرجع هذا إلى أن المجتمع نفسه مستقر يعيش فى بيئة زراعية مثلا ، أو أن حق الحكم منفصل منه حين يتولى شئونه مستعمرون مثلا . وقد بقينا نحن على هذه الحال نحو أربعين سنة فيما بين ١٨٨٢ و ١٩٢٢ كان مجتمعنا فيها منفصلا من الإدارة الحكومية إلى أن تقررت لنا حقوق بالدستور . وكان المتولون من الإنجليز ، الذين لا تجدى المناقشة الصحفية معهم ، عن موضوع تعليمى أو صحى أو اقتصادى . وأذكر أن المرحوم عوض واصف حين أنشأ مجلة « المحيط » فى ١٩٠٣ قال فى العدد الأول إن مجلته ستعالج الشؤون السياسية والحكومية . فردت عليه « المقتطف » بأنه ليست هنالك جدوى ؛ لأن المتولين لهذه الشئون إنجليز لا يقرأون العربية .

ولكن مجتمعنا أثار المناقشة وجعل الثقافة الدينية ، عن طريق محمد عبده ، ثم الثقافة الاجتماعية ، عن طريق قاسم أمين ، موضوعاً للمناقشة الحية . وكانت حالنا فى تلك السنين أشبه بحال روسيا أيام القيصر ؛ فقد كان المفكرون الروس ممنوعين من نقد السياسة ، فاتجهوا إلى الأدب . وكان علينا فى مصر حظر عام بشأن السياسة وانتقاد الحكومة ، فاتجه النقد نحو المجتمع .

وفى أيامى الأولى ، فى بداية وجدانى الأدبى ، وجدت مجلات

المقتطف » و « الهلال » و « الجامعة » ، من المحركات الذهنية ، بل أكسبتني هذه المجلات توجيهاً تجديدياً فى العلم والأدب . وكنت قانعاً بهذه الثقافة . ولولا حادثة دنشواى لما التفت إلى السياسة أدرس أصولها وأعنى بتفاصيلها فى السنين العشر الأولى من هذا القرن .

وكانت نظرية التطور التى فهمت مغزاها من «المقتطف» البذرة الخصبة فى ثقافتى . فقد أكسبتنى معرفة وأسلوباً ، وعينت لى أصدقائى وخصومى من المؤلفين والمفكرين . وغرست فى نفسى مزاج الكفاح لأنها تصدت للعقائد والتقاليد . وقد تشعع الكفاح من هذه البؤرة إلى موضوعات أخرى . ولذلك لم أسعد قط بالبرج العاجى . كما أن مغزاها الخطير فى التفكير العلمى والاجتماعى جعلنى دائم الشك كبير الاستطلاع والمساءلة . وتغيرت الأوزان والقيم عندى ، وأخذت بقيم وأوزان جديدة ترى على فجاجتها فى «مقدمة السبرمان» التى ألفتها وسنى نحو ١٩ سنة

ففى هذه الرسالة أجدنى أقول بالاشتراكية واليوجنية والتطور وتنظيم الدولة والمجتمع الأشتراكى لإيجاد السبرمان أى الإنسان الأعلى الذى نكون نحن منه بمكان الغوريلا أو الشمبنزى منا . وقد كان التفكير عندى فى هذه الشئون أقرب الأشياء إلى مايمكن وصفه بأنه «غيبيات» عملية ، أخذت مكان الغيبيات الدينية وقتئذ . وفى السنة التى ألفت فيها هذه الرسالة (١٩٠٩) نشرت مقالا فى « المقتطف » بعنوان « نيتشه وابن الإنسان » وفى « الهلال » مقالا عن الاشتراكية التى أسميتها وقتئذ « الاجتماعية » ؛ وهذا الاسم الثانى أقرب إلى الكلمة الأوربية من كلمتنا الشائعة الآن « الاشتراكية » . وألفت رسالة فى هذه الموضوعات بعثت بها إلى مطبعة المقتطف كى تطبع . فردتها إلى المطبعة مع نحو ثمانى صفحات مجموعة ، وكنت فى لندن ، واعتذرت

عن التوقف عن الطبع لأن القانون فى مصر يعاقب على نشر هذه الآراء ونزلت عن أجر الطبع للصفحات الثمان .

وقد كان هربرت سبنسر يقول إنه يستطيع أن يعرف المستوى الذهنى لأى إنسان بعد مدة قصيرة من التحدث معه . وهو يعنى بهذا أن لكل منا كلمات أو عبارات محورية تتكرر أو يلتفت إليها الذهن كثيراً وهى تدل على اهتمامات المتكلم أى تدل على ثقافته مادة واتجاهاً : وحين أرجع إلى نفسى أبحث عن الكلمات التى تتكرر فى مؤلفاتى ومقالاتى أجد أن أكثرها تكراراً : التطور ، العالمية ، حرية المرأة ، العلوم ، الحضارة الصناعية ، الرجعية ، المستقبل أى إنها كلمات تدعو إلى تغييرنا .

وأجد أن تفكيرى فى السياسة والثقافة كان على الدوام يسارياً ، وفى الأغلب ارتيادياً . ومما يلاحظ أن جميع الكتاب فى مصر بدأوا حياتهم الأدبية مذهبيين ارتياديين ، ثم انتهى كثير منهم إلى ملاذ التقاليد يدعون إلى الفعل الماضى بدلا من اقتحام المستقبل . كما أنى أجد أن لى استغراضاً ديمقراطياً فى جميع ما أكتب يحملنى على مكافحة الظلمات الذى لا تزال حية فى الشرق العربى : فى الاجتماع والاقتصاد والعقيدة . ولكن لم يتغير موقفى من حيث إنى كاتب مذهبى يسارى أكافح الرجعيين الذين يجدون الحكمة خلفنا لا أمامنا ، كما أكافح أيضاً الاقطاعيين الذين يعارضون الاتجاهات الديمقراطية فى الأمم العربية . وليس شك أن لوضعى الاقتصادى الاجتماعى من حيث أنى من الأقلية المسيحية أثراً فى اتجاهى الثقافى اليسارى . فإن اليهود وهم أقلية فى أوربا كانوا ولا يزالون يحملون علم الثقافة اليسارية فى السياسة والاجتماع والاقتصاد .

وقد كانت حياتي الصحفية فى مصر ثقافية إلى أبعد حد . فقد أخرجت « المستقبل » فى ١٩١٤ وجعلته للكفاح الفكرى ، ولم ألتفت فيه إلى السياسة ، وأخرجت منه ١٦ عدداً . وكان شبلى شميل من محرريه ومؤيديه . ثم اشتغلت بالهلال ثم بالبلاغ . وفى هذه الجريدة الأخيرة اشتبكت بالسياسة . ولكن همي الأول واهتمامي الأكبر كانا بالصفحة الأدبية . وهناك ثلاثة كتب هى « نظرية التطور وأصل الإنسان » و « مصر أصل الحضارة » و « والتجديد فى الأدب الإنجليزى الحديث » نشرتها كلها فصولا متتابعة فى « البلاغ » قبل أن تجمع فى كتب ووجدت من عبد القادر حمزة ليس الصدر الرحب فقط بل التشجيع أيضاً على أن أمضى فى هذه البحوث .

أما « الهلال » فقد حررته من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٩ وكان من شروط عملي فيه أن أؤلف كل عام لقرائه كتاباً جديداً يقوم مقام العطلة حين كان ينقطع شهرين . وكان بعض هذه الكتب للتسلية مثل « أشهر قصص الحب التاريخية » وكنت أؤديها على سبيل الواجب الحرفى . ولم تكن تكلفني مجهوداً . ولكن كان بعضها الآخر يحملنى على البحث والدراسة . فكنت أؤلف وأنا أتعلم ، مثل « حرية الفكر وتاريخ أبطالها » و « العقل الباطن » . والحق أن هذه المؤلفات التي ألفتها وأنا بالهلال ثم بالبلاغ كان كل منها بمثابة المدرسة التي علمتني وأمدتني بالغذاء الذهني بسنوات . بل حتى المقالات التي كنت أنشرها فى « الهلال » و « البلاغ » وجدت من الناشرين اهتماماً ؛ فطبع بعض منها مع تنوع موضوعاتها باسم « مختارات سلامه موسى » و « اليوم والغد » و « فى الحياة والأدب » .

وقد سعدت بهذه المؤلفات على قلة بل تفاهة ما كسبت منها مالياً .

وذلك أنى كسبت تربيتى ، كما كسبت هذا التغير الذى وجدته فيمن قرأوها ، وهو تغير كان أحياناً يصل إلى التطور بل الانقلاب . وفيما بين ١٩٢٣ و ١٩٣٠ أثير غبار فى القاهرة بشأن التجديد فى الأدب ، وكان كل أديب يفهم من معنى هذا التجديد غير ما يفهمه الآخرون ، كل تبعاً لمزاجه واتجاهه وثقافته . وأستطيع أن أعين الاتجاهات التجديدية لتلك المناقشات الحامية كما أذكرها الآن فيما يلى :

١ — أن يكون لنا أدب مصرى عصرى لا يرتكن إلى الأدب العربى القديم .

٢ — أن يكون لنا أسلوب عصرى فى التعبير لا يمت إلى الجاحظ أو غيره ، مع مداعبة مستحيية للغة العامية . . . وهى مداعبة لم تثمر .

٣ — أن نأخذ بالأوزان والقيم الأوربية فى النقد الأدبى دون أوزان الناقدين القدماء وقيمهم كالجرجانى أو ابن الأثير أو ابن رشيق.

٤ — أن نجعل الأدب يتصل بالمجتمع ويعالج شئونه ويندغم فى مشكلاته .

٥ — أن نوجد القصة والدرامة المصريتين .

٦ — أن نجعل الأدب إنسانى الغاية عالمى المشكلات .

والمؤلف بالمقارنة إلى الصحفى يعد ناسكا . فإن المؤلف ينزوى فى غرفته باحثاً منقباً ، ولكن الصحفى يخرج ويختلط بالمجتمع . ومع أن أكثر مجهودى فى الصحافة كان ثقافياً فى بحث العلوم والآداب فإنى قد مسست السياسة أيضاً ، وأحياناً اقتحمت غبارها حتى عصفت بي فى كثير من الأوقات . ولكن أعظم ما يعزينى أن ما عصف بى كان أيضاً يعصف بالأمة ، وأنى فى كفاحى الصحفى كنت أكافح للديمراطية التى حاول المستبدون أن يحرمونا منها .

وأول اختبارى للصحافة كان فى « اللواء » فى ١٩٠٩ . فقد قضيت فيه نحو أربعة أشهر مع فرح أنطون . وكان يرأسنا رجل مهذب مستنير يدعى عثمان صبرى وكان صهر مصطفى كامل ، وكان قد تولى الرياسة بعد المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان قد أغضب الأقباط بكلمات نابية . وكنا نكتب فى المطالبة بالجلاء ، ولا مفاوضة إلا بعد الجلاء . وهذه عبارة كان يستنكرها بعض الساسة فى مصر ؛ أما الآن فلا تستنكر . وقد عمل بها الهنود حين أصروا مدة الحرب الكبرى الثانية على شعار « اتركوا الهند » . وقد بقى فرح طوال عملى معه باللواء وهو يظن أنى مسلم ، لاشتباه اسمى ، ولأنه لم يكن فى كل ما أكتب ما يدل على وجهة طائفية خاصة . أما عثمان صبرى فكان يعرف أنى قبطى ، وكان كثيراً ما يذكر مقالات الشيخ عبد العزيز جاويش بالاستنكار أمامى ويتفادى من نشر أى مقال يوهم الشقاق بين المسلمين والأقباط . وقد كسبت من « اللواء » مرانة صحفية حسنة ؛ وكنت أكتب الخبر والمقال فى السياسة الداخلية والسياسة الخارجية . ولم يكن للمخبر فى تلك الأيام قيمة كبيرة : وكانت الجرائد « مقالية » أكثر مما كانت خبرية . وذلك لأن الكفاح من أجل الاستقلال كان يستغرق كل اهتمامها تقريباً ، فكان جميع كتاب الجريدة تقريبا محررين .

وفى العقد الأول من هذا القرن كان طراز « اللواء » جريدة الحزب الوطنى يغلب على الصحافة . لأنه كان الجريدة الناجحة وكان أسلوبه خطابياً إذ كان مصطفى كامل يعتقد بحق أن الصحافة يجب أن تكون فى خدمة الوطنية وأن تثير حماسة الجمهور وتنبه وجدانه الوطنى . ولذلك لم تكن العناية بالأخبار الخارجية كبيرة بل لم تكن هناك

أقل عناية بها . إذ كانت تختصر أو تقتضب فى نصف أو ربع عمود من التلغرافات . أما سائر الجريدة فكان معظمه يرصد للمقالات التى تندد بالإنجليز المحتلين أوتثير الجمهور . وكان لذلك ، أول شرط للكاتب الصحفى ، أن يكتب فى أسلوب فصيح بعبارات صارخة . وبقيت هذه الحال تقليداً فى الصحافة إلى حوالى ١٩٣٠ حين شرعت جرائد « الخبر » بدلا من جرائد « المقالة » فى الظهور . وما زلنا إلى الآن (١٩٤٧) نجد من بقوا من الصحافة القديمة كبيرى العناية باللغة قليلى العناية بالمعارف العامة عن المشكلات العالمية أو العلمية أو الاجتماعية . بل نجد بين بعض القراء إساغة لهذه الكتابة الأسلوبية .

وكانت الجرائد فى ذلك الوقت « شخصية » فكنا نقرأ الجريدة لا لأنها حافلة بالأخبار أو الصور بل لأن فلاناً يكتب فيها مقالا . بل كانت المخاصمات أيضاً شخصية . فكان « المؤيد » يشنع على مصطفى كامل لأن الخديو عباس صفعه . وكان « اللواء » يشنع على الشيخ على يوسف صاحب « المؤيد » لأنه لم يكن كفئاً لزواج كريمة السادات السيدة صفية . بل كان « المقطم » يدخل فى هذه المخاصمات ويتكلم أيضاً عن زوجة الشيخ على يوسف .

وظهرت أولى المجلات الفكاهية حوالى ١٩٠٠ وكانت مادتها الأساســية تهزئة الإمام العظيم محمد عبده . وكان يشاع أن الخديو عباس باشا كان يحرضها على اتخاذ هذا الموقف لأنه كان يكره الروح العصرى الذى كان يدعو إليه الإمام فى الأزهر : وظنى أنى أنا أول من أخرج مجلة أسبوعية جدية هى « المستقبل » فى ١٩١٤ :

ولما تركت « اللواء » وعدت إلى أوربا بقيت الصحافة خيالا ساحراً فى ذهنى : ورجعت إلى مصر واستطعت فى ١٩١٤ أن أحقق هذا

الخيال بأن أصدرت مجلة « المستقبل » الأسبوعية . ولكن لم أصل إلى العدد السادس عشر حتى كانت الحرب الكبرى الأولى قد شبت ، وارتفع سعر الورق نحو عشرة أضعاف سعره السابق . وكان لا بد أن أعطلها . ولكن التعطيل جاءنى بطريق آخر . ففى ذات يوم وأنا أفكر فى مشكلة الورق طلبتنى إدارة المطبوعات . فقصدت إليها غير عابئ بما يحدث . وكانت الإشاعات كثيرة بشأن تعطيل المجلات والجرائد . وهناك قعدت أمام أحد الموظفين السوريين الذى حيانى وطلب لى القهوة ، وجعل يلاطفنى بكلمات عذبة . ويسألنى عن المجلة وهل هى رائجة أم أنى أخسر فيها . ثم بعث فى طلب رجل إنجليزى . وجاء هذا وقعد قبالتى يستمع دون أن يتكلم . ثم شرح لى هذا الموظف حرج الموقف وضرورة وقف (أى تعطيل) بعض المجلات . ومع أنى لم أكن أبالى التعطيل ، كما قلت ، فإنى وجدت فتنة سيكلوجية فى متابعة البحث والمناقشة وخاصة أمام هذا الإنجليزى . فأبديت أنى قادر على إصدار « المستقبل » مهما كانت الصعوبات . فتلاحظ الاثنان وأنا مفتون بالموقف . وأصررت على أنى سأصدرها إلى آخر الحرب ، وأنى سأدعو فيها إلى الاشتراكية . وعاد الموظف السورى يخاطبنى فى ملاطفة مسرفة ويقول إنى أستاذ وعاقل . . . الخ . وأصررت أنا على العناد .

وأخيراً صرح فى غير ملاطفة ، بأن إدارة المطبوعات تستطيع التعطيل . وأن المناوئين للحكم فى الظروف الحاضرة الشاذة يمكن نفيهم أو اعتقالهم . وكان هذا ما أردت أن أسمعه ، فنهضت وقلت إنى سأعطل المجلة ، وخرجت .

وليس عندى مجموعة من مجلة « المستقبل » . ولكن بعض القراء ما زالوا يقتنونها مجلدة تحتوى الأعداد الستة عشر التى صدرت . ومقالاتها

تدل على تفكيرى وقتئذ . ويعبر هذا التفكير عن اتجاهى الذهنى العصرى. فإن فيها مقالات عن نيتشه . وبها مقال كله فجور إلحادى عنوانه « الله » وهذا غير قصائد ومقالات لشبلى شميل وكان يدعو فيها إلى نظرية التطور وإلى المذهب المادى . وأجد بها بحثاً عن « الضمد » عند العرب أى زواج المرأة لجملة رجال . والخلاصة : كان المستقبل يدعو دعوة عصرية بل مستقبلية فجة خاصة . وكنت أبيع منه نحو ستمائة نسخة فى الأسبوع . وهذا غير المشتركين المتحمسين . وظنى أنه كان يمكن أن ينجح ويؤدى رسالة الهدم والبناء التى كنا نحتاج إليها لولا ظروف الحرب فى ١٩١٤ . ولم تظهر بعد « المستقبل » مجلات من طرازه التحريرى. ولما عمدت إلى إخراج « المجلة الجديدة » فى أواخر ١٩٢٩ كنت قد تأثرت بالفن الصحفى كما أن الظروف المصرية كانت قد دجنتنى تدجيناً سيئاً . فخبت النار وباخت الحماسة وأخذ الاعتدال مكان الغلو .

وأرسلت إلىّ مىّ عقب التعطيل خطاباً تطلب منى أن أحرر « المحروسة » وكانت جريدة يومية قليلة الانتشار يصدرها والدها ، فقبلت ، وبقيت أحررها جملة أشهر سئمت بعدها الكتابة مع المراقبة الصارمة التى كانت تفرضها إدارة المطبوعات على الصحف . ولم يكن يخفف من هذا السأم سوى زيارات مىّ ومؤانستها لنا من وقت لآخر ؛ فقد كانت حلاوتها تمتزج بظرف ورقة .

وبقيت طوال الحرب الكبرى الأولى وأنا معطل . وقد قضيت معظم سنى هذه الحرب فى الريف فى عزبتنا بالقرب من الزقازيق . . وكانت تلك الأيام بمثابة الحضانة . فقد أكببت على القراءة الجدية فى الآداب والعلوم واستوعبت منها كثيراً ، وكنت من وقت لآخر أقصد إلى مأمور المركز فى الزقازيق كى أرجوه فى الإفراج عن أحد

الذين قبض عليهم من الفلاحين . وكانت الحكومة تنفذ شرطتها إلى الأسواق الريفية العامة فتقبض على من تستطيع من هؤلاء المساكين وتربطهم بالحبال الغليظة كما لو كانوا أسرى حرب . ثم يبعثهم الإنجليز إلى فلسطين وكانوا يموتون بالمئات والألوف . ولم أكن أنجح فى تخليصهم إلا بالرشوة .

وسئمت الركود الريفى ، فاشتغلت بالتعليم فترة . ثم هبت الثورة فى ١٩١٩ ورأيت أن أقصد إلى القاهرة حتى أكون على صلة بالحوادث وحتى أجد منفذاً جديداً إلى الصحافة . وتحقق لى ذلك ؛ فإنى بعد أن اشتغلت بالتعليم فى مدرسة التوفيق قليلا اشتركت فى تحرير «الهلال» واشتركت أيضاً فى تحرير « البلاغ » .

وانغمست فى السياسة مع المرحوم عبد القادر حمزة . وكنت أزور معه سعداً . وكان عبد القادر حمزة من الكتاب الأفذاذ إذا نشب فى موضوع لم يترك الجدل فيه حتى يستقصيه ويخرج منه منتصراً ؛ وكان نزيهاً فى حكمه حتى حين كان يختلف . فإنه بعد أن ترك الوفد فى ١٩٣١ بقى على صداقته السابقة مع كثير من الوفديين .

وأصدرت « المجلة الجديدة » فى أواخر ١٩٢٩ . وأصدرت « المصرى » فى السنة التالية . وكانت الأولى شهرية والثانى أسبوعياً . وكانت الدعوة فى كليهما تحريرية فى الثقافة والسياسة . وعصفت بنا فى ١٩٣٠ عاصفة سياسية فى وزارة إسماعيل صدقى باشا ، فألغى الدستور واستبدل به آخر بعيدا عن الديمقراطية . وألغيت مجلتاى . وكان قد شرط فى قانون النشر الجديد أن من يطلب امتيازاً لجريدة أو مجلة جديدة يجب أن يؤدى تأميناً قدره ١٥٠ جنيهاً . فأديت التأمين نقداً ، ولكنه رفض . وبعد ثلاث سنوات أى فى ١٩٣٤ جاءت وزارة

عبد الفتاح يحيى باشا ، فاستطعت أن أعيد إصدار « المجلة الجديدة » بضمان عامل فى المطبعة عندى . . . وهذه هى حالنا فى مصر : فى وزارة يرفض التأمين النقدى وفى وزارة أخرى يقبل ضمان العامل الذى لا يملك شيئاً .

وفى بداية الحرب الكبرى الثانية أنشئت وزارة الشئون الاجتماعية ، فاستدعتنى كى أحرر مجلتها . وقبلت لأنى وجدت أن الفرصة تتيح لى الارشاد العصرى والتوجيه الاجتماعى . وبقيت أكتب فى هذه المجلة نحو سنتين . وكانت مقالاتى يوقع عليها بإمضائى أو تنشر بلا إمضاء . فإذا راقت المشرفين على المجلة وضع لها إمضاء غيرى حتى ولو لم تكن له علاقة بالوزارة . وقد كان هذا العمل مثاراً للسخرية أحياناً وللأسف أحياناً .

وكنت أتناول عشرين جنيهاً راتباً شهرياً على التحرير دون أى اشتراط على القدر الذى أكتب أو على مواظبة الحضور . فكان يمضى الشهر دون أن أحضر للوزارة ، وكنت أكتب أى قدر شئت من الصفحات . ولكن الوزراة ضنت علىّ بهذه الحرية مع صغر الراتب : فألغته وعينت أربعين قرشاً للصفحة الواحدة . ورأيت آخر الشهر بعد هذا النظام أن كل ما حصلت عليه هو جنيهان فقط ، فتركت التحرير .

وكنت طوال عملى بالوزارة أصدر «المجلة الجديدة» أيضاً . وبقيت على ذلك إلى ١٩٤٢ حين سلمتها لبعض الإخوان الأصدقاء كى يقوموا بنشرها وكى أختص أنا فى التحرير السياسى . ولكنهم نزعوا نزعة ديمقراطية يسارية مسرفة لم ترض الاستعمار ، فألغيت فى تلك السنة بأمر عسكرى .

وفى السنة التالية اشتريت امتياز جريدة يومية . وقبلت إدارة

المطبوعات نقل الامتياز الذى أثبت فيه أنها « يومية » وذكر فيه الضمان بأنه ٣٠٠ جنبه أى ضمان جريدة يومية . وبعد أن قبل كل هذا وبعد أن استعددت لإصدار هذه الجريدة اليومية أقيلت وزارة الوفد . وفى اليوم التالى للإقالة فى أكتوبر من ١٩٤٤ أبلغتنى إدارة المطبوعات أن الجريدة شهرية وأنه لا يجوز لى أن أصدرها يومية .

وعندما أقارن بين صحافة الجيل الماضى (من ١٩٠٠ إلى ١٩٢٠) وصحافة الجيل الحاضر ! أجد أننا قد تقدمنا وتأخرنا . أجل ! تقدمنا فى فن الطبع والإخراج تقدماً عظيما جداً . فإن جرائدنا ومجلاتنا تدل على رقى فنى يضارع أعلى المستويات الصحفية فى أوربا . ولكننا من حيث التحرير تأخرنا ؛ إذ ليس عندنا الآن من المحررين من يضارعون مصطفى كامل أو على يوسف أو لطفى السيد . وقد مات عبد القادر حمزة وهو آخر هذا الجيل المنقرض .

ولكن هناك مع ذلك علامة حسنة فى الصحافة الحديثة ، هى عنايتها الكبيرة بالأخبار الخارجية . فإن هذه العناية ، التى كان مبعثها الحربين الأخيرتين ، تنير القراء وتربيهم على النظر العالمى وبحث سياستنا من الزاوية السياسية العالمية الكبرى . وهذا حسن . ولكن انسياق الجرائد وراء الإعلانات قد حد من حريتها واهتماماتها . فإن جرائدنا مثلا تعنى بالميدان السينمائى ، الذى يغل لها الإعلانات ، أكثر مما تعنى بالزراعة المصرية التى يعمل فيها الملايين ولكن لا تنتفع منهم الصحف بالإعلانات .

وقد دلتنى اختباراتى فى السياسة والثقافة على أن بضع مقالات فى السياسة أحياناً تعود بمثل الربح المالى الذى يعود من تأليف كتاب كامل قد احتاج إلى دراسة السنين . ولذلك فإن التأليف فى مصر

تضحية كبيرة لا يرضاها إلا المهوسون بالثقافة . ولذلك أيضاً أصبح كثير من الأدباء الذين افتتحوا حياتهم بالتأليف صحفيين .

وذات مساء وكان ذلك فى ١٢ يوليه من هذا العام ١٩٤٦ كنت نائماً على الأسفلت فى غرفة مظلمة فى سجن الأزبكية مع نحو أربعين من المتهمين بالسرقة والضرب والفسق والقتل وحيازة المخدرات وغير ذلك . وكانت تهمتى أنى أفكر وأدعو إلى الجمهورية أو الشيوعية : وكانت خشونة الأسفلت تمنعنى من النوم وتؤلمنى فأرقت . وأخذت ذاكرتى تعرض لى فلم حياتى الماضية . فذكرت الحرية التى كنت أتمتع بها فى ١٩١٤ حين كنت أكتب مقالات فى « المستقبل » لو أن بعضها نشر هذه الأيام لقاد إلى السجن . وذكرت العناء الذى لقيته فى الدراسة والتأليف ، وعددت نحو عشرين كتاباً ألفتها لأبناء وطنى أخلصت فيها النية وبذلت المجهود كى أنير وأعلم ، وكى أسمو بالشباب إلى مثليات القرن العشرين وأخرجهم من ظلمات القرون الماضية . ثم تأملت حالى على الأسفلت الخشن ، وكيف أنى لم أجمع مالا ولم أحصل حتى على الكرامة التى يستحقها من يخدم ويخلص فى الخدمة . وكان إلى جنبى نصف رغيف هو عشائى الذى قررته لى الحكومة المصرية جزاء هذا العمر الذى قضيته فى خدمة مصر . وأخذت أفكر وأجتر التفكير وعقلى يتضور من الألم ، إلى أن أصبح الصباح ودخل علينا رجل بقفة بها خبز ، فناولنى رغيفاً للفطور وضعته فوق نصف الرغيف الذى تناولته فى المساء السابق . وهكذا يفعل بنا الاستعمار والاستبداد المتحالفان .

كفاحي السياسي

كنت طوال إقامتي في أوربا أدرس السياسة من الجرائد اليومية الإنجليزية والفرنسية وأستمع إلى المحاضرات الحزبية التي يلقيها الدعاة والبارزون من الأحزاب. ولكن التفاتي إلى السياسة كان بمثابة النشاط الموجي على السطح. أما في الأعماق فكانت التيارات التي تحفزني وتوجهني اجتماعية ثقافية. فقد كنت مثابراً على الملاحظة المباشرة للمجتمع الأوربي أقابل بينه وبين المجتمع المصري في مركز المرأة ونظام العائله بل نظام البيت وأحوال العمال في المدينة والريف والحرية أو بالأحرى الحريات العامة في البيت والمجتمع والصحافة والخطابة. ومن ذلك الوقت إلى الآن (أي من ١٩٠٧ إلى ١٩٤٧) وأنا أكافح في جهات متعددة سياسية واجتماعية واقتصادية. وأحياناً تتداخل هذه الجهات أو تمتزج حتى تصير جبهة واحدة. كما حدث مثلا في ١٩٣٠ حين كنت أقف في صف الوفد في مكافحة الطغيان الذي حاول إسماعيل صدقي باشا أن يعممه بعد أن ألغى دستور ١٩٢٣ كما سبق أن ألغى الإنجليز دستور عرابي في ١٨٨٢. ولكن حتى في هذه المعمعة السياسية التي هبت في الأمة تقاتل المستبدين والمستعمرين معاً كنت أيضاً أكافح كفاحاً آخر من أجل الاستقلال الاقتصادي. فألفت جمعية « المصري للمصري » لإيجاد وجدان (أي وعي) وطني اقتصادي.

وكانت الأحزاب السياسية في أوربا قد شرعت حوالي ١٩١٠ تتجه اتجاهاً اشتراكياً. وكان هذا الاتجاه على أقواه في ألمانيا وفرنسا وعلى

أضعفه فى بريطانيا : بل الحق إنه لم يكن فى ١٩٠٩ فى مجلس العموم الإنجليزى غير اشتراكى واحد (من نحو ٦٠٠ عضو) يدعى فكتور جرايسون وكان يجمع بين حماسة الشباب وحماسة المذهب . وقد حاول ذات مرة أن يقسر المجلس على المناقشة فى شأن العاطلين . فقرر المجلس إخراجه . وكان يلقى الخطب فى الاجتماعات الشعبية ويفخر بأن المجلس طرده . والغريب أن هذا الشاب اختفى فجأة ولم يعرف إلى الآن كيف كانت نهايته .

ولكن كان بمجلس العموم فى ذلك الوقت حزب للعمال وحزب آخر يسمى « العمال المستقلين » يتزعمه كير هاردى . ولكن هؤلاء العمال جميعاً لم يكونوا اشتراكيين مذهبيين ولم تكن الدعوة بينهم إلى الاشتراكية بل كانت دعوة متواضعة قانعة بزيادة الأجور للعمال وترقية أحوالهم المعيشية . وقد زرت كير هاردى فى غرفته المتواضعة فى لندن فى ١٩٠٩ . وكان اسكوتلندياً فى وجهه سماحة وطيبة قد أرخى لحيته . وكان يصر على اتخاذ قبعة العمال المخصوفة من القش . وكانت سكرتيرته آنسة مثقفة جاءت بعد ذلك إلى مصر وتولت رياسة التحرير لجريدة «ذى إجبشيان جازيت» . وكان السبب لزيارتى لكير هاردى أنى قرأت له كتيباً عن الهند شرح فيه ما رآه فيها من المظالم البريطانية للهنود . ورأيت فى هذا الكتيب ما يثير وما يبعث على التفكير فيما يفعله الإنجليز فى مصر . ولما قابلته قال لى إنه اشتراكى وأن الاشتراكية سوف ، تعم أوربا ثم تنتقل إلى سائر القارات. وأن الاستعمار البريطانى يجب أن يزول من مصر والهند وأن واجبنا الوطنى الأول فى مصر هو إخراج الإنجليز ثم إيجاد الإصلاحات الاجتماعية فى المجتمع المصرى .

وكانت الخطوط السياسية التى نراها الآن فى السياسة العالمية فى ١٩٤٧ واضحة فى أوربا فى ١٩٠٩ . ولكن الخطوط اليمينية كانت وقتئذ أبرز من الخطوط اليسارية . أى أن أصوات الاستبداد والاحتكار والحرب والاستعمار كانت عالية تنطق بها دولة القياصرة فى روسيا ودولة السلاطين فى تركيا ، ثم دولتا الوسط فى أوربا . وأخيراً الإمبراطورية البريطانية وفرنسا . أما فى ١٩٤٧ فإن هذه الدول جميعها ، باستثناء بريطانيا وفرنسا ، قد زالت وأخذت الجمهوريات مكانها . كما أن الأكثرية السياسية للأحزاب قد أصبحت يسارية للاشتراكيين والشيوعيين فى جميع أوربا المتمدنة . وقولنا «المتمدنة» يستثنى بالطبع أسبانيا وبرتغال حيث الفاشية لا تزال حية . وهذا اتجاه واضح لا يخطئه إلا المغفلون أو المتغافلون .

وقد أصبحت من تلك السنين أتوسم الأحزاب وأرود المستقبل فى ضوء هذه الاتجاهات الاشتراكية العالمية . ولذلك لم تفاجئنى الأحداث الكبرى مثل حرب ١٩١٤ التى بعثتها المباراة الاقتصادية بين ألمانيا وبريطانيا ، أو مثل حرب ١٩٣٩ التى بعثها الصراع بين أحزاب اليمين من المحافظين وبين أحزاب اليسار من الاشتراكيين والشيوعيين . وإن كانت هذه الحرب قد فقدت منذ بدايتها تقريباً روحها المذهبى واستحالت إلى النزاع الاقتصادى القديم ، بين بريطانيا وألمانيا ، كما دخلت فيها مركبات اقتصادية أخرى .

وعندما عدت من أوربا وضعت رسالة صغيرة عن الاشتراكية . كما وضعت قبل ذلك رسالة أخرى عن « السبرمان » أى إنسان المستقبل . وكذلك لخصت كتاب جرانت ألين عن « نشوء فكرة الله » وترجمت نحو ١٢٠ صفحة من قصة « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى . وكل هذا النشاط

قمت به فيما بين ١٩٠٩ و ١٩١٤ . وهو يدل على أن أفكارى العامة الحاضرة كانت تتبلور فى ذهنى : السياسة الاشتراكية ، والأدب الروسى والفلسفة الداروينية ، مع النفور من الغيبيات .

وفى ١٩٢٠ عقب الثروة هبت ريح الحرية فى الجو المصرى المكظوم . فألفت أنا والمرحوم الدكتور العنانى والأستاذ محمد عبدالله عنان والأستاذ حسنى العرابى ، الحزب الاشتراكى . وأرخى لنا المستعمرون الحبل كى يعرفوا مدى نشاطنا والاستجابة التى نلقاها من الشعب ؛ والحق أنها كانت استجابة حسنة . ويبدو أننا كنا نسير فى اعتدال ونتقى المصادمات . وترجمت فى ذلك الوقت « نداء إلى الشباب » لكوربتكين وهو الأمير الروسى الذى ترك إمارته أيام القيصر نقولا وانقلب كاتباً ومؤلفاً وداعية للفوضوية . ولكن حدث فجأة أن أحدنا الأستاذ حسنى العرابى وجد فينا بطئاً لم يطق له صبراً . فقصد إلى الإسكندرية وأعلن « الحزب الإباحى » . وكلمة « إباحى » كان يقصد منها ما يفهمه الجمهور الآن من كلمة شيوعى . وانشق عنا وانضم إليه كثير من الشبان الذين سرقوا دفاتر الحزب وقضوا عليه ؛ وماتت حركتنا وقضت الحكومة على حسنى العرابى بحبسه ثم تشريده فى أوربا . فقد سافر إلى ألمانيا وما هو أن بلغها حتى صدر قرار من مجلس الوزراء بحرمانه من الرعوية المصرية كى يمنع من العودة إلى مصر ؛ وكثيراً ما اشتقت أنا إلى السفر إلى أوربا ولكن خوفى من أن يلحق بى مثل هذا القرار كان يحملنى على الدوام على النكوص ؛ وليس على هذا الكوكب أمة تحرم أبناءها من رعويتهم إذا كرهت منهم مذاهبهم السياسية غير مصر . وهذا الحرمان من الرعوية يشبه ، فى صبغة عصرية ، الحرمان من الكنيسة أيام القرون المظلمة ؛

ولكنه الاستعمار البريطاني يحالف الاستبداد المصرى على مطاردة كل من كان يتوهمان فيه خطراً على مركزهما الممتاز فى مصر.

والاشتراكي المصرى يجد نفسه فى صف واحد مع الوفد. لأن الوفدية هى فى صميمها الدعوة إلى الاستقلال. ولا يمكن اشتراكياً أن يفكر فى أى برنامج اشتراكى ما لم يكن الاستقلال محققاً ناجزاً. ومن هنا الكراهة البريطانية لجميع الحركات الاشتراكية فى العالم وليس فى مصر وحدها.

والاشتراكية والاستعمار ضدان لا مصالحة بينهما ، فالأولى تعاون ومساواة وعدل والثانى استغلال وامتياز واحتكار وخطف. ولذلك أيضاً نجد أن جميع الاشتراكيين فى مصر هم قبل كل شىء وطنيون غالون فى وطنيتهم لا يطلبون الاستقلال لمصر وحدها بل للهند والجزائر والعراق ومراكش وغيرها.

وتحدث أحياناً مصادفات مشئومة. فقد كنت فى ١٩٢٥ أو حوالى ذلك أكتب للبلاغ. وكان زيور باشا قد قام بأولى المحاولات لرد الأمة إلى عصر توفيق أى إلى حكم أتوقراطى بلا دستور أو بدستور صورى. فكتبت مقالا قلت فيه إن زيور يشبه أبا الهدى فى حكومة عبد الحميد. وكان اسم أبى الهدى يزكم الجو بالدسائس والاستبداد. وكتب الأستاذ عبد القادر حمزة (باشا)، دون أن يعرف مقالى، مقالا آخر قال فيه إن مصر تحكم كما لو كانت تركيا أيام عبد الحميد. وقضت المصادفة بأن يخرج المقالان معاً كأن هناك مغزى مقصوداً. وقصدنا إلى بيت الأمة حيث قابلنا سعد باشا الذى أنذرنا بخطورة المقالين وبأن النيابة العامة سوف تقوم بالتحقيق معنا فى شأنهما. وكان سعد باشا فى سنيه الأخيرة حتى لقد لاحظت أن ساقه كانت

ترتعش ولكنه كان يقظ الذهن دكتاتورى اللهجة .

وقد سبق أن قلت إن كفاحى السياسى كان يمتزج فى أحيان كثيرة بكفاحى الاجتماعى أو الاقتصادى . ولذلك ألفت فى ١٩٣٠ جمعية المصرى للمصرى كى أبعث الوجدان الاقتصادى للأمة . وكنا نجد فى تلك السنة ، حين ثار إسماعيل صدقى باشا على الدستور وألغاه ، أن دعوتنا «المصرى للمصرى» تتفق ومقاطعة البضائع الإنجليزية . ووجدت هذه الحركة حماسة كبيرة بين الشبان . وكنا نحتم على أنفسنا اتخاذ جميع ملابسنا الخارجية والداخلية من الأقمشة المصرية باستثناء الطربوش . ولكن حتى هذا وجد من يصنعه من الصوف المصرى الأبيض . وقد أرسل إلى أحد المتحمسين مثالا منه هدية يطلب منى اتخاذه بدلا من الطربوش الأحمر الذى كان يرد إلينا من أوربا . وقد كان الأستاذ أحمد حسين رئيس جماعة مصر الفتاة وكيلا لجمعية المصرى للمصرى فى كلية الحقوق حين كان طالباً بها . فلما كافحنا اسماعيل صدقى باشا ، وقتل من مجلاتنا التى كانت تنتشر دعوتنا أكثر من عشر مجلات ووقفنا مضطرين عن الحركة ، عمد أحمد حسين إلى إحيائها أو بعثها ولكن بصورة قد يستنكرها البعض . والحق أنه كان فيها كثير مما يستنكر مثل الهجوم على الحانات ، أومداعبة الآراء الفاشية ، ومدح موسولينى أو هتلر ، ونحو ذلك .

ولا بد أن أذكر أنه كان لاستقلال الهند مكانة كبيرة فى تفكيرى السياسى . وعندى أن مشكلة الهند بل مشكلة أى مستعمرة فى العالم هى أيضاً مشكلة لمصر . لأن استقلالنا يقتضى مكافحة الاستعمار أينما وجد . ولذلك ألفت كتابى عن «غاندى والحركة الهندية» . وأعجبنى من غاندى أنه كان ولا يزال يكافح فى جبهتين هما الإنجليز المستعمرون والتقاليد

الهندية التى فسدت وتقيحت فى جسم الأمة الهندية المريضة . كما أنه بعث نشاطاً اقتصادياً بتعميمه المغزل بين الريفيين . ولقد أرسلت إليه فى ١٩٣١ خطاباً أطلب منه المؤلفات الخاصة بحركة الغزل والنسج التى يقوم بها بين الفلاحين الهنود وأيضاً بعض أدوات الغزل التى تستعمل فى الهند . فأرسلها كلها إلىّ . ولكننا بعد الدرس لموضوع الغزل لم نجد أننا قادرون على إيجاد مثل هذه الحركة فى مصر . ذلك أن المغزل اليدوى قليل الإنتاج لايغل للغازل عيشاً كافياً فى مصر . وإن كان يغل هذا العيش الكافى للفلاحين الهنود لأن مستواهم الاقتصادى دون مستوى فلاحينا . ولكن وزارة التجارة والصناعة تحاول الآن فى ١٩٤٧ أن تجد مغزلا ريفياً يستحق عناية فلاحينا ويشغل فراغهم فى بعض أشهر الشتاء .

وهذا النشاط الاقتصادى أو الوطنية الاقتصادية التى قمنا بها فى ١٩٣١ قد بعثت روحاً جديداً من اليقظة والإحساس الوطنى . حتى لأذكر أن ضابطاً من البوليس حضر لتفتيش مكتبى فى إحدى الهجمات التى كانت تتوالى علينا لضبط مجلاتنا ومصادرتها . فلما شرع يقرأ الخطابات الواردة إلينا من أنحاء القطر بشأن الصناعة والتجارة المصرية تغير موقفه فصار يدعو لنا بالنجاح ويمزق بنفسه الأوراق الخطرة .

وهنا يجب أن أذكر شخصية نبيلة قد فارقتنا للأسف منذ أربع سنوات هى المرحوم محمد عبد الصمد مدير مدارس رقى المعارف فى شبرا . فإنه كان وكيل جمعية المصرى للمصرى حين كنت أنا رئيساً لها . وكنت قد كتبت مقالا أدعو فيه إلى إنشاء متجر فى شارع فؤاد لا يبيع غير المصنوعات المصرية . وكانت البضائع المصرية لاتباع إلا فى الأزقة النائية فى السكة الجديدة فى أطراف شارع الموسكى . ولما قرأ المرحوم

طلعت حرب هذا المقال بعث إلىّ وأخذ يناقشنى فى هذا الموضوع . وخرجت من عنده قاصداً إلى المرحوم محمد عبدالصمد حيث اتفقنا على أن يعرض ألف جنيه يساهم بها فى هذا المشروع . ونشرت هذا العرض مع صورة الشيك فى الصفحة الأولى من إحدى المجلات التى كنت أنشرها . وكان هذا العرض بذرة المتجر القائم الآن باسم « شركة مصر لبيع المصنوعات المصرية » فى شارع فؤاد .

ويجب ألا أنسى هنا أنى فى كفاحى السياسى ألتفت إلى موضوعين أحدهما هو بعث النخوة الوطنية عن سبيل الإكبار من شأن الفراعنة . وقد وجدت ما يزيدنى تأييداً لهذه الدعوة بما استفاض فى أوربا عامة وبريطانيا خاصة من أن مصر هى التى بعثت الموجات الأولى من الحضارة القديمة إلى أنحاء العالم وأخرجت الإنسان من العصر الحجرى إلى عصر الزراعة . وكتابى « مصر أصل الحضارة » يقوم على هذه المعانى ويشرحها . أما الموضوع الثانى فهو الإكبار من شأن عرابى . فقد نشأنا على أن هذا الوطنى العظيم كان خائناً لمصر وأنه هو السبب لاحتلال الإنجليز لوطننا . والحقيقة أن من يقرأ تاريخ هذه الشخصية المصرية المقدسة يتعجب للخسة التى بعثت خصومه على سبه والحط من شأنه . وليس فى تاريخ مصر منذ أكثر من ألفى سنة من خدمها بروح الشرف والوطنية والنزاهة مثل عرابى . وقد كانت ترجمة كتاب بلنت « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر » من الجهود السارة التى قمت بها لجريدة « البلاغ » . لأن المؤلف كان صديقاً لعرابى وكان واقفاً على أهدافه الوطنية السامية .

وكذلك لا أنسى أنى فى سبيل الكفاح السياسى ألفت كتابين أحدهما « حرية الفكر وتاريخ أبطالها » فى ١٩٢٧ سردت فيه أطوار

الكفاح التاريخى من أجل الحرية سواء عند الأمم العربية أم فى أوربا . ثم عدت فى ١٩٤٦ فأخرت كتيباً بعنوان « حرية العقل فى مصر » طلبت فيه إلغاء قوانين المطبوعات التى تحد من حرية الكتابة والصحافة وإلغاء إدارة المطبوعات التى تطلب استخراج « رخصة » عندما يرغب أحدنا فى إصدار مجلة أو جريدة . والغريب أنه فى نفس هذه السنة (١٩٤٦) عاد حكم إسماعيل صدقى باشا المشئوم . فأصدر مشروع قانون لزيادة الحد من حرية الصحافة التى لم يكن يطيقها هذا الرجل . وتقدم وزير سابق هو الأستاذ فؤاد سراج الدين باشا لطلب امتياز أى رخصة لجريدة يومية فرفض طلبه . ومثل هذه الجرأة ليس لها نظير فى أية أمة متمدنة على هذا الكوكب . أعنى جرأة رجل مثل إسماعيل صدقى باشا على أن يفكر فى زيادة القيود للصحافة المصرية وعلى أن يمنع وزيراً سابقاً من أن يصدر صحيفة .

وكلما فكرت فى كفاحنا السياسى أحس ألماً للعقم الذى لازمه إلا القليل من الثمر الذى حاول المستبدون والمستعمرون إفساده . فقد أثمر هذا الكفاح دستوراً غيره المستبدون مرة ثم عطلوه مرة ثم ألغوه واستبدلوا به آخر مرة . ونجحوا فى أن جعلوا ديمقراطيتنا كاريكاتورية . ولكن مما يبعث السرور إلى نفسى أنى لم أتضعضع ولم أترك المعسكر الوطنى لمكافحة المستبدين والمستعمرين كما فعل كثير من الأدباء ممن طمسوا النور الذى كان فى قلوبهم وأطفأوا وهج نفوسهم كى يصلوا إلى حياة أومال فانحازوا إلى الاستعمار الأجنبى أو الاستبداد الوطنى .

فى خدمة الشباب

منذ تأسست جمعية الشبان المسيحية فى القاهرة حوالى ١٩٢٢ وأنا عضو فيها . ولكن عضويتى كانت شكلية إذ كنت قليل الزيارة لها . وبقيت على ذلك نحو ست أو سبع سنوات حين طلب منى سكرتيرها الأستاذ نجيب قلادة أن أقبل المناظرة مع الأستاذ توفيق دياب بشأن الأدب المكشوف والأدب المستور . وكنت أنا فى موقف الدفاع عن الأدب المكشوف باعتبار أن الأدب يجب أن يكون حراً طليقاً لا يتقيد بأى قيد سوى ضمير الكاتب . وكان الأستاذ توفيق دياب يرى أنه يجب أن تكون هناك قيود وحدود اجتماعية لا يجوز للكاتب أن يتجاوزها :

وأحدثت هذه المناظرة اهتماماً بين الشبان ولغطاً غير منير فى المجلات . وحوالى ١٩٢٩ زاد اتصالى بالجمعية وعرفت سكرتيريها الأمريكيين والمصريين ، ثم حوالى ١٩٣٣ رغب إلى الأستاذ نجيب قلاده كى أكون مستشاراً للمكتبة . ومنذ تلك السنة إلى الآن وأنا أزور الجمعية نحو ثلاثة أو أربعة أيام كل أسبوع تقريباً .

ورأيت فى اتصالى بالشبان فائدة كبيرة لى ولهم . فقد كانت مهمتى الأولى أن أوجههم إلى القراءة وأعين لهم الكتب التى يستطيعون الانتفاع بها سواء أكانت عربية أم إنجليزية أم فرنسية . وكنا نعقد اجتماعاً كل يوم اثنين نتحدث فيه حديثاً « عائلياً » وكلنا قعود بعضنا يشرب الشاى أو يدخن على مقاعد مريحة . وكانت أحاديثنا تتناول بالطبع مشكلات الشباب سواء أكانت ثقافية أم جنسية أم عائلية ؛

ولذلك كان الاتجاه الجنسي يزداد بروزاً فى هذه الأحاديث. ومن هنا الفائدة التى وجدتها لنفسي من هذه الأحاديث ــ فإن هؤلاء الشبان كانوا « المواد الخامة » التي استطعت أن أدرس بها الطبيعة البشرية .

ذلك أن هؤلاء الشبان كانت تترجح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين . ولذلك كانت المشكلة الجنسية بارزة عندهم جميعاً . وهذه المشكلة الأصلية تحرك مشكلات عائلية واقتصادية واجتماعية أخرى . وكثيراً ما وجدت أن أحد الشبان كان مثقلا أو مرهقاً بالعاطفة الجنسية التى كان يتخلص منها بالعادة السرية . وكثيراً ما كنت أجد أن الخيبة فى الامتحانات المدرسية تعود إلى الانغماس فى هذه العادة التى يزيد خطرها فداحة أن الجنسين لا يختلطان . فإن اعتزال كل جنس للآخر يحمله على الاستسلام للخيال ثم يلتزم هذا الخيال حتى يعود وكأنه فى « شيزوفرنيا » أى هذا الجنون الذي يتسم بالاستسلام التام للخيال والانفصال التام من الواقع ومن المجتمع .

وكثيراً ما فكرت فى هذا الموضوع المعقد أى كيف يرفه الشاب الأعزب المرهق بالعاطفة الجنسية عن نفسه فى مجتمعنا المصرى الانفصالى . وما زلت أذكر شاباً كان حوالى العشرين جاء إلىّ فى ذل وصغار يلمح أحياناً ويصرح أحياناً بأنه لا يطيق حالته وأن يوشك على عمل خطير إن لم يتخلص من العادة السرية . وكان قد أمعن فيها حتى صار يحلم أحلاماً جنونية وكان يبقى طوال النهار التالى وهو مكتئب بسببها لأن هذه الأحلام كانت تبدو له حقيقية ، وبكلمة أخرى شرع عقله يختلط .

ورأيت أن أنصح له بالرقص مع إحدى الفتيات . ونفر هو من هذا الاقتراح ، كما كان ينتظر ، لأن المستسلم لهذه العادة يؤثر الانفراد والخيال ويكره الاختلاط والواقع . ولكنى بعد جهد استطعت أن أقنعه

بأن يحاول هذه التجربة ، إذ لعلها تنجح . وكان له أصدقاء يرقصون فرافقهم ، وبعد المحاولات الأولى الفاشلة تم التعارف بينه وبين بضع فتيات وحذق بعض الرقصات وصار يزور المراقص .

ورأيته بعد نحو شهرين فخلوت به وسألته عن حالة فأخبرنى ، وأنا فى دهشة عظيمة ، أنه منذ تعلم الرقص كفّ عن العادة السرية : وكان تعليله عجيباً . فقد قال إن فى الرقص من الشهامة والذوق والجمال ، وهى صفات تلازم الرقص ، ما يناقض الذلة والصغار والحقارة التى فى العادة السرية . وتأملت الشاب وهو يصرح بهذه الكلمات فوجدت فى وجهه وإيماءته مصداق ما يقول ، فقد ذهب عن وجهه التردد والخوف وإزدان بجرأة وشهامة .

وكان فى هذا الكلام نور لى . وبالطبع كانت الحالات تختلف . فهناك من كان ينجع فيه النصح بالاهتمام بالكتب والثقافة . وهناك من كان يجد فى النجاح المدرسى ما يشغله عن هذه العادة . ولكن الرقص كان من أعظم الوسائل الشفائية وخاصة للحالات الخطيرة .

وهذه المشكلات اضطرتنى إلى أن ألقى أحاديث عديدة للشبان عن السيكلوجية . وكتابى الأخير فى هذا الموضوع « عقلى وعقلك » قد ناقشت فصوله قبل كتابتها معهم فى قاعة المكتبة . وكثير من مؤلفاتى قد ألقيت فصولها أحاديث عائلية وطرحت للمناقشة مع الشبان ، مثل « البلاغة العصرية واللغة العربية » و « الشخصية الناجعة » و « التثقيف الذاتى أو كيف نربى أنفسنا » و « فن الحياة » وهذه الكتب على ما يبدو من أسمائها تختلف فى الموضوعات ولكنها تتفق فى أن وجهتها جميعاً سيكلوجية .

وكثير من أفراد الجمهور يعتقد أن جمعة الشبان « المسيحية »

خاصة بالمسيحيين : مع أن الحقيقة أن بها نحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ عضو مسلم وبها عدد كبير من اليهود . وقد حدث أن أحد الطلبة من الأزهر جاءنى فى ذات يوم وطلب إلى أن أدله على المكان الذى يستطيع أن يشترى منه الكتاب الذى ألفته أو طبعته الجمعية عن الإسلام . وكان يعتقد أن هذه الجمعية تبشيرية وأنها لا هدف لها سوى التبشير بالمسيحية . فلما أخبرته أنى لا أعرف هذا الكتاب وأن بالجمعية نحو ٤٠٠ عضو مسلم لا يعرفون أيضاً دهش وتركنى وهو لا يكاد يصدق . والتبشير هو أبعد الأهداف عن هذه الجمعية . وفى ١٩٣٧ ثم فى ١٩٣٨ كان للجمعية مصيف قرب العريش وكان المصطافون من الأعضاء المسلمين والمسيحيين واليهود . وكانت العادة أن نبدأ الفطور بصلاة قصيرة يتناوب فيها مسلم بقرآنه أو يهودى بتوراته أو مسيحى بإنجيله .

ومما تمتاز به هذه الجمعية أنها دائبة فى التطور وهى تتكيف بالبيئة . ففى العالم نحو مليونى شاب وفتاة فى فروع هذه الجمعية . ولكن نظامها فى الهند غير نظامها فى مصر أو فى برازيل أو فى الصين . وإليك بعض مراحل التطور فى جمعية القاهرة :

١ — حوالى ١٩٢٦ أنشأت الجمعية قسما للصبيان الذى تترجح أعمارهم بين ١٠ و ١٦ سنة . ويرأس هذا القسم الأستاذ يعقوب فام الذى تعلم فى جامعة ييل بالولايات المتحدة قيادة الصبيان وإرشادهم وتكوين شخصياتهم وتقويم أخلاقهم . ولا يزال هذا القسم يربى وينشئ الصبيان وهو مفخرة للجمعية .

٢ — حوالى ١٩٣٣ أنشأت الجمعية نادى كوبرى الليمون للصبيان المحرومين الذين يجمعون من الأحياء الفقيرة ويعلمون كيف يقضون وقتهم فى أعمال وألعاب تعاونية اجتماعية تبعدهم عن التسكع

فى الشوارع : وهذا النادى هو أولى الحركات الارتيادية لتعليم الصبيان الفقراء فى مصر :

٣ – حوالى ١٩٣٩ شرعت الجمعية تجيز التحاق الفتيات كى يختلطن بالشبان . وقد سارت على حذر فى هذا المشروع فكان الاختلاط يحدث أولا مع عائلة الفتاة حتى إذا ألفت الفتاة هذا الاختلاط صار لها أن تحضر وحدها . وقد أدى هذا الاختلاط بين الشبان والفتيات ، تحت أعين المشرفين اليقظة ، إلى مظهر جديد من الشخصية للفتيات وإلى لباقة ورشاقة فى الحديث والإيماءة بين الشبان . فإن من المناظر السارة أن نجد فى الحديقة جماعة من الشبان والآنسات ، أكثرهم بل ربما جميعهم من الطلبة والطالبات ، يقعدون إلى المائدة يشربون الشاى ويتحدثون فى أنسة وصراحة لم نكن نحلم بمثلهما فى شبابنا . ويرأس هذا القسم الأستاذ حنا فام الذى تعلم أيضاً فى الولايات المتحدة ودرس هناك شئون « الواى » أى جمعية الشبان المسيحية .

وقد عاون قسم المكتبة فى الجمعية على هذا الاختلاط بما أسماه « يوم العائلة » حيث يعقد اجتماع مسائى يوماً فى الشهر من عائلات الأعضاء الذين يتناولون الشاى ويستمعون إلى حديث قصير من إحدى السيدات أو الآنسات المشتغلات بالشئون الاجتماعية أو الثقافية . وفى خلال الاجتماع تعزف الموسيقا أو تجرى ألعاب للتسلية ، والفضل فى ذلك للأستاذ غالى أمين الذى تعزى إليه أفضال كثيرة أخرى فى تنظيم المحاضرات والاجتماعات بالمكتبة . وهو الآن فى أمريكا .

وفى الحرب الكبرى الثانية نشط البوليس السياسى فى القاهرة ومنعنى من إلقاء محاضرات فى الجمعية إلا بعد أن تعرض على وزارة الداخلية التى توافق على إلقائها أو ترفضها . فكنت أكتب المحاضرة

أو كنا نسميها فى الجمعية « الحديث » ، ثم أرسل هذا إلى المحافظة فيبقى أحياناً عشرين يوماً قبل أن يرد إلى مع عبارات قد ضرب عليها حتى لا أقولها . ثم يحضر عضو من البوليس معه نسخة من الحديث : فأقرأ أنا الحديث أمام الأعضاء ويراجع هو علىّ حتى لا أخالف ما هو مكتوب . وبعد نحو شهرين من هذه الحال رأيت أن الكف عن إلقاء الأحاديث أسلم ، وكففت . وكتابى « التثقيف الذاتى أو كيف نربى أنفسنا » قد روجع معظمه فى وزارة الداخلية على هذا الأساس . فقد كنت ألقيه أحاديث تقرأ وتراقب قبل الإلقاء ...

وقد تأسست « جمعية الشبان المسلمين » على غرار جمعية الشبان المسيحية . ولكن العضوية قصرت فيها على المسلمين دون المسيحيين واليهود . وهذا عيب كبير لأن جمعيات الشبان المسيحية هى منظمات عالمية يراد بها الإخاء البشرى الذى يتجاوز الاختلافات المذهبية والدينية والعنصرية .

وأحب أن أذكر شيئاً عن سكرتيرى هذه الجمعية فى القاهرة . فقد مر ذكر الصديقين يعقوب فام مدير قسم الصبيان وحنا فام مدير قسم الطلبة . وكلاهما كما قلت قد تعلم فى الولايات المتحدة على نفقة الجمعية تعليما إختصاصياً للعمل الذى يقوم به . وقسم الصبيان هو دار الشفاء للصبيان الذين يتيئسون بالبيت أو يفسدون بالشارع أو هو دار وقاية أكثر مما هو دار شفاء . وقسم الطلبة من التجديدات الرائعة فى الجمعية . والاتجاه نحو الاختلاط بين الجنسين فى هذا القسم قد أثمر خير الثمرات ولم يحدث قط ما يدعو إلى الأسف .

وهناك الأستاذ مراد عصفور مدير القسم الرياضى . وهو أيضاً قد أرسلته الجمعية إلى الولايات المتحدة كى يتعلم ويعود للقاهرة لإدارة

الرياضة فى الجمعية ، وأخيراً هناك السكرتير العام وهو الأستاذ نجيب قلادة . وهو شخصية محبية قد اندغمت حياته فى الجمعية حتى لأظن أنه يحلم بها فى نومه . وهو رجل متبصر يحسب للمستقبل كثيراً ولا يتهور .

أما الشخصيات الأمريكية التى عرفتها بالجمعية فكثيرة ، اقتصر منها على ذكر اثنتين فقط . الأولى شخصية السكرتير العام للجمعيات فى الشرق الأوسط وكان يدعى ولبر سمث . وكان أعرج قد قطعت ساقه إلى الفخذ منذ الشباب لأن الدرن كان قد ضرب فى عظمها . وكان مع عرجه يسوق الأتومبيل ويلعب التنس ويخطف درجات السلم . وكان نشاطه عجيباً حتى بعد الثانية والستين . يقرأ ويلعب ويختلط بالأعضاء . وكثيراً ما كنت أتعجب لوفرة ثقافته مع وفرة اهتماماته بشئون الجمعية . وإنى أذكر أنى ناقشته أكثر من ساعة عن فولتير وقيمته فى حركة التحرير والتنوير فى أوربا . وكان يقتنى الكتب وينفق عليها فى سخاء . ولم تكن المناقشة معه محدودة أومقيدة فى أى موضوع . وهذا هو روح المناقشة فى قاعة المكتبة على الدوام . وهذا هو بالطبع ما أدى إلى هواجس وزارة الداخلية وتدخلها للرقابة أيام الحرب .

وهناك شخصية أخرى هى جيمس كواى . وهو أمريكى بقامته ووجهه وأخلاقه وميوله . فقد كان معنا حين كنا نصطاف بالعريش فكان ينزل البحر عريان كما ولدته أمه فى حين كنا نحن نعجز عن التخلص من رواسب الحجاب فكنا لاننزل البحر إلا بعد أن نتخذ الكلسونات . ومما يدل القارئ على أسلوب المعاملة الذى يتبعه هذا الأمريكى مع خادمة أنه ، حين كان يمنح إجازته ، وهى سنة كاملة يقضيها فى الولايات المتحدة إزاء كل أربع سنوات يقضيها فى القاهرة ، كان خادمه

يقضى هذه السنة بلا عمل ينتظر رجوعه . ومن الشعائر التى كان كواى يتبعها أيضاً مع خادمه هذا أنه كان يدعوه هو وعائلته ، عائلة الخادم ، إلى مائدته وتقوم المسز كواى بتهيئة الطعام وتقديمه لهم باعتبارهم ضيوفاً . وفى هذه المجاملة مغزى إخائى لا يستهان به .

وفى أثناء الحرب الكبرى الأخيرة تبرعت حكومة الولايات المتحدة بنحو ألف جنيه للمكتبة لشراء كتب أمريكية . وقد انتفعنا كثيراً بهذه الهبة .

وأخيراً أقول إنه إذا كانت الجمعية قد انتفعت بى باعتبارى مرشداً ثقافياً فانى أنا أيضاً قد انتفعت بها بالوقوف على اتجاهات الشبان ومشاكلهم . وعندما أذكر بعض هذه المشاكل وإنه كان لى بعض الفضل فى إزالتها يغمرنى سرور عظيم .

وقبل نحو أربعين سنة كنا لانعرف غير القهوة مكاناً نقعد فيه ونفر من البيت إليه . وكانت بيوتنا خالية من وسائل الراحة ولانقول الرفاهية . سيئة الطراز فى البناء سيئة الجوار سيئة الأثاث . وقد تحسنت هذه الحال شيئاً بين الطبقة المتوسطة ولكنها ازدادت سوءاً بين الطبقات الفقيرة . ومثل جمعيات الشبان المسيحية وأيضاً نادى كوبرى الليمون يعد ملاذاً يلجأ إليه الشاب أو الصبى ويتعود فيه المطالعة والمناقشة والحديث وألعاب التسلية النظيفة . بل يتعلم فيه الاختلاط المهذب مع الجنس الآخر . وهذا ما لم نكن نحلم به فى شبابنا . ولذلك نجد أن للشاب الذى قضى سنتين أو ثلاثاً فى عضوية الجمعية سمات لا تخطأ . فهو لبق متحدث أنيس لا يعرف القعود على القهوة ، يدرس السياسة ويقتنى الكتب ، ولايخجل ذلك الخجل المربك من الحديث إلى الجنس الآخر . وكل هذه العادات قد تعودها من الجمعية .

من الأفلام الماضية

نستطيع أن نجمع الضوء بالعدسة فتتلاقى أشعته المتفرقة فى بؤرة هى أضوأ نوراً وأكثف أشعة ، وليست هناك عدسة للزمن حتى تجمع فيها ساعاته ودقائقه فى ثانية أو ثوان . . . ولكن وجداننا يقوم أحياناً ، فى المآزق والضائقات مقام العدسة ، بحيث نعيش فى لحظة خاطفة سنين طويلة ، كما يحدث مثلا عندما نوشك على الغرق ويغشانا الماء ونتعلق بين الحياة والموت . ففى هذه الحال ينبسط أمامنا « فلم » من الذكريات التى مضت عليها السنين . . .

كنت مرة على جزيرة وايت حوالى سنة ١٩٠٨ ، فى جنوب إنجلترا ، وكنت أسير على شاطئ صخرى هاو يرتفع أكثر من مائة متر . . . وبينا أنا فى سيرى أتأمل البحر إذا بقطيع من الغنم تتقدمها كباش قد برزت قرونها فى وحشية مروعة تتجه نحوى فى هرولة طار لها عقلى فوثبت كى أتجنبها . ولكنى فى وثبتى رأيتنى على حرف الهاوية أكاد أسقط . وفى تلك اللحظة الحرجة رأيت فلماً من أفلام طفولتى يمر بذاكرتى فى سرعة برقية .

فهنا مأزق من مآزق الحياة قل إن خلا أحد من تجربته أو ما يشبهه : خطر داهم يجمع ذكرياتنا فى بؤرة تسطع منيرة فى وجداننا . . . ولذلك نذكرها طيلة حياتنا . ولكن هناك تجارب أخرى يتكاثف فيها الزمن ويتجمع فى وجداننا . وهى أيضاً نتيجة المأزق الحرج الذى لا يبلغ الموت ولكنه يدانيه فى عمق الإحساس وتنبه الوجدان .

وليس من الضرورى أن يكون هناك خطر متوقع ، ولكن لا بد أن يكون هناك ألم يحز كأنه الموت . كنت ذات مرة فى باريس

أجلس على قهوة ومعى إخوان نتحدث عن السياسة . فتطور الحديث إلى نقاش حام . فاحتد أحد الشبان الفرنسيين علىّ لأنى خالفته وقال لى : « لا تناقش . . . ليس لك هذا الحق . الإنجليز أسيادكم ! »

وتبالهت . وتضاحكت . . . ولكنى شعرت كأنى شربت سما ، وأن أمعائى تتمزق . ونهضت وقصدت إلى غرفتى ، وانبطحت على السرير وأنا أبكى . وبعد ذلك لم أكن أصدم فى أى مدينة فى أوربا بأى شخص أقل مصادمة إلا ويهتف بى صوت داخلى : « الإنجليز أسيادكم ! » فأذل وأتمزق .

وفى الحرب الكبرى الأولى كان شبابنا يؤخذون قسراً من القرى فيربطون بالحبال وينقلون إلى فلسطين . وكان الكثيرون منهم يموتون أو يعودون وهم حطامات بشرية ، قد فقدوا أنفع أعضائهم . وذات يوم كنت على محطة الزقازيق فإذا بى أرى شاباً لم يبلغ العشرين ، وإلى جانبه شيخ هرم كأنه أب أو عم لهذا الشباب . وكان الشيخ دائب الكلام فى حرارة وعطف ، حتى كاد رأسه يمس وجه الشاب ، فاقتربت منهما . ولكنى فزعت من هول مارأيت . ومازلت أفزع من هذه الذكرى . . . فقد كان الشاب فاقد البصر من غبار فلسطين وسينا ، وعاد أعمى لا يرى نور النهار . . . وكان الشيخ يواسيه بكلمات كاذبة ، والشاب ينصت فى جمود وصمت كأنه لا يسمع .

وأحسست ، وبينى وبينهما أقل من مترين ، كأنى مجرم . وكأنى مسئول عن هذه الكارثة التى نزلت بهذا الشاب . وجف حلقى وودت أن أقول للشيخ شيئاً . ولكن جمود الشاب جمدنى . وبقينا ثلاثتنا

على هذه الحال . إلى أن جاء القطار الذى حملهما إلى قريتهما . . .

وقد مضى على هذه الحادثة نحو ٢٨ سنة . ولكنى عند ما أخلو لنفسى ، يعود « الفلم » فينبسط أمامى وأستعيد كل كلمة وأرى كل حركة من حركات الشيخ المواسى والشاب الأعمى . ثم تتمزق أمعائى عند ما أفكر فى دخوله قريته واستقبال أمه أو أخته له واستقباله لهم .

وكنت حوالى سنة ١٩١٧ فى المنصورة . وسئمت من جلسة طالت على إحدى القهوات التى تشرف على النيل ، فنهضت عند الغروب وصرت أجول على غير هدى فى الشوارع والأزقة . فلما عتم المساء أخذت طريقى إلى القهوة . . .

فبينا أنا أسير الهوينا إذا بى أسمع صوتاً خافتاً ظننت أنه يصدر من أحد المنـــازل ولكن الصوت كان مع خفوته قريباً . فتلفت حولى فرأيت شيئاً ضئيل الجسم حسبته كلباً أو قطاً . فاقتربت منه فسمعت صوتاً يقول فى خلط واضطراب : « ملوخية . . . ملوخية باللحمة . . . عيش وملوخية . . . بدى آكل . . . أنا جعانة : عيش وملوخية . . . »

ودنوت من هذه الأشلاء المكومة الملفوفة فى الخرق . فوجدتها امرأة قد استحالت من الفاقة والبؤس إلى حطام لا يعقل . ووقفت إلى جانبها أسمع أنين الجوع وبكاء المعدة . . . ثم قصدت من فورى إلى مطعم فاشتريت لها طلبتها وعدت مع صبى المطعم إليها ، وأخذنا نحن الاثنين نعرض عليها ما أحضرناه من الملوخية واللحم وأكلت المسكينة فى ضعف وارتباك . . . ولكنها لم تأت على ربع الرغيف ، وظنى أنها كانت فى أيامها الأخيرة . . .

وكلما جاءت العتمة عقب الغروب وضاقت نفسى لسبب ما عادت

هذه الذكرى تضئ فى مخيلتى فأتنهد أسفاً على ذلك الحطام البشرى الذى ظننته أول الأمر كلباً أو قطاً .

وفى صرخه الموت عذوبة تفتّن النفس ، وفى الموت نفسه فتنة كأنها صحوة الوجدان ، حتى لنحس أن يقظتنا إنما هى حلم نصحو منه عند ما نقف إزاء من نحب وهو فى النزع الأخير :

وقفت إلى جانبها ، وهى أختى . وكانت فى عذاب الذبحة الصدرية تصرخ صرخات الموت . ولم أكن مخدوعاً أو واهماً فى المصير المحتوم الوشيك ! وعاد « الفلم » ينبسط أمامى مبتدئاً بما حدث منذ أكثر من ٥٠ سنة وأخذت صوره تتعاقب الواحدة بعد الأخرى فى لحظات خاطفة ، وفى نصوع ووضوح ، حتى كأنى أسمع كلماتها وهى تشترّى لى الحلوى ، وتغسل لى وجهى أيام الطفولة . . . ثم أنتبه من هذه الذكريات إلى صرختها العذبة الأليمة . وكانت فى عذوبتها تجعلنى أنتفض كأنى فى لذة أليمة ، أو كأنى فى طرب حزين ثم جاءت النهاية وساد السكون : : :

وخرجت وإذا بى أنظر إلى السماء فلم أترك سحابة إلا وأنا أتأملها كأنها شأن خطير يجب ألا أنسى شيئاً من تفاصيله . أو كأنى أقرأ حروفها الفضية وأطلع من ورائها على سر خطير . فلما انطبعت هذه السحب فى نفسى ، نظرت إلى الأرض . ولكنى عدت فى لهفه أنظر إلى هذه السحب كأن شيئاً يوشك أن يفلت منى . ثم ترن فجأة تلك الصرخات العذبة الأليمة فأرتاح إليها وأسكن وأستكين . . :

وهذا الذكريات ، أو هذه « الأفلام » على إيلامها ، هى الحياة : هى كنز يجمع المر والحلو واللذة والألم . وحياة تخلو منها هى الحياة تخلو من كنوزها : : : وحين أعود إلى اللحظات الخاطفة التى تجمع

فيها الإحساس والوجدان ، أحس حناناً لذيذاً جارفاً ، يبدأ حرقة والتهاباً ثم يتميع خيالا ينساب هنا وهناك فى أفكار وخواطر شتى عن الموت ، وعن الدنيا ، وعن المصير ، وعن الحاضر والمستقبل ، بل وعن العلم والأدب والفلسفة والسياسة ... فتتغير القيم والأوزان ، فأرفع من بعضها وأبخس من بعضها الآخر . وعندئذ أحس أن هذه المآزق ، وهذه الكوارث ، هى المجال الذى أتغير فيه وأتطور : وأن هذه الكوارث ، إنما هى حوافز تنبه الوجدان وتبدل الذهول بالإحساس الملتهب ، والتفكير المركز ... حتى أنى لا أحسد أولئك الذين حرموا من هذه الكوارث فتبلدوا وتجمدوا وعاشوا كما لو كانوا سمكا لا يحزنون ولا يلتهبون ... أجل ! لم يعرفوا طرب الحزن الذى يسمو فى لذته وتأثيره على طرب الفرح ، ولم يصدموا بتلك الصدمات المنبهة التى توقفهم فى الطريق حتى يتأملوا ما قطعوا منه فى الماضى وما سوف يقطعون فى المستقبل . أجل ! لم يجمعوا الزمن فى بؤرة إنسانية تتكاثف فيها الأشعة فيزداد ضوء الوجدان .

بعض الأدباء الذين عرفتهم

عرفت جرجي زيدان مؤسس «الهلال» قبل أن يموت بسنتين أو ثلاث ، بل عرفته منذ ١٩٠٩ حين كنت بانجلترا ، وكنت قد ألفت رسالة « مقدمة السبرمان » وبعثت بها إلى مطبعة الهلال كى تطبع ، فأحالتها المطبعة إليه ليقرأها . وبعث هو إلى بخطاب مسهب يشرح لى فيه وجوه النقد التى يأخذها على الرسالة ، ويقترح حذف بعض الفصول والسطور مما عده مخالفاً للعقيدة العامة . وأذكر من خطابه هـذا قوله : «إنه لا بأس بأن ننتقد المسيحية ؛ لأن المسيحيين قد ألفوا نقد ديانتهم ، أما المسلمون فيجب أن نتوقاهم ؛ لأنهم لم يألفوا النقد » ؛ وقد خرجت هذه الرسالة مشوهة مبتورة لكثرة ما حذف منها .

ولما عدت إلى مصر زرته واتصلت معرفتى به إلى وفاته ، وكنت بين مشيعية إلى قبره . وكان جرجي زيدان عصامياً فى ثقافته وثروته ؛ وهو أول من أرصد حياته فى عصرنا لدراسة التاريخ الإسلامى ، وألف فى ذلك قصصه الكثيرة كما ألف تاريخ التمدن الإسلامى . وهذه الكتب تعد من الطلائع لهذه الدراسات التى استفاضت فى العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة . ولم يكن لجرجي زيدان أى اتجاه علمى . حتى لقد كتبت ذات مرة أعزو الحجاب عند العرب إلى أسباب بيولوجية هى أن البنات فى الأقطار الحارة يبلغن سن النضج الجنسى فى الحادية عشرة أو حوالى ذلك أى قبل اكتمال سن النضج الذهنى . ولذلك لم تكن لهن من عقولهن رقابة على غريزتهن الجنسية أو ضبط لها ، وأن

هذا هو السبب للحجاب بين العرب . فتعجب لهذا التعليل وقال لى إن « الأسلوب يعجبنى » ، ولكن الحقائق تكذبه . وكانت هذه « الحقائق » عنده تاريخية . وأنا الآن أعرف أنى كنت مخطئاً فى هذا التعليل البيولوجى ؛ إذ ليس هناك أى فرق فى سن النضج الجنسى بين أبناء المناطق الحارة والمناطق الباردة ، والتعليل الصحيح للحجاب اجتماعى .

وكان جرجى زيدان انبساطياً بدينا بشوشاً كثير الأصدقاء . ومات عقب انتهائه من أحد مؤلفاته . فما هو أن أتم الصفحة الأخيرة حتى وضع القلم وانسطح ، فانفجر شريان أحدث له « النقطة » . وفى اليوم التالى شيعناه إلى الجبانة ، وكان هناك عدد غير صغير من الأدباء الذين استعدوا لتأبينه . ووضع النعش وكشف عن الوجه ونهض أحد المؤبنين . ولكن ما إن شرع فى إلقاء كلماته حتى صاح شقيق للمتوفى يقول : إنه رأى شقيقه يرمش وإنه لايزال حياً . وكانت المسألة لاتزيد على أن عاطفته قد تغلبت على عقله . ولكن كانت النتيجة أن المشيعين عادوا ولم يسمعوا تأبيناً ، وترك حارس للجثة إلى الصباح ...

ومؤلفات جرجى زيدان لا تزال حية وهى أقرب إلى التلخيص منها إلى الاسهاب ؛ لأنه عالج موضوعات لم يعالجها أحد من قبل . فكان يستوعب أكثر ما يستطيع فيضطر إلى الاقتضاب . ولما أنشئت الجامعة المصرية كلف إلقاء محاضرات عن التاريخ الإسلامى . ثم عادت إدارة الجامعة ، فألغت هذا التكليف بدعوى أنه مسيحى . وقد تركت هذه الحادثة فى نفسه مرارة ؛ فكان لا يفتأ يذكرها فى حزن وألم .

وكان فرح أنطون يصدر «الجامعة» ، وكان من وقت لآخر ينتقد « الهلال » . وكانت مجلة « الهلال » شرقية ومجلة «الجامعة» غربية ؛

فلم يكن هناك نقطة للتعارف أو التصادق بين صاحبيهما : واتصلت صداقتى بفرح حين شاركته فى تحرير « اللواء » لفترة قصيرة حوالى ١٩٠٩ . وكنا نقضى السهرة فى إحدى القهوات المطلة على ميدان الأوبرا أو ما يقاربها . وكان فرح « مفكراً حراً » بالمعنى الفرنسى لهذه العبارة . وكان يعرف نيتشه وروسو . وقد اندمج بعد ذلك فى الحركة الوطنية المصرية . وكان حلبى الأصل . ولذلك شق عليه اتخاذ اللهجة المصرية العامية . وكان انبساطياً مفراحاً يشرب الخمر ، بل كان يشرب الأبسنت ، وهو مشروب منع بيعه بعد ذلك لفتكه بالصحة .

وقد ترك كل من جرجى زيدان ، وفرح أنطون ، أثره فى النهضة المصرية . فإن الأول فتح أبواب الدراسة لتاريخ الإسلام والعرب وآدابهم وعقائدهم وحضارتهم ، كما فتح الثانى أبواب الدراسة للنهضة الأوربية . ومات الأول حوالى الخمسين ، ومات الثانى حوالى الأربعين :

وفى تلك السنوات عرفت يعقوب صروف محرر « المقتطف » ، وكان قد جاوز الستين : وأذكر أنه لأول مقابلة لى شرع يسألنى عن أصلى هل أنا مصرى قح أم بى عرق أجنبى ؟ وكان قد قرأ رسالتى « مقدمة السبرمان » : وبعد حديث طال فى العلوم عاد فجزم بأنى أجنبى ، وأن تفكيرى يدل على هذا ! وكانت نزعته العلمية قد طغت عليه ، فلم يكن يحسن التقدير للأدب أو الفلسفة ؛ ودار بينى وبينه نقاش ذات مرة عن هربرت سبنسر وشوبنهور : فأبرزت أنا القيمة العظمى للفيلسوف الألمانى الذى نظر النظرة الكونية الشاملة . أما هو فكان يرى أن سبنسر أعظم المفكرين فى العالم ، وأن شوبنهور لا قيمة له بتاتاً إلا فى « ملاطفات » أدبية أو مجازفات فلسفية : وكان « المقتطف » فى أيامه من المجلات القوية التى وجهت القراء العرب الوجهة العلمية

وأنارت بصيرتهم : ولم يكن جافاً فى إيراده للبحوث العلمية ، كما أنه كان من وقت لآخر يترجم إلى العربية مقالات جدية من المجلات الأوربية :

وفى إدارة المقطف وجدت أمين المعلوف ، وكان لغوياً علمى الذهن . وقد وضع معجماً بعد ذلك للحيوان لا يزال أحسن ما يعتمد عليه فى هذا الموضوع . واتصلت بينى وبين أمين المعلوف صداقة إلى وفاته . وكان يكثر من الشراب . وقبيل وفاته بعامين أو ثلاثة أصيب ببحة كانت تجعل الحديث معه شاقاً ، ولكنه احتفظ ببشاشته وذكائه . وقد عاش أمين المعلوف ملء حياته : فاشتغل فى السودان ووصل إلى أقاصيه العليا حيث أفريقيا السوداء ، كما اشتغل فى مصر والعراق . وهو ، مثل فرح أنطون ، لم يتزوج .

ويجب أن أذكر هنا أن جميع هؤلاء الأربعة كانوا سوريين ، أو ، كما نقول الآن بعد التجزئة التى أعقبت انهيار الدولة العثمانية ، لبنانيين : وكانوا جميعهم كارهين للحكم العثمانى لا يطيقون ذكره . وكان إذا شرع أحدهم فى الحديث عنه لم يتمالك من الغيظ . ولم يكن وجدانهم وطنياً ؛ لأن رؤيا الاستقلال للعرب لم تكن قد تجسمت . وكان اليأس أغلب عليهم . وحتى بعد انهيار الدولة العثمانية ، عقب الحرب الكبرى الأولى ، بقوا على شك من حقيقة الاستقلال المزعوم لهذه الدول العربية . وأظن أنهم كانوا على حق فى هذا .

ومن الشخصيات الفذة التى عرفتها قبل الحرب الكبرى الأولى شخصية الأديبة الكبيرة مى : وقد بقينا صديقين ، إلى يوم وفاتها عقب عودتها من مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان : ولم تكن مى جميلة ولكنها كانت « حلوة » : وكانت تعرف الآداب الإنجليزية

والفرنسية ، وتقرأ كثيراً وتقف على الاتجاهات العصرية فى أوربا وأمريكا والشرق . وكانت أيضاً متمدنة من حيث اكتمال وسائل التمدن فى المعيشة . وكان تمدنها وثقافتها يكسوان وجهها وتعبيرها ظرفاً ورقة . وقد استطاعت مى أن تجعل احتراف الأدب عند الفتاة المصرية والسورية زينة أنثوية لا استرجالا كريها . وكانت ، فى حياة أبويها تعقد بمنزلها اجتماعات « صالونية » حيث يكون السياسى والأديب والوجيه بعض ضيوفها . وكانت تشترك فى جميع المناقشات بل كانت أحياناً تديرها . وقد تنبه ذكاؤها كثيراً لاختلاطها بهؤلاء الضيوف . ولم يكن هناك موضوع تعجز عن الاشتراك فى معالجته . وتفعل كل ذلك فى رقة وجمال وتمدن . ومات أبوها فلم يتأثر « الصالون » ، ولكن عقب وفاة والدتها تزعزعت مى . ولم يكن ذلك ، فى ظنى ، لحزنها على والدتها التى ماتت بعد أن أسنت وبعد أن كان موتها منتظراً . وإن كانت الفرقة بين الأم وابنتها قد تركت أثرها ، وخاصة عندما نعرف أن مى لم تتزوج ، وأن رفقتها لأمها كانت تعزيها . وليس من السهل على فتاة أن تجد نفسها يوماً ما وهى منفردة مقطوعة فى منزلها ، وخاصة فى وسط ، مهما قلنا إنه متمدن ، لا يزال شرقياً .

على أنى أظن أن السبب للتزعزع النفسى الذى أصاب مى كان انتقالها الفسيولوجى من الشباب إلى الكهولة . وهذا الانتقال كثيراً ما يخل بالاتزان الفسيولوجى عند بعض النسوة ، وقد ماتت مى منذ أكثر من سنتين بعد سنوات قضتها فى مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان . ولما عادت زرتها مع صديقى الأستاذ أسعد حسنى ، وفتحت هى لنا الباب . فرأيت شخصاً لا أعرفه ، رأيت سيدة بيضاء الشعر كأنها فى السبعين . فسدرت عينى . فغمزنى أسعد وهمس : الآنسة مى !

الآنسةمى! فسلمت وتضاحكت. ولكنها هى أدركت كل شىء واستولى على اكتئاب وخجل وجمود وارتسمت فى ذهنى صورة لعذاب النفس الذى لقيته هذه المسكينة فى مرضها . ولكن سرعان ما زال عنى الاكتئاب والخجل والجمود ، إذ شملنى أسف . فإن مى قعدت إلينا وشرعت تقص علينا ما قاسته فى المستشفى وكيف ألبسوها « الجاكتة » التى تمنع العربدة عند المجانين ، وكيف أضربت هى عن الطعام ، ثم ، وهنا الأسف والحزن ، كانت وهى تروى لنا ما وقع لها وكيف أن أدباء مصر نسوها وتركوها ولم يسألوا عنها ، كانت تضحك مرة وتبكى أخرى . وتكرر هذا منها كثيراً . وأدركت أنها لا تزال فى حاجة إلى المستشفى .

وزاد اعتقادى هذا عند ما أصرت على أنه كان لها أقرباء ينوون خطفها من القاهرة ، وكانت تذكر أسماءهم وأنهم كانوا يتربصون بها فى مكان تعينه ، وكانت هى مضطرة إلى المرور بهذا المكان .

وخرجنا نحن الاثنين ونحن فى أسف وغم لهذه الحال التى كانت عليها مى . ولكن أسفى أنا كان مزدوجاً ؛ فإنى بقيت طوال المساء وأنا أفكر فى جمودى وكيف أنى لم أتنبه عندما رأيتها بالباب فأحييها تحية اشتياق وتقدير وأنها لا بد قد عرفت من جمودى أنها قد تغيرت ، وأن جمالها وحلاوتها وظرفها ورقتها قد زالت . وملأتنى هذه الخواطر مرارة بل كراهة لنفسى .

فلما كان اليوم التالى قصدت إلى منزلها وأنا طوال الطريق أستعد للقاء أرجو أن أقشع به غمامة الأمس . وهو مع ذلك لقاء لفتاة مريضة مزعزعة . فلما فتحت لى الباب عانقتها فى حنان صادق وحب مصطنع ،

وتراجعت هى وتأملت وجهى فى ابتسام وانشراح واضحين وهى تقول : « مرسى . مرسى يا أستاذ ! » .

وشعرت أنى كفرت عن جمودى بالأمس ، وقعدت معها وأنا أتحدث فى نشاط ومرح . ولكنها عادت إلى البكاء والضحك . فكانت دموعها تنهمر بالبكاء ثم بعد لحظات تتشنج بالضحك . وبعد أسابيع ماتت ، إذ لم تطق هذه الدنيا التى رافقتها أكثر من ثلاثين سنة وهى تتلألأ فيها بالشباب والجمال ، ثم عادت فتركتها منفردة فى شيخوختها بلا جمال وبلا تلألؤ .

ومخلفات مى الأدبية كثيرة ، ولكنها كانت فى حديثها أبرع وأذكى مما كانت فى جميع ما كتبت . وكنت أقول لها إن السبب لتفوق حديثها على مقالاتها ومؤلفاتها أنها شرقية تخاف فى الكتابة أن تبوح بكل ما تفكر فيه ولكن هذا الخوف يزول عنها فى الحديث . وقد صدمتنى ذات مرة بملحوظة جعلتنى أفكر ، هى قولها : « إن مبالغتك فى التفاؤل هى فى صميمها وأصلها مبالغة فى التشاؤم » . وأحياناً أظن أنها كانت صادقة ، كما أنها هى أيضاً كانت مثلى متفائلة ذلك التفاؤل الذى يخفى التشاؤم ويضمره .

وقد يسأل القارئ هنا : لِمَ لم تتزوج مى مع جمالها وثقافتها ؟ فالجواب أنها كانت تعيش فى وسط شرقى . ولو كانت مى قد نشأت فى برلين أو باريس أو لندن لوجدت الكثيرين ممن ينشدون الشرف والسعادة بالزواج منها ، والفخر والمجد بالتصاق تاريخهم بتاريخها . ولكن إخواننا اللبنانيين ، على الرغم من عصريتهم ؛ لايزالون شرقيين ولم يستطيعوا أن يسيغوا زوجة تستقبل ضيوفها فى صالون أدبى له حرية الصالونات الأوربية فى المناقشة والاختلاط . وبكلمة أخرى أقول :

إن مى عاشت عمرها قبل ميعادها بخمسين سنة .

وقبل الحرب الكبرى الأولى عرفت عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة « البيان » . وكانت هذه المجلة الشهرية تحاول أن تحيى الأسلوب العربى القديم على نحو ما فعلت جريدة « مصباح الشرق » للمويلحى أو كما تفعل الآن « مجلة الرسالة » . وكان البرقوقى نقيضى فى أهدافه الأدبية ؛ فقد كان يجد لذة عجيبة فى التعبير عن معنى ما بكلمة مماتة ، ويقول إننا يجب أن نحيى هذه الكلمة . ولم يكن يجدى احتجاجى عليه بأن الكلمة إنما أميتت لأسباب قوية استدعت موتها ، وأن إحياءها الآن خطأ ؛ لأن مركزها الاجتماعى قد انعدم . وكان صهره مصطفى صادق الرافعى أكثر إمعانا منه فى خطة الاحياء للكلمات المماتة . وعرفت محمد السباعى وكان الكاتب الأول فى مجلة « البيان » . أما الكاتب الثانى فكان عباس حافظ . وكلاهما كان يعنى أكبر العناية بالأسلوب العربى القديم . ولم يكن بمجلة « البيان » لا كثير ولا قليل من الفن الصحفى ، ولذلك لم تعش طويلا .

وكان عبد الرحمن البرقوقى من أطيب الناس . وكان غربى الذهن قضت المصادفات بأن يكون شرقى التربية والثقافة . وكنا أحياناً نمشى فى الإسكندرية فيأخذ فى المقارنة بين الشوارع التى أقيمت إليها مساكن الأجانب وبين تلك الأخرى التى أقيمت إليها مساكن المصريين ، ويستنتج من هذه المقارنة ما يحمله على القول بأن الشرق كله مفلس ، وكان قد عرف الشيخ محمد عبده وأدرك المغزى فى اتجاهاته وإصلاحاته .

وإذا كان حقاً أن الخمر تكشف عن خبايا الصدور ، وتفكك الضوابط التى تحول دون الصراحة ، فإنى أروى الحادث التالى الذى يدل على النفس الزكية التى كان يتسم بها البرقوقى . فقد كنا على

قهوة فى الأسكندرية حوالى ١٩١٤ وقد قعدنا إلى الموائد الخارجية والنسيم يهب علينا كأنه البلسم فى رقته ورخامته ، وأمامنا أكواب من البيرة (أو غيرها) نشربها فى اشتهاء ولذة . ثم طلبنا رطلين من الكباب ، فجاء بهما الخادم وبخار الكباب يتصاعد ورائحة الشواء تسكر . وما إن شرعنا نتنقل على هذا الطبق حتى طرأ علينا متسول . وكان غاية فى الرثاثة والجوع والعفن . فطلب إحساناً . فتأمله البرقوقى ثم نظر إلىّ كأنه يستفهم . ثم دفع الطبق إلى طرف المائدة وقال للرجل : كل . فأكل الطبق كله برطليه من الكباب وهو واقف .

وكان البرقوقى يسكن ، هو ومجلته ، بالقرب من باب الخلق ، وكانت « الجريدة » قريبة منه . وقد دعوته قبيل الحرب الكبرى الأولى إلى أن نزور معاً لطفى السيد (باشا) رئيس تحريرها . ولم أكن أعرفه قبل ذلك إلا من مقالاته مع إعجابى العظيم بها . فلما دخلنا عليه وجدت غرفته كأنها غرفة وزير فى سعتها وأثاثها . وتحدثنا عن نيتشه والتصوف . ولا أدرى إلى الآن كيف جمع بينهما لطفى السيد . ولكنى خرجت من هذه المقابلة الأولى وفى اعتقادى أن لطفى السيد أديب كما هو فيلسوف .

وحوالى تلك السنين ، أو قبل ذلك بقليل ، بزغ طه حسين ، وكان أزهرياً معمما ، يكره الأزهر ، ويعربد على صفحات «الجريدة» . والتحق بالجامعة المصرية ونال دكتورية الأدب . وكان الفرح عاماً بين الشباب الجديد لهذا الأزهرى الناجح . وكنت أصـــدر مجلة « المستقبل » الأسبوعية فى الدعوة إلى القرن العشرين وما بعده . فنشرت صورته وهو بالجبة والقفطان . وراج العدد بين القراء الذين رغبوا فى اقتناء الصورة ، وكان لنجاح طه حسين قيمة رمزية هى أن

مصر العتيقة تستطيع أن تتجدد . وقد وجد طه حسين من لطفى السيد المراعاة بل أحياناً المحاباة ، حتى كانت مقالاته تتحيز المكان الأول في « الجريدة » على الدوام . والواقع أن انتقال طه حسين من الأزهر إلى الجامعة المصرية ثم إلى السوربون ، مع أنه ضرير ، هومعجزة . ولكن ثم معجزة أخرى هي أنه اتخذ مكاناً أمامياً ثورياً مستقبلياً فى الأدب . مع أن الإنسان كان يتوقع ، بعد اعتبار ماضيه ، أن يتخذ مكاناً تقليدياً حيث يراعى « قواعد النحو والصرف » فى الأدب والاجتماع والسياسة . وقد يقال إن المعرى قد أثر فيه وبعث فى نفسه كراهة لقواعد « النحو والصرف » فى أسلوب الحياة . ولكن يبقى عندئذ سؤال هو : لماذا اختار طه حسين المعرى كى يكتب عنه ويسهب فى الكشف عن عقله وقلبه ؟ ولا عبرة بأن يقال إن الاشتراك فى العاهة باعث مقنع للقوة الجذبية التى وجدها طه حسين فى المعرى . لأن هناك أدباء وشعراء كثيرين بهم هذه العاهة ولكنهم لم يجذبوه . وظنى أن عاهة العمى لم يكن لها إلا أقل الأثر فى التفات الأديب المصرى إلى أديب المعرة . وإنما الأثر الأكبر أنهما يشتركان فىالثورة ، وخاصة الثورة على المشايخ : فقد رأى طه حسين فى الأزهر ما بعث سخطه وحركه إلى الكفاح ، ثم رأى عند المعرى مثل هذا السخط ومثل هذا الكفاح . فارتبطت بين الأديبين أواصر الحب والفهم وتعارفا وتفاهما . وقد انتقلت عند طه حسين بعد ذلك ، بؤرة المعركة من ميدان الأزهر إلى ميدان السياسة المصرية . ولكن اتجاهه الأول لم ينحرف .

وهناك من يزعم أن السياسة قد أفسدت أدباءنا وشغلتهم عن مهمتهم الأصلية . وهذه المهمة إنما هى عند هؤلاء الزاعمين أدب البرج العاجى الذى لا يتصل بالمشكلات العصرية . ولكنهم مخطئون .

لأن الأديب فى عصرنا يخون عصره إذا لم يكن سياسياً . وأعنى بالطبع السياسة العليا العالمية والقطرية ولا أعنى أن يستأجر أحد الأحزاب كاتباً فيرصد هذا قلمه للدفاع عنه ظالماً أو مظلوماً فى مهاترات مزرية . ونحن نعيش فى عصر انفجارى يحفل بالانقلابات الاجتماعية والأدبية والعلمية . وذلك الأديب الذاهل الذى يعيش فى البرج العاجى إنما يبتعد عن أهم الشئول البشرية حين يبتعد عن السياسة . وكل أديب له وجدان بتطور العالم فى عصرنا يحس أن واجبه الأول أن يكون هو نفسه عنصراً من عناصر هذا التطور . ولذلك يستحيل أدبه إلى أدب كفاحى سياسى .

ولذلك لا يستحق أدباؤنا اللوم على أنهم أخضعوا أدبهم للسياسة ، بل الحق أنهم يستحقون الثناء والحمد . وحين أتأمل الصدود الذى نلاقيه أحياناً فى بعض الأفراد أو عند الجميع عن شوقى ، على الرغم من شاعريته الرائعة ، أعتقد أن مرجعه أن شوقى لم يمارس الأدب الكفاحى . ولم يطابق بين فنه وبين أمانى الشعب ، إلا فى فترات نادرة . وأن إعجاب الشعب بحافظ إبراهيم ، على الرغم من شاعريته التى لا تسمو إلى مستوى شوقى ، إنما يرجع إلى أنه طابق بين فنه وبين أمانينا السياسية . وحتى فى المستقبل ، بعد مائة سنة مثلا ، سوف يدرس حافظ ويستدل بشعره على عواطف الأمة المصرية واتجاهاتها ومستواها الفنى أكثر مما يدرس شوقى الذى عاش ، زمناً غير قصير من حياته ، فى البرج العاجى .

ولم أعرف شوقى إلا فى السنوات الأخيرة من حياته . وكان له مكتب بالقرب من دار الكاتب المصرى كنت أزوره فيه . وقد فهمت مقداراً كبيراً من سيكلوجيته حين شرع ذات مرة يوضح لى فى إسهاب

لماذا ألف درامة « كليوبطرة » . فقد زعم أنه أراد أن يزكى هذه المرأة باعتبارها ملكة مصرية قد أسيء إليها فى سمعتها . ودهش أكبر الدهشة منى عندما ناقضته وقلت إنها لم تكن مصرية . وكان فى ثقافته يصبو إلى كل قديم ، حتى إنه لم يدرك شيئاً من التيارات الكاسحة التى اتسم بها الثلث الأول للقرن العشرين . وقد ولد شوقى فى أواخر القرن التاسع عشر فى مصر ، فى بيئة الباشوات والبكوات التى كانت تكره عرابى ، ولم يقطع الحبل السرى الذى كان يربطه بالقرن التاسع عشر إلى يوم وفاته .

أما حافظ إبراهيم فكان من الجواهر التى لا تزال تلمع وتسطع فى ذكريات جميع الذين عرفوه . وكان يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجهم يصدم بل يخيف لأول نظرة ، حتى إذا قضى معه الإنسان نصف ساعة ودّ لو ينهض ليقبله ويعانقه . فقد كان أنيساً يحدثك بنكات ، بالمعنى العربى القديم لهذه الكلمة . وكان وطنياً يطابق بين أمانيه وأمانى الدهماء من الفلاحين والعمال والمتوسطين . وأذكر من نكاته أنى سألته ذات مرة عن رأيه فى أحد الشعراء ، فكانت إجابته العجيبة : « إن أشعاره يجب أن تنسى عن ظهر قلب » . وهو عندى ذكرى تترنم بها نفسى .

وليس هناك مفر من المقارنة بين شوقى وحافظ ومطران ؛ فإن دراسة هؤلاء الثلاثة تدل على التيارات المتناسقة والمتناقضة فى المجتمع المصرى فى الخمسين من السنين الأخيرة . فإننا نحس أحياناً فى قصائد شوقى ومقطوعاته جو الترف المصرى الذى أوشك على الزوال : السجاجيد الإيرانية وصينية القهوة الفاخرة يحملها عبد أسود ، والمقاعد الناعمة والحجاب ، حجاب المادة والروح . أما أشعار حافظ فصرخات المتألم ،

وأحياناً مهاترات العاجز . ونحن نقرؤها فنصرخ معه أو نهاتر فى ألم وعجز ؛ لأنه منا ونحن منه : شاعر مصرى بلدى يقرأ أخبار المظاهرات ويفرح بها ويؤلف القصائد عنها وكأنه يريد أن ينتظم فيها مع الطلبة . أما مطران فيشبه أحياناً تلك الحدائق الأنيقة التى يجمع فيها أصحابها الأثرياء أصص النباتات الأجنبية التى نسأل عن أسمائها ونعجب بروائها ، ولكن ليس لها فى قلوبنا ذلك الحنين الذى نحسه حين نذكر حقولنا المألوفة بفلاحيها وجداولها وأشجارها من الجميز والتوت .

ومن الشخصيات الذهبية التى تبرز فى وجدانى وأفتأ أذكرها كلما عنّ حديث عن الأدب أو القلم أو الشرق أو الحضارة ، شخصية شبلى شميل . وكان رجلا قصيراً متكتل الجسم كأنه مصارع ، عرفته فى ١٩١٢ وبقينا على اتصال بل تحاب إلى وفاته فى أواخر الحرب الكبرى الأولى . وكان فى تلك السنوات يقارب السبعين ولكنه كان على صحة وشباب نادرين وكان روحه الكفاحى للغيبيات يسم ، وقد يقول غيرى ، يصم ، كل كتاباته . ذلك أنه كان يدعو إلى الحرية الفكرية فى كلمات جريئة وأحياناً فى وقاحة جريئة ، كما كان يدعو إلى نظرية « النشوء والارتقاء » أى التطور . وقد نقل إلى لغتنا كتاب بوخنر فى هذا الموضوع . وكان يسخر من الغيبيات فى كلمات لا يجرؤ غيره على استعمالها . ولما أصدرت مجلة «المستقبل» فى ١٩١٤ أيدنى وكان يكتب فيها بتوقيعه أو بلا توقيع ، وقد كتب فيها قصيدة « فلسفية » لم أفهم غايته منها ، وإلى الآن لا أفهمها .

وكان شبلى شميل مفكراً أكثر مما كان عالماً . وكان يقنع القارئ بعقله وليس بمعارفه . ولذلك عند ما نقرأ مخلفاته الآن نجد التفكير الرصين والأسلوب الرصين . وكان كثير من المعجبين به يستهويهم

أسلوبه وكان هو يردّ على ذلك بأن رصانة الأسلوب هى ثمرة الرصانة فى التفكير . وهذا حق . ولكنى مع ذلك كنت عند زيارتى له فى منزله أجد التوراة أمامه وأجد آثار التقليب فيها . وكنت حين أداعبه بأن مكافحته للغيبيات لا تتفق وهذا الغرام بالتوراة كان يجيب بأنه يحب بلاغة التوراة وأن اهتمامه بها لغوى أثرى .

وكان من حيث المزاج والتفكير بل المعيشة أوربياً متمدناً . وكان يحمل على عادات الشرق وتقاليده فى لهجة غاضبة . وكان متديناً شديد التدين بل متعصباً فى تدينه بالديانة البشرية . وظهر هذا التدين عند إعلان الحرب الكبرى الأولى فإنه بقى أسابيع وهو هائج كما لو كان قد استولى عليه نيوروز . وظنى أنه لو كان فى سن الشباب لتطوع لمحاربة ألمانيا لأنه عد هجومها هجوماً على المبادئ البشرية .

وهذه الديانة البشرية التى ذكرتها كانت أيضاً ديانة جميل صدقى الزهاوى . ولكن الزهاوى كان يعمل فى بغداد ، فى السر والظلام : فى حين كان شبلى شميل يجاهر ويعلن ولا يبالى . وحوالى ١٩٢٥ زار الزهاوى القاهرة مع السيدة زوجته . وسارع إلى السؤال عنى : وقضينا أياماً ونحن نلتقى ونتحادث فى كل شأن . وكان رجلا ضئيلا قد بلغ السبعين أو تجاوزها ، وكان يسير على ساقين ركيكتين تكادان تعجزان عن حمله . وكان أيضاً غربى الذهن على ذكاء خارق ولكن على معارف ناقصة فى العلوم العصرية . وقبل أن يغادر القاهرة سلم إلىّ مخطوطة هى ديوان يجمع عدداً من قصائده التى لو طبع بعضها لأدى إلى السجن . لأنها طعن وقح فى كثير من العقائد التى اصطلح الناس على تقديسها . وهذا الديوان ، بعد أن بقى عندى سنوات ، طلبه منى زكى أبو شادى ولا يزال عنده إلى الآن . ولا أظن أن

الظروف الحاضرة أو القادمة ، فى القريب ، ستؤذن بطبعه .

وقد تركنا زكى أبو شادى كى يعيش فى الولات المتحدة لأنه يعتقد أن الرجعية الفكرية قد خيمت على مصر فى هذه السنوات الأخيرة . وأن الأحرار ، لهذا السبب ، لا يستطيعون أن يتنفسوا فى الجو الخانق الذى سعى الإنجليز لإيجاده فى جميع أقطار الشرق العربى . ونحن نخسر كثيراً بغيابه عنا . فإنه أديب عالم وقد أخرج مجلة وألف كتباً خدمت مصر وبسطت لنا آفاقاً للتفكير العصرى . وهو يجيد الكتابة بالإنجليزية كما يجيدها بالعربية . وله عندى مؤلف باللغة الإنجليزية فى الديانة البشرية جدير بأن يوضع فى صف مع المؤلفات التى من نوعه فى أية أمة أوربية متمدنة .

وحين أراجع المعاكسات التى لقيها زكى أبو شادى والتى أدت أو أدى بعضها إلى تركه لمصر ،زيادة على موجة الرجعية التى اكتسحتنا هذه السنوات الأخيرة ، أجد أنها تعود إلى أنه متمدن . وأنه فى سلوكه فضلا عن لغته ، لا يبالى أن يكون عصرياً . وهذه العصرية تُنعى على بعض الأشخاص المتمدنين . والناعون هم على الدوام شرقيون تقليديون كارهون للحضارة العصرية . ولكنهم فى كراهتهم لايتشوفون إلى حضارة مستقبلية راقية أو أرقى مما نجد فى حاضرنا ، بل يرجعون إلى تقاليد وعادات تنافى العصر الديمقراطى وتنكر مبادئه . ومن هنا فرار زكى إلى الولايات المتحدة وكراهته لجونا الحاضر . وهذا هو ما يجب أن نأسف عليه جميعاً وأن نتأمل فى مغزاه كثيراً .

ومن الأحرار الذين عرفتهم محمود عزمى ، وهو الآن فى كهولته « معتدل » . ولكنه كان فى شبابه جريئاً واسع الآفاق بعيد الأمداء . وكان يجرى فى غلواء الشباب . دعوته ذات مرة فى أواخر ١٩٣٠

إلى أن يكتب للمجلة الجديدة مقالا فشرط على أن يكتبه بالحروف اللاتينية . وكان هذا قبل أن يناضل عبد العزيز فهمي باشا لأجل الخط اللاتيني بنحو خمس عشرة سنة . ولم ينزل عن رأيه إلا بعد مناقشات متكررة . وكان يدعو إلى القبعة ويعتمر بها فى شوارع القاهرة . وقل أن نجد كاتباً مثل محمود عزمى فى نصاعة تفكيره وصحة منطقه . وهو هنا يشبه كثيراً عبد القادر حمزة . ومن الملذات الذهنية أن يقرأ له الإنسان مقالا يناقش فيه الموضوعات السياسية مناقشة موضوعية فى تعقل بعيد عن الزخارف اللفظية أو الأوهام البلاغية .

وعندما أرجع بذاكرتى إلى كثيرين من الأدباء ، وبعضهم لا أحب أن أذكرهم ، وأتأمل المجهودات العظيمة التى بذلوها والنزعات النبيلة التى نزعوا إليها فى أول عهدهم بالكفاح الأدبى ، ثم كيف انتكسوا منهزمين راضين بالماضى بدلا من أن يقتحموا المستقبل ، عند ما أتأملهم ، أجد أن العيب لم يكن فيهم وحدهم وإنما هو أيضاً فى هذا القدر الذى حاطنا بظروف سياسية ، استعمارية أجنبية أو استبدادية داخلية ، تعاقبنا نحن الأدباء ، على التقدم والرقى وتكافئنا على التأخر والانحطاط . أجل ، هذا القدر القاسى الذى يهيئ لقوات الظلام فى مصر وفى أقطار الشرق العربى كى تخيم على دعاة النور وتطمس نورهم ، وقد انطمس كثير من النور .

التدابير الإنجليزية لفقرنا وجهلنا ومرضنا

لم يكتب تاريخ الجناية التى جنتها بريطانيا على مصر إلى الآن . لم يكتب لا تفصيلا ولا إجمالا . وهو حين يكتب سوف يقف الجمهور فى مصر كما تقف شعوب العالم خارج مصر على جنايات تتجاوز حدود الخيال . فقد هبت الأمة فى ١٨٨٢ بقيادة عرابى تطلب من الخديوى توفيق طلباً متواضعاً ، بالمقارنة إلى سائر الأمم ، هو الحكم البرلمانى . وبعد أن سلم الخديوى بهذا الطلب عاد فماحك فيه وانتهى إلى القول بأن مجلس النواب يستطيع أن يفعل ما يشاء إلا النظر فى الميزانية . ومعنى هذا أنه لا يستطيع شيئاً بتاتاً . لأن كل مشروع يحتاج إلى مال يدخل فى الميزانية وإذن يستطاع إلغاؤه ويعود البرلمان كما لو كان جمعية يتمرن أعضاؤها على الخطابة العقيمة الثرثارة . وإذا كان جائزاً لملك أو أمير أن يطلب مثل هذا الطلب من أمته لكان يجب فى ظروفنا فى ١٨٨٢ ألا يجوز مثل هذا الطلب من الخديوى فى مصر . لأننا فى تلك السنين كنا خارجين من سنوات الإفلاس للحكومة المصرية ، وهو الإفلاس الذى كان يرجع سببه إلى تصرف الخديوى السابق إسماعيل . وما زلنا نحن إلى الآن أى فى ١٩٤٧ نؤدى أقساط هذا الدين الأبدى .

كان الخديوى توفيق يصر على منع النواب من النظر فى الميزانية بتحريض الماليين أى الساسة ، لأن السياسة هى المال ، من الإنجليز والفرنسيين . فإن هؤلاء كانوا يوقنون بأن الدين المصرى ظلم فاحش واحتيال سافل . وكانوا يتوقعون من النواب المصريين عرقلة فى دفع

الأقساط . فكان لذلك خوفهم من الحركة الوطنية المصرية وتأييدهم لاستبداد الخديوى توفيق فى اصطدامه بعرابى .

وشخصية عرابى هى شخصية مقدسة فى تاريخنا ، شخصية الفلاح الناهض الذى لم يطق رؤية أبناء الأتراك والشركس والأرمن يمتازون على أبناء المصريين فى الجيش والإدارة . فثار على هذا النظام . ثم رأى أن النواب فى ثورة أخرى لأجل الحكم البرلمانى الصحيح . فاندغمت الثورتان ضد الخديوى توفيق وضد طبقة الأتراك والشركس .

ورأى الإنجليز الخطر على ديونهم التى أوقعوا فيها إسماعيل كما رأوا الفرصة سانحة كى يحتلوا مصر . ثم يحيلوها بعد ذلك إلى مزرعة للقطن تغنيهم عن الواردات الأمريكية من القطن كما يقفون أيضاً على قناة السويس وهى باب البحر المتوسط إلى آسيا . فكانت الحرب بين الإنجليز المستعمرين ، أى الساسة التجاريين والصناعيين ، وبين الفلاحين المصريين .

وكان يعاون الإنجليز فى هذه الحرب الغادرة عرب الصحراء والأتراك والشركس . ولم يكن يعاون الفلاحين أحد .

وانتهت الحرب بهزيمتنا أى هزيمة الفلاحين المصريين . ودخلت مصر ، سياسياً ، فى العصر الجليدى ومحى اسمها من التاريخ ووقف تطورها نحو خمسين سنة . وأعاد الإنجليز إلى الخديوى سلطته الاستبدادية وألغوا البرلمان . وأيضاً أعادوا حكم الأتراك والشركس والأرمن . كما نرى مثلا أن رياسة الوزراء لم تسلم إلى مصرى من أبناء الفلاحين منذ ١٨٨٢ إلى ١٩٠٨ أى مدة ٢٦ سنة تولى فيها هذه الرياسة أبناء الأرمن والشركس والأتراك وحدهم . وبقى الإنجليز بعد ذلك على هذه القاعدة كلما رأوا نهضة من الفلاحين . فإنهم كانوا يعمدون فوراً

إلى أحد أبناء الأتراك أو الشركس فيولونه رياسة الوزراء كي يحطموا به نهضة الفلاحين أى الحركة الوطنية .

ثم شرع الإنجليز فى مهمتين سلبيتين إحداهما منع التعليم فأقفلوا المدارس . وثانيتهما منع الصناعة فلم يأذنوا بإقامة مصنع . بل لقد أقمنا مصنعاً لنسيج القطن فى بولاق حوالى ١٩٠٠ اشتغل وأنتج الأقمشة فتعقبوه بالمعاكسات حتى أقفلوه وعينوا مديره الأرلندى فى وظيفة حكومية . ولا تزال أسسه قائمة . وقد حصلت من كامل صدقى (باشا) على أحد الأسهم التأسيسية لهذا المصنع الذى عمل الإنجليز على إفلاسه . ثم حددوا التعليم وصرحوا بأن المقصود منه إيجاد موظفين فقط للحكومة . وكانت مدرسة الطب محدودة العدد حتى أن خريجيها فى بعض السنين لم يكونوا يزيدون على ٦ أو ٧ أطباء فى العام كله . وكان أطباء الجيش المصرى يجلبون من لبنان من خريجى الكلية الأمريكية فى بيروت . وكانت حالنا مع ذلك أفضل من حال الهنود ، فإن هؤلاء كانوا محرومين من مدرسة للطب إلى ١٩٢٠ فلم يكونوا يتعالجون ، وهم ٤٠٠ مليون ، من أمراضهم إلا على أيدى الدجالين أو على أيدى الأطباء القليلين جداً الذين تعلموا فى أمريكا أو أوربا .

فتعقل هذا أيها القارئ ، تعقل وتدبر فى هذه القسوة وكيف كنا محرومين من الأطباء قبل ١٩١٩ إلا خمسة أو ستة تخرجهم مدرسة الطب كل سنة .

وكيف حرم الهنود حرماناً تاماً من مدرسة للطب إلى ١٩٢٠ .

وإنى أذكر فيما بين ١٩٠٠ و ١٩١٥ أنى لم أزر طبيباً مصرياً . لا أنا ولا واحد من أعضاء عائلتى . ولم أكن أسمع عن طبيب مصرى . إذ كان كل الأطباء الممارسين بالقطر المصرى أجانب من اليونانيين أو

الإيطاليين أو الإنجليز أو الفرنسيين . بل أكثر من هذا . ففى ١٩٢٧ كان على ماهر (باشا) وزيراً للمعارف ، وسنحت له فرصة فى إحالة الجامعة الشعبية إلى جامعة حكومية وكانت هذه الفرصة هى غياب المندوب السامى البريطانى جورج لويد . وجمع المختصين وصرح لهم « بأننا يجب أن نبادر وأن نؤسس الجامعة المصرية على أساس ثابت فى غياب اللورد لويد لأنه إذا جاء قبل أن ننتهى من هذا العمل فإنه سيعارض ويمنعنا من إيجادها » . وتلك كانت خطة الإنجليز لتبوير العقول المصرية .

وتم تأسيس الجامعة فى غياب اللورد لويد ، ولما عاد إلى مصر ووجدها قائمة كان ينتفض غيظاً وجزعاً .

وكانت همة الإنجليز المشئومة فى منع التعليم تتجه إلى البنات كما تتجه إلى الغلمان فإنهم منعوا التعليم الثانوى للبنات ولم نستطع إيجاد مدرسة ثانوية للبنات إلا فى ١٩٢٥ . وكانت وزارة المعارف ترسل بعثات إلى أوربا وتشترط على أعضائها ألا يلتحقوا بأية جامعة ، وإذا فعلوا فصلوا من البعثة وحرموا الإعانة المالية .

هذا من ناحية التعليم من حيث المنع أى من حيث تحديد الكم ؛ ولكن حملتهم المشئومة كانت تتجه أيضاً نحو الكيف . فكانوا مثلا يصرون على ألا تدخل بنت فى المدرسة السنية الابتدائية (أكرر كلمة ابتدائية) إلا وهى مبرقعة . كما كانوا يصرون على أن يكون معلم اللغة العربية معمما ، غيرة على التقاليد . حتى نبقى من دعاة الفعل الماضى نعيش فى الأمس .

أما من ناحية الصناعة فقد عرّفوا المصنع فى عام ١٩٠٤ بأنه : « محل مقلق بالراحة أو مضر بالصحة أو خطر » ولا يزال هذا التعريف قائماً إلى الآن . وهو يكفى لإقفال أى مصنع فى العالم . ولذلك لم يجرؤ

واحد على إنشاء مصنع إلى ١٩١٩ بل إنى أنظر فى جدول الصادرات والواردات فى ١٩١٣ فأجد أن الواردات إلى مصر كلها من السلع الإنتاجية أى الآلات لا يزيد ثمنها على ١٨٠٠ جنيه أى أقل مما يحتاج إليه مصنع صغير فى سنة واحدة .

واتجه الإنجليز إلى إحالة القطر المصرى كله إلى عزبة للقطن وانبعثت همتهم إلى زيادة محصوله بإيجاد المشروعات للرى حتى يتوافر فيشترونه رخيصاً ولا يخشون المزاحمة الأمريكية فى الأسواق العالمية . ولم يكن الإنجليز قط أمة زراعية فكان من العجب أن يفتونا هم فى الزراعة ويتسلطوا على حظوظنا فيها . والمتأمل لتاريخ وزارة الأشغال ووزارة الزراعة يجد أنهما كانتا تعملان وتشتركان لهدف واحد .

هدف واحد ليس له ثان هو زراعة القطن . الأولى تقيم القناطر وتخزن المياه وتشق القنوات والثانية تقوم بالتجارب لإيجاد سلالات جديدة من القطن تمتاز بها صناعات لنكشير فى انجلترا .

أما كيف نصنع قطعة الجبن أو كيف نزرع التفاح أو كيف نربى الدجاج أو كيف نزيد ثروة الفلاح ، فكل هذا لم يخطر قط بالأذهان المالية السياسية البريطانية . وقد أدى بنا هذا إلى أننا ، ونحن أمة زراعية كما زعموا ، كنا نشترى أقة التفاح بجنيه ونصف جنيه مدة الحرب الأخيرة .

والإنجليز فى جنونهم بزراعة القطن لم يبالوا قط بما سوف يؤدى إليه خزن المياه فى النيل ، وتوفيرها فى قنوات الريف من الأراضى . لم يبالوا أية مبالاة سواء بصحة التربة أو صحة الفلاحين أو الماشية أو النبات . فإن أى إنسان ، مهما يكن جاهلا ، كان يستطيع أن يفهم فى ١٩٠٠ مثلا أنه إذا استشبعت التربة بالمياه الوفيرة فإنها

ستملح وتقل خصوبتها ، كما أن الحشرات والديدان ستعيش فيها وتتكاثر . ولابد أن تفشو ديدان البلهارسيا والإنكلستوما والأسكاريس.

وقد فشت كل هذه الديدان التى لم نكن نعرفها فى ١٩٠٠ إلا قليلا جداً . إذ لم يكن بين الفلاحين ممن يحملون هذه الديدان فى أجسامهم تأكل لحومهم وتشرب دماءهم من ١٨٩٠ إلى ١٩٠٠ سوى ٢ أو ٣ فى المائة فأصبحوا الآن ، بفضل جنون الساسة التجاريين من الإنجليز نحو ٨٠ أو ٩٠ فى المائة . وأصبحنا أمة مريضة نحاول الآن أن نشفى فلاحينا من هذه الديدان .

ومحاولتنا إلى حد بعيد عقيمة لأن أساس الرى الذى وضعه الإنجليز فى جنونهم بزراعة القطن وهم أمة غير زراعية ، هذا الأساس ، لا يزال قائماً . ومياه الرى تعلو مستوى التربة .

وإنى أذكر حين كنت صبياً بين ١٨٩٥ و ١٩٠٠ أنى كنت ألعب مع الصبيان الفلاحين فى الريف فكنا نجد الأرض أيام الجفاف مشققة يبلغ عرض الشق فيها نحو ربع متر وقد يطول إلى خمسة أمتار أو أكثر ولا يقل عمقه عن نصف متر أو متر . وكانت الحشرات والديدان تموت فى هذا الجفاف . وكان الفلاحون يستمتعون بصحة عجيبة . وكان الفدان يغل عشرة قناطير أو اثنى عشر قنطاراً من القطن . وهذا كلام يكاد الفلاحون أنفسهم لا يصدقونه . ولكنى رأيته بعينى . وخصوبة الأرض متصلة ، كما يعرف جميع الذين مارسوا الزراعة وفطنوا إلى الأمراض الريفية ، بصحة الفلاح بل بصحة النبات والحيوان . ولكن طرق الرى التى أفشاها الإنجليز فى ريفنا أفسدتنا جميعاً ، ناساً وحيواناً ونباتاً وتربة .

تبوير العقول المصرية بمنع التعليم .
وإفقار الأمة بمنع الصناعة .
وتعميم الأمراض الدودية بالرى الوفير لزرع القطن .
هذه هى الخطط الأساسية الثلاث التى سار عليها الإنجليز فيما بين ١٨٨٢ و١٩١٩ . وكانوا يدبرونها فى عناية مع التبصر للمستقبل . فإنهم كانوا يمنعون تعليم البنات مثلا فى ١٩٠٠ كى لا تكون لنا عائلات متعلمة فى ١٩١٠ أو ١٩٢٠ . وكانوا يمنعوننا من إيجاد مصنع للقطن مهما صغر ، كى لا نستغنى عن أقمشة لنكشير بعد عشر سنوات . وكانوا يعارضون فى إنشاء جامعة كى لا تتفشى العلوم بيننا فتوقظ عقولنا الخ ...

وبهذا استطاع الإنجليز أن ينزلوا بنا إلى الحضيض جهلا وفقراً وعجزاً . ومع أنهم هم السبب الأصلى للجهل والفقر والعجز فإنهم كانوا يحتجون علينا بهذه النكبات الثلاث عندما كنا نطلب الاستقلال . فكانوا فى ١٩١٩ ، يذيعون فى أنحاء العالم أن القارئين فى مصر لا يزيدون على ٢ أو ٣ فى المئة وسائر الشعب غارق فى غياهب الجهل . وكان أحد مستشاريهم فى ١٩١٩ أيضاً يلوم علينا جهلنا وأنه ليس بين المصريين من يدرى عمليات البورصة .

ومما زاد فداحة الاحتلال الإنجليزى لوطننا فيما بين ١٨٨٢ و ١٩١٩ أن تلك الفترة كانت فترة الاستعجال والترويج للانقلاب الصناعى التاريخى ليس فى أوربا وحدها بل فى العالم كله . ونعنى فى العالم الذى لم ينكب بالاستعمار البريطانى . ولذلك كان تخلفنا عظيما جدا فى نتائجه . حتى أن ثورة ١٩١٩ ثم ما تلاها من تطور اجتماعى أو اقتصادى تكاد تعد من المعجزات ، أجل من المعجزات على الرغم من جميع العراقيل التى وضعها الإنجليز لمنع تطورنا :

ولو أن تطورنا سار سيرته الطبيعية من ١٨٨٢ إلى الآن (١٩٤٧) بلا تدخل أو احتلال الإنجليز ، ولو أن الخديوى توفيق نزل على رأى مجلس النواب ، لكانت مصر الآن فى مقدمة الأمم المتمدنة . مائة فى المائة من أبنائها يقرأون ويكتبون ويتعلمون فى نحو عشرين جامعة ونحو خمسين ألف مدرسة ابتدائية وثانوية . ولكان أجر العامل فيها لا يقل عن جنيه فى اليوم حيث كان يعمل فى نحو خمسين ألف مصنع مصرى . وكنا عندئذ نكون أمة قوية فى زاوية البحر المتوسط لا تجرؤ بريطانيا على أن تنطق بكلمة فى شأن قناة السويس .

وكنا نكون أمة متمدنة لنا ريف متمدن لا تخلو قرية من قرانا من نحو مصنعين أو ثلاثة مصانع تحيل المواد الخامة الريفيـة إلى مصنوعات عصرية .

كل هذا كان ممكناً لو أن أحداً لم يقف ضد مجلس النواب ويصر على أنه لا يجوز للنواب بحث الميزانية .

ولو أن الإنجليز لم يحتلوا مصر فى ١٨٨٢ .

وحتى بعد أن حصلت الأمة على الدستور فى ١٩٢٢ بقى الإنجليز على خطتهم القـديمة وهى مكافحة الحكم النيابى . فكانوا يتحينون الفرص لتزييفه ويختارون الرجال لتحطيمه . ولذلك بقى طراز الصراع الذى كان بينهم وبين الأمة فى ١٩٢٢ كما كان فى ١٨٨٢ بينهم وبين عرابى . وكانوا يبحثون عمن بقى من الأتراك والشركس كى يجعلوهم رؤساء للوزارات التى تناهض الحركة الوطنية الممثلة فى الوفد . فرأينا زيور يجمع البرلمان فى الصباح ويطرد أعضاءه فى المساء فى ١٩٢٥ كأن نواب الأمة غوغاء لا أقل ولا أكثر .

وأرجو القارئ أن يفهم أنى لست أشك فى وطنية أبناء الأتراك

والشركس فى مصر الآن فقد . اندغموا فى الأمة ونسوا الصراع القديم أيام عرابى كما نسوا لغتهم الأصلية . ولكن الإنجليز يحسون هذا الصراع القديم أكثر مما نحسه نحن ثم يسيئون فهمه أيضاً . وإن كان مثال زيور يدل على أنهم لم يسيئوا الفهم . فقد حاول هــذا المخلوق أن يحطم الحياة النيابية فى مصر ونجح فى تحطيمها سنين طويلة .

أخشى بعد أن سردت الكوارث التى أنزلها الاستعماريون الإنجليز بشعبنا أن يعتقد القارئ أنى أكره الإنجليز أو أن يؤدى ما ذكرته إلى أن يكره هو الشعب الإنجليزى . فإن هذا الشعب من أنبل الشعوب فى العالم . وما أستمتع به أنا من ثقافة أو قيم بشرية سامية يعزى معظمه إليه . وإنما أنا أكره الاستعماريين الإنجليز فقط . وهؤلاء الاستعماريون ينهبون الشعب البريطانى نفسه ويذلونه بالفقر والجهل كما كانوا ينهبوننا ويذلوننا . وليس الشعب البريطانى ثرياً إلى الحد الذى يتخيله وينتظره الإنسان حين يتأمل هذه الإمبراطورية الشاسعة . وصحيح أنه انتفع بموارد الإمبراطورية التى حركت الصناعة . ولكن معظم المنفعة يعود إلى الاستعماريين والاستغلاليين . وهم طبقة واحدة . أى أن الذين يستغلون العمال فى منشستر وجلاسجو وبرمنجهام هم أنفسهم الذين كانوا يستغلون المصريين والهنود والجاويين . وفى بريطانيا من الفقر ما ليس فى أمة لا تملك أية مستعمرات مثل سويسرا أونروج أو سويد . وقد ذكر هيوليت جونسون أن الصبيان الفقراء فى يوركشير (فى انجلترا) عندما عرض عليهم الموز رفضوا تناوله ولم يعرفوا كيف يؤكل لأنهم لم يأكلوه قبل ذلك . وكذلك فعلوا بالبيض . وذكر السر جيمس أور أن الذين يحصلون على الغذاء الكافى فى

إنجلترا لا يزيدون على النصف وأن سدس الأمة الإنجليزية مريض للنقص الغذائى .

ومرتب الكناس فى المجلس البلدى (من إحصاء فى ١٩٣٨) فى سويسرا هو ٢٢٣ جنيهاً فى السنة . وفى سويد ٢١٠ وفى دنمركا ١٥٠ . وليس لهذه الأمم مستعمرات . أما مرتب الكناس فى المجلس البلدى فى لندن فهو ١٤٥ جنيهاً فى السنة فقط . وأنى أقصد من ذكر هذه التفاصيل أن أبين للقارئ أن الشعب الإنجليزى برئ من الجرائم الاستعمارية التى يرتكبها دعاة الاستعمار والاستغلال وأن البرهان على ذلك هو فقر هذه الطبقات الدنيا فى انجلترا ، هذه الطبقات التى تعيش فيما يقارب الحرمان والمرض اللذين نقاسيهما نحن المصريين والهنود والجاويين من التسلط الامبراطورى البريطانى مع تفاوت فى الدرجة .

الشعب الإنجليزى شعب متمدن نبيل . ولكن الاستعماريين من الإنجليز أشرار بل أبالسة يجب ألا نذكرهم إلا باللعنات .

فلسفة وديانة

نعيش فى ضوضاء تلهينا عن الفلسفة ، أى تلهينا عن الدين ؛ لأن الفلسفة هى الدين . والرجل العصرى الذى يدرس الفلسفات والأديان بروح المتعلم يجد بينهما اختلاطاً يشبه الاندغام . وذلك لأن قضية الدين هى نفسها قضية الفلسفة ، وهى : كيف نفكر التفكير السليم ونعيش العيشة الطيبة ؟ ومقاييس الدين هى فى النهاية مقاييس الفلسفة ، كما نرى مثلا فى كلمة برنارد شو : إن الرجل الطيب هو الذى يعطى الدنيا أكثر مما يأخذ منها . أى إن الدنيا تجد بعد انقضاء عمره أنها كسبت به ولم تخسر ، وأنفقت عليه أقل مما ترك لها . وهذا الذى تركه لها قد يكون حكمة أوقدرة أو علما أو اختراعاً أو زيادة فى الثروة أو الخير أو السلام .

وهذا المقياس فلسفى دينى . ولذلك حين أتحدث عن فلسفة الحياة التى أعيش بها هذه الأيام وأنا فى الستين أو حواليها ، أجد أنها مزيج من الفلسفات والأديان . وصحيح أن الدين يطالبنا بالتسليم ، والفلسفة تطالبنا بالمنطق . ولكن ليست هذه الحال دائمة أو واضحة الحدود ؛ فإن فى الدين منطقاً كما أن فى الفلسفة تسليماً فى بعض الأحوال .

وقد يقال أيضاً إن فى الدين غيبيات وليس فى الفلسفة غيبيات . ولكن هل هذا صحيح ؟ ألسنا نقف مع أينشتين أو غيره إزاء غيبيات علمية حين يتحدثون عن الكون المتمدد الذى يدأب فى الاتساع الخواء ؟

إنى أذكر أنى ، حين كنت فى حمى المراهقة ، شرعت أسائل وأشك فى الغيبيات المألوفة . ولم تزدنى السنون من ذلك الوقت إلا يقيناً بالإنكار . ثم تطورت الفكرة الدينية عندى أو انتقلت من التسليم بالغيبيات إلى الإيمان بالقيمة الاجتماعية للدين أو الفلسفة وإلى تربية الضمير ، حتى تتغلب ، فى اللغة السيكلوجية ، الذات العليا على الذاتين الاجتماعية والحيوانية ، أى تتغلب القيم البشرية على القيم الاجتماعية والمادية .

وليس من السهل أن يكشف الإنسان عن ضميره الدينى كيف تكون ثم نما ثم تبلور فى قليل من الاتجاهات الأخلاقية الرئيسة ثم تجوهر فى اتجاه مفرد يجذب إليه كل ما فى الشخصية من نشاط روحى؛ ولكنى أذكر أنى ، وأنا دون العشرين ، أحسست أن نظرية التطور تأخذ مكاناً دينياً فى نفسى وأنها قد حملتنى واجباً روحياً . وقد نما هذا الواجب فى نفسى إلى واجبات . ذلك أن آفاق الحياة لم تتسع فقط بنظرية التطور ، بل زادت فى العدد واللون ، كما شسع بها تاريخ البشرية شسوعاً عظيما . ذلك أننا قد فهمنا من هذه النظرية أن كل حى على هذه الأرض لا يقل عمره عن ٧٠٠ مليون سنة . لأن كل إنسان قد كان فى وقت ما طينة نبضت بالحياة ، فإذا به فيروس ثم أميبة مفردة ثم أميبات متصلة متعاونة ، ثم حيوان رخو بلا رأس ، ثم سمكة ، ثم زاحفة ، ثم حيوان لبون ، ثم قرد ، ثم إنسان . ثم هذا الإنسان سوف يكون سبرماناً .

فهنا قرابة تطورية بيننا وبين الحيوان . وفى هذا معنى دينى جليل لأننا والأسود والكلاب والقياطس والسمك أبناء عمومة . وكلنا قد قطعنا على هذا الكوكب نحو ٧٠٠ مليون سنة . وقد انقرض بعضنا

وبقى بعضنا الآخر . ولكن مع هذا الانقراض وهذا البقاء يتجه التطور فى مجموعه نحو ما نفهم من الرقى البشرى : وجدان موضوعى يأخذ مكان العواطف الذاتية ، أى عقل يسمو على الغرائز . وإذن نجد أن للرقى البشرى أساساً طبيعياً . بل إن هذا الرقى مفروض علينا وواجب حتم بل واجب دينى بحيث يتطور الفرد وتتطور الأمة وتتطور الدنيا . ومن يعارض التطور ويدعو إلى الجمود يكفر لأنه يعارض الدين . وليس التطور كله منطقاً نستطيع أن نقيم عليه البرهان الناصع لأن فيه كثيراً من التسليم . ومن هنا كانت المشابهة بينه وبين العقائد الدينية . وليس من الضرورى ، كى يكون لنا دين أوضمير دينى ، أن نؤمن بالغيبيات ؛ لأن المعارف العلمية فى أيامنا تكسبنا نزعات دينية . فهناك رجال الثورة الفرنسية مثلا . فقد اشتطوا وألغوا الديانة المسيحية ، وأسسوا ما أسموه « ديانة العقل » . والإنسان العادى حين يقرأ تاريخهم ويصفهم الوصف المألوف يقول إنهم « كفرة » . ولكنا عند ما نتأمل سلوكهم نجد أنهم كانوا مسوقين بروح دينى ، بل أكثر من هذا بعقائد دينية . وهنا تعجبنى كلمة قالها ماتزينى الوطنى الإيطالى : « ليس هناك انتصار للروح البشرى أو خطوة ارتقائية للمجتمع البشرى إلا ومرجعهما عقيدة دينية راسخة . »

وفى سنى أجد أن مصادر ديانتى ، أو بالأخرى ضميرى الدينى ، إلى جنب البوذية والإسلام والمسيحية واليهودية والهندوكية ، تعود فى كثير من النور الذى أهتدى به ، إلى السيكلوجية والبيولوجية والأنثربولوجية والتاريخ . فإن هذه العلوم قد أفدت منها مغزى المأساة البشرية ، مأساة ماضينا وحاضرنا وآمالنا فى المستقبل . ولذلك كانت ديانتى موضوعية منطقية لا ذاتية عقيدية فقط .

ومع أنى نشأت فى المسيحية واحتضنتنى الكنيسة أيام طفولتى وصباى فإنها كانت فى تلك السنين الأولى من عمرى فى جمود لا يحمل على الحماسة أو يبعث الولاء أو يربى الضمير . وليس شك أن الكنيسة القبطية قد نهضت هذه الأيام ، وهى الآن غير ما كانت عليه قبل خمسين سنة .

وقد تغير إحساسى نحوها تغيرات مختلفة ؛ فقد عزفت عنها أيام الشباب لأن وطأة العلوم العصرية كانت شديدة على نفسى . ثم عدت إليها فى حنان فوجدت فيها تاريخنا المعذب الممزق ، ووجدت صوت الفراعنة ينطق عالياً من منابرها . فأصبحت الكنيسة القبطية عندى كنيسة قومية مصرية . ولكن لم يكن هنا دين إذ كان كل هــذا إحساساً تاريخياً .

أجل ! قد يقال هذا القول ، وأنا أسلم بصحته إلى حد ما ؛ ولكن الإحساس التاريخى ينطوى أيضاً على إحساس دينى . ولست أشك أنى حين انكببت على دراسة الفراعنة ، إنما كنت أنبعث بروح دينى قومى . والدراسة الصحيحة للتاريخ يجب أن تكون موضوعية علمية كما يدرس أى علم . ولكن قلما نستطيع ذلك إذا كنا ندرس تاريخنا القومى .

وقد عرفت حوالى ١٩٣٥ المرحوم كامل غبريال (باشا) ، وكان قد درس اللغتين القبطية والفرعونية ، وحاول أن يحملنى على درسهما . ولكن سنى المتقدمة حالت دون ذلك . وقد نهضت هذه اللغة فى بعض الأوساط القبطية ، ولكنها لم تبلغ المكانة التى بلغتها اللغة العبرية بين اليهود ، أى أن تصير لغة التخاطب والتفاهم بل التأليف . فإن اليهود الصهيونيين قد انقلبوا إلى عبرانيين وأحيوا لغتهم التى

كانت قد انقرضت حتى فى أيام المسيح . وظنى أنهم يخسرون بذلك ؛ لأن هذه اللغة لن تتسع للثقافة العصرية . كما أن الأرلنديين الوطنيين قد خسروا أيضاً بإحياء لغتهم القديمة ؛ لأن اللغة الإنجليزية خير لهم ، ولو أنها لغة الفاتحين الغاصبين ، من لغتهم التى لن تتسع للثقافة العصرية .

وما زلت أذكر الأثر السيكلوجى فى صديقى كامل غبريال (باشا) ؛ فإنه لتعلقه بلغة الفراعنة صدّ عن المسيحية باعتبارها ديانة أجنبية قد طردت الديانة المصرية القومية . وكان كثيراً ما يعقد المقارنات بين عقائد الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) وبين عقائد الفراعنة ، كى يقنعنى بأفضلية الثانية على الأولى من حيث الأخلاق السامية والقيم البشرية العالية .

وقد كان أثر العقليين كبيراً جداً فى نفسى ؛ حتى إنى لخصت أحد الكتب التى كانوا ينشرونها وهى « نشوء فكرة الله » لجرانت ألين . وأصدرت هذا التخليص فى نحو ثلاثين أو أربعين صفحة فى مصر حوالى ١٩١٢ . ويرى القراء هذا الكتيب ضمن كتابى « اليوم والغد » . وقد كان هدف المؤلف أن يثبت تسلسل الأديان ، وأن التوحيد الحاضر يرجع إلى الأديان القديمة . ولم يكن جرانت ألين مصيباً فى جميع افتراضاته ، ولكنه استهوانى فى تلك السنين للنظر المادى الذى اتبعه فى تفسير الغيبيات . وبعد ذلك عرفت « الغصن الذهبى » لفريزر . وهو موسوعة رائعة للعقائد القديمة وتسلسلها إلى أيامنا تحت أستار مختلفة . ثم زادنى نوراً تلك البحوث المتشعبة التى قام بها أليوت سمث وزملاؤه فى إيضاح الأثر الذى تركته العقائد المصرية القديمة . وهذه المؤلفات لفريزر ، وأليوت سمث ، مع تناقضها أحياناً ، هى تربية

خصبة وتثقيف سام لكل من يدرسها . ولا يستطيع إنسان أن يصف نفسه بأنه مثقف إلا إذا عرفها . ولكن اهتماماتى بهذه الدراسات وقتئذ لم تكن دينية بل كانت تاريخية .

على أن اهتمامى بالدين بدأ وأنا حوالى الأربعين . ذلك لأن النضج الدينى ، مثل النضج الجنسى ، لا يأتى إلا فى ميعاد . فقد شرعت أقرأ الكتب المقدسة جميعها فى عناية ، وأشغل نفسى بالمشكلات الدينية الهندوكية . وكنت أجد فتنة فى أنبياء التوراة بل فى أسلوب التوراة . كما أنى وجدت أن القوة الجاذبية فى شخصية المسيح كبيرة جداً . وقد مضى على نحو عشرين سنة وأنا أحلم بتأليف كتاب عن شخصية المسيح بحيث أكتب فى حرية الضمير مع إيمانى به وحبي له . ولكنى كلما كنت أفكر فى الالتباسات ، التى سوف تنشأ بينى وبين بعض القراء ، كنت أنكص وأنا فى أسف ومرارة . لأنى أكره أن أؤلم المطمئنين المستقرين الذين قد لا يجدون الطمأنينة واليقين فى السيرة التى أرويها ، مخلصاً ، أنشد الحقائق ولا أبالى غيرها . وموقفى هنا هو موقف تولستوى ورينان .

ومن الأخطاء الصغيرة الخطيرة التى ارتكبها المترجمون للإنجيل إنهم يذكرون الله على لسان المسيح بكلمة « أبى » . ولكن الحقيقة أن المسيح كان يسمى الله باسم أبّا أى « بابا » وهى كلمة التحبب والأدلال ، كلمة الأطفال . وذلك لإحساسه العميق الحميم بأبوة الله أبوة حقيقية . ومن هذه البوءرة العاطفية تشع سائر عواطفه فى التحيز للفقراء والمساكين وفى الإحساس بأن البشر جميعهم عائلته لأن « بابا » لا ينسى واحداً منهم .

وشخصية المسيح هى بعد كل ذلك شخصية مقلقة . فإن كل أمثولة

من أماثيلة تبعث على التفكير المقلق المثمر . إذ هو يثير بها المشكلات البشرية العديدة التى تنزعنا من القيم الاجتماعية الزائفة إلى القيم البشرية الصميمة . وحياته الرائعة ، ثم مأساته المؤلمة ، كلتاهما دعوة إلى البر والشجاعة والشرف والتضحية . ولا يتمالك المتأمل للإنجيل مع الوجدان بأن الضمير المسيحى يقتضى النظام الاشتراكى . لأن هــذا النظام هو التطبيق العملى للأخلاق المسيحية . والمسيحة تعد ، فى هذا المعنى ، ديانة الكفاح وليست كما يتوهم البعض ديانة الركود .

ولست أشك أن الرجل المسيحى فى دنيانا هذه وفى عصرنا هذا هو المثال الأسمى فى الأخلاق . وهناك كثيرون يعيشون الحياة الطيبة ، أى الحياة المسيحية كما أرادها المسيح الذى دعانا من ناحية إلى أن نكون كالأطفال فى السذاجة والاستطلاع والبعد عن الشر ، أى أن تكون القيم التى نعمل بها قيما بشرية ، نحب الأشياء التى يحبها الأطفال : نحب اللعب ونحب الزهر ونحب كل شىء حسن يرجع حسنه إلى قيمته الأصلية لا إلى القيمة التى يفرضها المجتمع . ثم دعانا من ناحية أخرى إلى أن نخشى مديح الناس . بل قال : ويل لكم إذا أثنى عليكم الناس ! وهنا دعوة إلى الاستقلال الفكرى أو الروحى ، استقلال الضمير ، حتى نعمل ما يوحيه إلينا الشرف دون مبالاة لاعتبارات المجتمع . وقد يكون هؤلاء مع ذلك غير مؤمنين الإيمان الرسمى بالمسيحية . إذ ليس من الضرورى ، كى يكون للإنسان ضمير دينى ، أن يؤمن بدين معين . فإن جميع الأديان سواء من حيث إنها تنشد الحياة الطيبة .

وأذكر هنا أن نحو ستين عضواً من جمعية الشبان المسيحية كانوا

يصطافون فى صحراء العريش فى سنة ١٩٣٧ ، وكان بيننا المسلم والمسيحى واليهودى والبهائى . فكنا فى الصباح نقرأ قطعة من القرآن أو الإنجيل أو التوراة مناوبة . وكان البهائى يجد فى كل واحد من هذه الكتب كتاباً مقدساً له . وكنا نجد نحن فى جميع ما يقرأ لنا من أى كتاب منها دعوة صالحة توحى الخير والشرف والحياة الطيبة والحب . وقد وجدت أن الجمع بين هذه الكتب والاختيار منها على مبدأ المساواة قد بعث على التفكير الدينى البار بين الأعضاء وربط بينهم برباط دينى محايد أى غير متحيز . حتى لقد انتحى بى بعض الأعضاء وسألونى : لم لا يفعل جميع البشر مثلما نفعل نحن هنا فى العريش ؟ أى يضعون جميع الكتب المقدسة فى جميع المعابد .

وأذكر أنى نصحت لهم بأن يقرءوا حياة السلطان أكبر الهندى الذى تولى الحكم فى القرن السادس عشر ؛ فإنه عقد مؤتمراً من الأئمة والكهنة من المسلمين والمسيحيين واليهود والهندوكيين وطلب منهم أن يتفقوا على ديانة جديدة موحدة من هذه الديانات الأربع . وقد أخفق المؤتمر لأن الأعضاء ، كما ينتظر ، لم يتفقوا . ولو أنه كان قد اختار أعضاء هذا المؤتمر من المدنيين دون الدينيين لكان هناك مجال للظن بالنجاح . بل لقد قيل إن السلطان أكبر هذا قد تزوج أربع نسوة : إحداهن مسلمة والثانية هندوكية والثالثة مسيحية والرابعة يهودية . وذلك كى ينشأ أبناؤه على أساس من الحب الذى يدعمه التقارب الدينى . وقد عاشت أسرته جملة قرون وهى لا تعرف معنى للتعصب فى الهند بين المسلمين والهندوكيين . فكان الصليب يعلق فى الغرفة التى يأتى إليها القارئ فى الصباح كى يقرأ إحدى سور القرآن ، وكان المبشرون من اليسوعيين يقعدون فى حضرته إلى جنب كهنة

اليهود . وقصة أكبر هى إحدى قصص القداسة الهندية التى نرى لها صورة أخرى فى عصرنا فى غاندى .

وجميع الكتب المقدسة سواء عندى . ولكنى أضيف إليها عشرات من المؤلفات الأخرى فى الفلسفة والأدب . ولذلك أقول إن بعض ديانتى يرجع أيضاً إلى « جمهورية أفلاطون » وإلى « الإنسان والسبرمان» لبرناردشو ، وإلى مؤلفات جان جاك روسو ، وتولستوى ، ودستويفسكى ، وإلى أخناتون . فقد زودنى هؤلاء جميعاً بهورمونات دينية . وقبل نحو خمس عشرة سنة شاعت دعوة فى أمريكا وأوربا إلى ما يسمى « البشرية » . وهى ديانة تستبعد الغيبيات ، وتؤمن بالرقى البشرى القائم على التطور . وهى تعتمد على الكتب المقدسة وكتب الأدب والتاريخ والفلسفة . وقد وجدت فيها إغراء كبيراً .

ولكن ما أحب أن أوضحه للقارئ هو أن الدين عندى كان تربية بطيئة لم أصل بعد إلى نهايتها ولكنى فى سبيلها . والدين كالفلسفة أو الأدب نأخذ منها بمقدار ما ورثنا من كفايات وامتزنا به من أوساط تعلم وتربى وتوجه . وهنا يغير كالفين هذا التعبير فيقول : إننا إنما نفهم من الدين بمقدار ما وُهبنا من نعمة الله .

وقد كان نفورى أيام شبابى من الغيبيات علمياً منطقياً ، ولكنى أنفر من الغيبيات الآن لأسباب اجتماعية . لأنها ، أى الغيبيات ، جبرية ليست فيها حرية الماديات . أى إن التفكير المادى حر متطور ، أما التفكير الغيبى فقيد جامد : ونحن نتحرر بالأول ونتقيد بالثانى .

ولكن الفلسفة ، أى الديانة ، ضرورية لكل إنسان . والرجل ، إذ يقول إنه ليس له ديانة ، هو كما يقول برنارد شو ، إنما يقول إنه ليس له شرف : ونحن حين نستقطر العلم أو الأدب أو الفلسفة

أو الفن كي نجد لها كلها غاية ، إنما تنشد بهذه الغاية ديانة نعيش بها أي دستوراً روحياً وأخلاقياً يعين علاقتنا بالطبيعة والكون والإنسان والمستقبل . ونحن نحس الحاجة إلى هذا الدستور وهو ليس دستوراً جامداً إذ اهو يتغير ويتطور كلما تقدمنا في السن وازدادت بصيرتنا نوراً .

ولما شرعت أدرس السيكلوجية وجدت ناحية من الدين لم أكن قد التفت إليها ، هي سلام النفس . فإنه ليس شك في أن المتدين يحس سلاماً ويجد ابتهاجاً يحرم منهما غير المتدين . ذلك أن المتدين يثق بالكون ، وكأنه يحس أنه ، أي الكون ، لن يخونه ، حتى حين يصطدم بالمصاعب . أو قل إنه يعيش في وسط أوسع كما أن آفاقه تمتد إلى آماد أبعد . ونستطيع أن نزن هذا الموقف حين نتخيل غاندي إزاء الجبال من المصاعب التي يلاقيها . فإنه في كل حياته أكثر اطمئناناً وأعمق ابتهاجاً من أي إنسان آخر ، مع أنه يواجه من المصاعب أكثر مما يواجه كل إنسان آخر . وليس غريباً بعد هذا أن تكون للدين ، أي الفلسفة ، قيمة سيكلوجية عظيمة ؛ لأنه يؤدي إلى استقرار النفس ويحول دون التزعزع الذي قد ينتهي بالتحطم . وعندما نتأمل مرضى النفس نجد أنهم لم يتردوا في الهوة إلا لأنهم استسلموا إلى قيم وأوزان مخطأة . هي في الأغلب قيم وأوزان اجتماعية انساقوا فيها وأرهقوا بها حتى حطمتهم . وأنهم لو كانوا على فلسفة حسنة ، وعاشوا العيشة الطيبة التي يوحيها كل دين في العالم ، لكانوا قد أخذوا بقيم وأوزان دينية تتيح لهم سلام النفس الذي فقدوه .

ولا بد أن القارئ سيسائل : أليس هناك فرق بين الدين والفلسفة ؟ وهل أنا محق في التحدث عنهما باعتبارهما وحدة ؟

وجوابي أني لا أعرف أمصيب أنا أم مخطئ ، ولكني هنا أذكر

إحساسى ، وإذا شئت التميز بينهما فإنى أقول إن الإحساس الدينى هو طرب الحب ، حب الطبيعة وحب الحيوان وحب الإنسان بل حب الحياة والكون . أما الإحساس الفلسفى فهو تأمل الفكر . ولكن الحقيقة أنهما يندمغان عندى ، وإن كان أحدهما قد يتغلب على الآخر فى بعض الظروف ، وأن هذا هو إحساس غاندى : تأمل فكرى وطرب عاطفى معاً .

وكثير من كفاحى الثقافى ، بل أحياناً السياسى ، قد سرت فيه بتأمل الفكر وطرب الدين . والتأمل يطلب السكون فى حين يستفزنا الطرب إلى الحركة . فإذا مزجنا الدين بالفلسفة وجدنا الكفاح . ولذلك لم أعرف قط ذلك البرج العاجى حيث استسلم للتفكير بعيداً عن المعركة . إذ أنى لا أكاد أنتهى إلى فكرة بالتأمل حتى يعمنى الطرب فأنشط إلى الكفاح .

وقد قلت إن ديانتنا وفلسفتنا تتكون أولا ثم تتبلور ثم تتجوهر . وعندى أن هذه هذه النهاية ، هذا التجوهر هو الحب . وقد انتهت جميع الأديان إلى هذا الموقف ، كما انتهت السيكلوجية إليه أيضاً . والحب هو اتجاه وسلوك ، هو الاستطلاع الدائم للكون والرغبة النهمه فى المعرفة ، ثم هو التعاون والتسامح . وهذا الحب هو أيضاً ما انتهى إليه الصوفيون المسلمون مثل محى الدين بن عربى حين يقول :

قد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وفى هذه الأبيات الأربعة قد استقطر ابن عربى روح الدين .

ومن الحسن أن تذاع مثل هذه الأبيات الذهبية وتعلق فى بيوتنا إلى الجدران ، وخاصة فى هذا الشرق العربى الذى يجب أن تتعانق فيه الأديان الثلاثة عناق الحب . ومثل هذه الأفكار الإنسانية نجدها أيضاً فى المعرى حيث يقول وإن يكن موقفه سلبياً :

إذا الإنســـان كف الشر عنى　　فسقياً فى الحيـــاة له ورعيا
ويدرس ،إن أراد، كتاب موسى　　ويضمر ، إن أحب ، ولاء شعيا

ما الدين صوم يذوب الصائمون له　　ولا صلاة ولا صوف على جسد
وإنما هو ترك الشر مطرحـــاً　　ونفضك الصدر من غل ومن حسد

ولكن يجب أن أقول إن ديانتى ، من الناحية الغيبية ، تشبه بل تطابق ديانة سبينوزا . أى إن المادة والقوة شىء واحد ليس بينهما انفصال . وكذلك الشأن فى العقل والجسم .

وليست هناك نهضة عالمية ، كالثورة على المظالم أو التجديد للمبادىء أو الدعوة إلى الإخاء والمساواة والحرية ، إلا وهى تسير على الأسلوب الدينى . حتى لتتجاوز المنطق إلى الإيمان ، وتسرف وتشط فى ناحية الغيرة والتضحية والحب ضد الأنانية والاستئثار والبغض . فهى ملهمة بالروح الدينى ، ولن تنجح إلا به . ولذلك كثيراً ما نجد الدعوة إلى الاشتراكية الحزبية تستحيل إلى دعوة دينية عالمية تغمرها الحماسة ويتغلب فيها الإيمان . وحركتنا نحن فى مصر فى سنة ١٩١٩ لم تنجح إلا بمقدار ما كان فيها من الحماسة

والإيمان أى بمقدار ما كان فيها من طرب الدين . وهى لم تتقهقر إلا بمقدار ما فقدت من هذا الطرب الدينى بتفشى الأنانية والاستئثار والبغض .

ولن تعود دعوتنا الوطنية فى مصر ، دعوة الحرية والأخاء والمساواة إلا إذا أحدثت لنا ، كما كانت تحدث فى سنة ١٩١٩ ، طرباً دينياً يتألف من الحماسة والإيمان والحب والتضحية .

وأخيراً يجب أن نقول حين نتكلم عن ديانتنا ، كما يقول أندريه جيد « لست كائناً أبداً ؛ إنما أنا صائر » . وبكلمة أخرى يجب ألا نجمد ونستقر ، بل ننمو ونتطور ، وندأب فى استخلاص الحقيقة من المعرفة .

هذا العمر

سن الستين أشبه الأشياء بالقمة نقف عليها فى سياحتنا على هذا الكوكب ونسائل : ماذا أفدنا من الماضى ، وماذا ننتظر من المستقبل ؟ وفى أعماق العقل الكامن وسوسة كأنها لغط فى النفس : سن الستين هى سن الإقالة ؛ يجب أن تقال أنت من الحياة .

وفى هذا العام ١٩٤٧ الذى أتم فيه هذه السن أجدنى قد أخرجت كتاباً « كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » وكأنه احتجاج على الشيخوخة ، ولو أن مىّ كانت حية لقالت لى على عادتها : ها أنت ذا تتشاءم وتحاول أن تتفاءل ، تحس الضعف فتتخذ القوة .

ولكنى كنت أجيب بأنى ما زلت أحس حماسة الروح بل غلواءه ، وإنى أستطلع الدنيا كما لو كنت طفلا . وحسبى هذا برهاناً على أنى بعيد عن الشيخوخة .

وأعود إلى أيام الطفولة والصبا بل الشباب أيضاً ، فأجد أنى ، من حيث التعلم المدرسى أو الجامعى ، عشت فى صحراء لم أنتفع بشىء منها . وإنما كان انتفاعى بما كسبت من تربيتى الذاتية : من جامعة الكتب فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، ومن سياحاتى فى أوربا ، وأخيراً ، ولهذا أكبر قسط فى تربيتى ، من اختباراتى الشخصية . وقد تكون الفترة التى عشتها وأنا على وجدان يقظ بالحوادث فذة من حيث إنها فترة الانتقال من مجتمع الأمس إلى مجتمع الغد . ومن تحول الإنتاج من النظام القروى الزراعى إلى النظام المدنى الصناعى ، ومن الغيبيات إلى الماديات . والحق أنى لا أكاد أعرف عصراً تجمعت فيه

عوامل اقتصادية واجتماعية انقلابية مثل عصرنا هذا . فإن الفترة التي تقع بين ١٩٠٠ و ١٩٥٠ هي تاريخ بشرى يزيد فى مغزاه ونتائجه للمستقبل على القرون التى تقع بين ٥٠٠ و ١٥٠٠ . أجل ! لقد عشنا بسرعة فى هذه الفترة بل هرولنا نحو المستقبل . وهناك من تخلفوا لأنهم لم يطيقوا هذه السرعة أوالهرولة ، فلهثوا وعرقوا ثم قعدوا وبعد أن قعدوا واطمأنوا أخذوا يحفظون عن « ظهر قلب » قواعد الفعل الماضى فى حين بقينا نحن فى الهرولة نحو المستقبل . وليس شك فى أننا نعثر ؛ ولكن العثار مع السعى خير من السلامة مع القعود والركود .

والتربية الحقيقية ، وهى ثمرة العمل لكل إنسان ، هى فى النهاية اختباراته طوال حياته . وليست هذه الاختبارات هى ما يقع لنا بل هى الرجوع والاستجابات لما وقع لنا . ونحن نختلف كثيراً فى هذا ؛ فإن هناك من يستجيبون بالصدود والاعتزال ، وهناك من يستجيبون بالإقدام والمكابدة . وهؤلاء هم الذين ينتفعون بالاختبارات . أما المعتزل الذى يؤثر السلامة بالصدود والاعتزال والإحجام والانكفاف فهو ميت حتى لو طال عمره إلى المائة ؛ لأن الحياة لا تقاس بالطول وحده إذ أن لها عرضاً وعمقاً أيضاً ، ولا يكون لها العرض والعمق إلا بأن ننغمس فيها ولا نقف على ساحلها متفرجين بل نقتحم عبابها ولو تعرضنا بذلك للموت المبكر .

وفى كل حياة من المصادفات ما يعد حسناً أو سيئاً ، وبعضها يقود إلى النمو والخصب ، وبعضها يؤدى إلى البوار والدمار . ومصر نفسها مصادفة سيئة لكل مصرى من حيث إنها مأساة جغرافية . إذ هى تقع فى ملتقى القارات الثلاث الكبرى ؛ كما أنها تقع فى طريق الملاحة

بين آسيا وأوربا . ثم هي فوق ذلك تخلو من الجبال التي تيسر الدفاع ؛ ولذلك وقعت في أسر الغزو المتكرر . وكان آخر غزاتها هؤلاء الإنجليز الذين أحالوها إلى عزبة للقطن ومنعوا عنها الصناعة والتعليم ، وأيدوا الرجعية وضربوا أبناءها المخلصين الثائرين على الاستبداد ، وعمموا فيها الفاقة والجهل والمرض .

ونحن المصريين جميعاً سواء في هذه الكارثة ، كارثة هذه المصادفة التاريخية بغزو الإنجليز لوطننا وبقائهم فيه أكثر من ستين سنة ، يفرضون علينا القيود ويقيمون السدود ويحالفون الرجعيين لقمع الروح المصرى . وكثير مما عانيته في حياتي من المصادفات السيئة التي عطلت نشاطي وبعثرت قواى يرجع إلى هذه المحالفة القائمة بين الرجعيين المصريين والمستعمرين الإنجليز فيما اتفقوا عليه من قيود للحرية كانت تضطرني إلى أن أدرج بدلا من أن أطير . بل كانت تضطرني أحياناً كثيرة إلى أن أقعد بدلا من أن أدرج . وهناك من الكتّاب في مصر من استسلموا لهذه القيود وارتضوها ، بل صاروا يخيفون الجمهور من الحرية وينعون ما فيها من استباحات تؤدى إلى أخطار . ولكني لم أدخل قط في معسكرهم إذ لا أطيق العمل في هذا الجو الخانق للضمير والذهن .

أما مصادفاتي الحسنة التي أخصبت حياتي فكثيرة ، أذكرها بالشكر للأقدار التي هيأتها لى . وأولها وأكبرها قيمة أنى لم أعرف قط الحاجة المالية الملحة ، وكذلك لم أعرف الترف المخدّر . فأنا أتمتع بذلك القلق الذي يبعث على الاهتمام اليقظ المنبه ، ولكنه قلق لا يؤدى إلى الهم المرهق المجمد . ثم صادفتني مصادفة حسنة أخرى هي أني عرفت اللغتين الفرنسية الإنجليزية في سن مبكرة . وقد وصلتا بيني وبين الثقافة العالمية العصرية . ولذلك ارتفعت اهتماماتي من المشكلات

« القروية » الصغيرة التى تحفل بها صحفنا من جرائد ومجلات إلى مشكلات عالمية بشرية منبسطة الآفاق .

ثم هناك مصادفة أخرى مؤلمة للعالم منبهة لرجال الذهن . فإنى عشت عمرى فيما بين ١٨٨٧ ، ١٩٤٧ فى عصر انقلابى انفجارى رائع من حيث الاكتشافات والاختراعات والثورات ؛ لأنه عصر المعارك التاريخية والصراع الخطير بين مجتمع آفل وبين مجتمع بازغ . كأن حوادث ألف سنة قد تجمعت فى بؤرة زمنية ، كما يتجمع ضوء الشمس من العدسة . فصرنا نرى الانقلاب تلو الانقلاب ، والعالم يعانى الآلام من هذه الانقلابات التى تنبه المثقفين إلى الدرس وتحرك ذكاءهم وتبسط لهم رؤيا زاهية للمستقبل لا يراها غيرهم فى السعادة القادمة من خلال المخاض الحاضر وآلامه .

وعندما أعرض لحياتى الماضية أجدنى ممتازاً امتيازاً واضحاً جداً بصفة طفلية هى الاستطلاع . وهذا الاستطلاع يحطم القيود التى وضعها العرف أو كثيراً منها ، فيتسع ميدان الاختبارات ويزيد بذلك الوجدان . وهذا الاتجاه نفسه ، أى الانتفاع بالاختبارات ، يغير القيم والأوزان بحيث إن ما يعده غيرى نكبة قد أعده أنا نعمة لأن له قيمة لا يراها هو فى التربية والتنوير والنمو . فقد وقعت بى كوارث وأحزان أحمضت حياتى فترة . ثم اكتسبت من الكوارث نوراً وحكمة ، كما اكتسبت من الأحزان حناناً ورقة ، لا أحب أن أفقدهما . أجل ! لقد تضورت من الألم حين مات ابن أختى وهو فى السنة الأخيرة بكلية الطب ، وبقيت فى نفسى لوعة تمزقنى كلما ذكرته . ولكن هذه اللوعة قد استحالت بالزمن إلى حنان رخيم لا أحب أن أفقده . وكذا الشأن فى جميع الأحزان الماضية تطفئ كيمياء الزمن نارها وتحيلها إلى ذكريات

رفيقة تؤنس ماضينا . ولذلك أكنز هذه الذكريات وأستثيرها بعد عشرين أو ثلاثين سنة للذة لا للألم ، مع أن وطأتها حين وقوعها كانت بمثابة الصدمة التى تذهل وتجمد .

وأظننى أمتاز أيضاً بعقل حر مفتوح يحسن الضيافة للآراء الجديدة . وليس لى فضل فى هذا ، وإنما الفضل للغتين الإنجليزية والفرنسية اللتين أتاحتا لى الاتصال الدائم بالثقافة الأوربية العصرية . وهى تمتاز بالحرية المستفيضة كما يمتاز المجتمع الأوربى بحرية واسعة لا يعرفها المجتمع المصرى . ومن هنا أصبحت ثقافتى ارتيادية أتحسس الجديد فى الآراء وأعرضه على مجتمعنا كى أوقظه إلى الحياة العصرية . ومن هنا كان ما يبدو من أنى يسارى متطرف ، مع أنى لو كنت فى مدينة أوربية لكنت أعد عادياً ليس بى أى تطرف . وليس شك أن بعض اتجاهى هذا يعود إلى أنى مسيحى لا أحس أنى مقيد بتقاليد الأكثرية فى مصر .

ولو سئلت ما هو « بيت القصيد » أو « إيماءة حياتى » كما تبدو من مؤلفاتى وسيرتى واتجاهى ، لقلت إنها الحرية . فإنى أحب عرابى وفولتير لدفاعهما عن الحرية كل فى ميدانه . وقد ألفت كتابين عن حرية الفكر . وأحب كتاب « الجمهورية » لأفلاطون و « الإنسان والسبرمان » لبرنارد شو ؛ لأنهما يتجردان من التقاليد فى بحث « التأصيل » البشرى . وأحب إبسن فى « بيت عروس » لأنه يبسط آفاقاً جديدة للحرية فى شخصية المرأة .

وأنا الآن فى الستين أعد نفسى صائراً ولست كائناً كما يقول أندريه جيد . ولذلك أعنى بأن أتعلم كلمة جديدة أو أشرع فى دراسة علم جديد أتغير أو أتطور به . وفى هذه الأيام مثلا أجد أنى مزحوم

بدراسات كثيرة ، منها هذه السيمية أى علم اللغة من حيث صحة التعبير وملاءمته . كما أن اهتماماتى بالسيكلوجية والتطور والاجتماع تجعلنى أشكو قلة الفراغ . وفى العالم الآن ثقافة جديدة قد تجرثمت فى بداية هذا القرن وهى الآن تتبلور وتتجوهر ، هى ثقافة عالمية غير وطنية أحس أنى من أبنائها ودعاتها . وقد أثبتت لنا القنبلة الذرية ضرورة الاتجاه العلمى وخطورته معاً ؛ لأن الحضارة القائمة ، حضارة السادة على هذا الكوكب ، هى حضارة العلوم المادية ، والأخطار القائمة هى أخطار العلوم المادية . ولذلك فإن الأمة التى تهمل العلوم إنما تهمل حياتها . وقد حاولت فى مصر طيلة حياتى الماضية أن أعمم التوجيه العلمى بمؤلفات شعبية مختلفة . وكثيراً ما نبتت الخصومات بينى وبين بعض الكتاب على هذا الأساس ، أى إنى كنت أتنقص قيمة مؤلفاتهم لأنها لم تكن تتجه الاتجاه العلمى أو على الأقل كانت تتجاهل الأسس العلمية وتستسلم لمزاعم غيبية تافهة . ولذلك تعد مؤلفاتى من أدوات التطور الذهنى فى مصر ، وليست كذلك مؤلفات كثير من الكتاب الذين عاصرونى . ففى الوقت الذى كنت أؤلف فيه عن « العقل الباطن » أو « نظرية التطور وأصل الإنسان » أو « البلاغة العصرية واللغة العربية » أو « حرية الفكر » ثم « حرية العقل » أو « غاندى والحركة الهندية » أو نحو ذلك مما يوجه ويغير ، كان غيرى يؤلفون عن الخلفاء الراشدين أو الأمويين أو العباسيين ! أجل . كنت أنشد الآفاق وأرتاد المجاهل فى الوقت الذى كانوا هم فيه يشرحون لقرائهم قواعد الفعل الماضى . مع أن هذه القواعد معروفة ومشروحة فى مئات الكتب القديمة ولا تحتاج إلى زيادة فى الشرح والإيضاح . فإن جميع الذين كتبوا مثلا فى ترجمة عمر بن الخطاب

لم يكتبوا عنه بأوفى مما كتب ابن أبي الحديد منذ نحو ألف سنة . وجميع الذين يخرجون لنا من وقت لآخر تراجم عن أبي نواس أوالمهدي أو المأمون لم يزيدوا كلمة عما كتبه مؤلف الأغانى أو غيره من المؤلفين القدماء . ولكن الجمهور الذى يتعطش إلى الثقافة العصرية كي يفهم الحضارة العصرية لا يجد غير هذه الموضوعات القديمة ، فيبقى ، أى هذا الجمهور ، قديماً غير عصرى .

وهناك أشياء آسف لها كثيراً ، منها أنى عطلت عن الكتابة إلا تحت أعين المراقبة نحو خمسة عشر عاماً فى الحربين الكبريين ؛ إذ حتم علينا الإنجليز ألا ننشر حرفاً فى جريدة أو مجلة أوكتاب إلا بعد أن يقرأه رقيب . وقد قرئت لى كتب فى الأدب والعلم وحذف الرقيب منها ما شاء . . . وهذا التعطيل قد جمد فكرى مدة طويلة ؛ لأن قطع التفاعل بين المؤلف وبين الجمهور يجعل الثقافة مجدودة . لأن الثقافة اجتماعية لا نهتم بها إلا فى مجتمع حى يوافقنا أو يعارضنا ، ولكنه فى كلتا الحالين حىّ ينبهنا . وقد قطع الاستعمار البريطانى بيننا وبين الجمهور هذه السنين الطويلة ، فقطع عنا بذلك التنبيه الذى كان يحركنا إلى التفكير والدراسة الخصبة ، كما قطع عن الجمهور التنوير الذى كان يحتاج إليه .

وشيء آخر آسف له هو أن الحكومة المصرية ، بإيعاز المستعمرين الإنجليز أيضاً ، قد سنت قانوناً تستطيع أن تحرم به أى مصرى خارج القطر من رعويته المصرية ، ويكفى لذلك قرار من مجلس الوزراء بلا محاكمة أو دفاع . وقد منعنى هذا القانون من أن أترك مصر منذ عشرين سنة ، مع أن مثلى يحتاج إلى أن يزور أوربا مرة كل عام أوكل بضعة أعوام حيث يتجدد بالإيحاء والتغيير الذهنى والترفيه النفسى .

ولكن المتسلطين الذين يعيشون فى مصر بالامتيازات القديمة ، هذه الامتيازات التى هى فضيحة مصر الآن فى جميع المحافل المتمدنة ، يخشون رجلا مثلى يسارع إلى شرح الآراء الجديدة والإصلاحات العصرية . فما هو أن أضع قدمى فى باريس حتى أجد قراراً بحرمانى من الرعوية المصرية ، وعندئذ يجب أن أتسكع سائر عمرى إلى أن أموت خارج وطنى بعيداً عن أولادى . ولهذا آثرت البقاء فى القاهرة على التسكع ، بلا وطن ، فى مدن أوربا . وظنى أن هذا القانون سيبقى إلى أن أموت . ولن أرى أوربا التى تشع أنوارها على هذا الكوكب .

وأخيراً أعود إلى السؤال الذى لا يفتأ يتكرر : هل ربيت نفسى ؟

وهذا السؤال يعيد إلى ذهنى وصف ه . ج . ولز للوزير البريطانى الكبير جلادستون بأنه لا يعدّ متعلماً أو حاصلا على تربية . وذلك لأنه «كان يجهل الأثنولوجية أى علم وصف السلالات البشرية وخصائصها . وأن رؤيته للتاريخ كانت ناقصة لأنه لم يكن يدرى الصورة الحقيقية للجيولوجية أى علم طبقات القشرة الأرضية وتاريخ الأحياء . كما كان يجهل الأفكار الابتدائية عن البيولوجية أى علم الحياة . وكذلك كان يجهل العلوم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية العصرية والآداب والفكر الحديث» .

وإذا قست نفسى بهذا المقياس الذى عينه ولز كى يبرهن على جهل جلادستون فإنى أجد أنى حاصل على هذه التربية التى قصدها ؛ لأنى أدرى كل هذه الأشياء التى ذكرها وأكثر منها مما يجرى على طرازها . والحقيقة أن الذين يستطيعون أن يسموا أنفسهم ممتازين بتربية صحيحة فى أيامنا قد لا يبلغون واحداً فى الألف ، والبرهان على هذا أن الذين

يفهمون مثلا النظرية النسبية لأينشتين أو الطاقة الذرية قليلون جداً . وهذه القلة ترجع إلى أن وسائل التربية معدومة أو نادرة فى بقاع كثيرة . وذلك الذى يصل ، على الرغم من كل ذلك، إلى تربية تكاملية حاوية بحيث تتسع عنده المعارف وتتكامل وتتناسق ، هذا الرجل ، يحتاج إلى أن يفنى العمر كى يحقق هذه الغاية . وطلب العيش يحول دون ذلك عند ٩٩٩ فى الألف من الناس .

الواقع أن الذين يقودون العالم منذ أيام جلادستون إلى الآن كانوا ، ولا يزالون ، فى عداد الجهلة . فقد روى ولز مثلا عن جلاستون أيضاً أن السر جون لبوك رافقه فى زيارة لداروين . فكان طوال وقته يتحدث عن المشكلة البلغارية كأنها كل شىء فى وجدانه ، أى أنه لم يكن يدرى القيمة البشرية الكبرى لنظرية التطور التى أخرج داروين إنجيلها للعالم . ولكن أليس هذا حال الساسة إلى الآن ؛ هل وزراء بريطانيا أو فرنسا أو الولايات المتحدة أو مصر فى ١٩٤٧ أفضل من حال جلادستون فى ١٨٧٠ ؟

إن العالم منكوب بتقاليد فى التربية والتعليم . وفى المدارس والجامعات رواسب ثقافية تبلد الذهن بل تحول دون التفكير . كأن هناك محظورات لا يجوز التفكير فيها . اعتبر مثلا هذا الفقر المصنوع فى العالم : فإن الإنتاج الزراعى ثم الإنتاج الصناعى يكفيان ، مع التنظيم ، كى يعيش كل فرد على هذا الكوكب وهو موفر الطعام والكساء والمسكن ، آمن على نفسه وجسمه من المرض والجريمة . متعلم أقصى تعليم ، مستمتع بالفراغ الذى يمكنه من زيادة معارفه . ولكن الساسة الذين يتولون شئون هذا العالم لا يزالون فى مستوى جلادستون يهتمون بمشكلة بلغاريا أكثر مما يهتمون بنظرية التطور . والعجب أنك عندما

تبحث مشكلة بلغاريا تجد أنها نبلت من الجهل أيضاً ، وأن الذين يحاولون حلها جهلاء يثرثرون وهم يعتقدون أنهم يفكرون .

وقد سبق أن قلت إنى لا آسف كثيراً على أنى لم أتخصص ؛ لأن الاختصاصيين ، كما أرى فى أخلاقهم ، لا يتوسعون أو يتعمقون فى الدراسات التى لا تمس العلم أو الفن الذى اختصوا فيه . وأعتقد أحياناً أن الزهو هو الذى يمنعهم من هذا التوسع أو التعمق ، وأنهم يحسون استكفاء ذاتياً لا يحتاجون معه إلى زيادة . وأقول فى نفسى عندئذ إنى لست كذلك وإنى لو كنت قد تخصصت فى علم تجريبى لما زُهيت . ولكن هذا الفرض ليس سيكلوجياً لأنه يتجاهل العواطف الاجتماعية . ولكني لا أشك أنى بعيد عن الزهو فى غير تعمد أو تكلف ؛ وأن بعدى عن الزهو هو الذى يجعلنى أتابع الثقافة بروح الطالب ، وهو الذى يجعل أسلوبى خالياً من التفصح . وكثير من الكتاب يتفصح فى خيلاء وزهو لأنه يسلك فى حياته وأخلاقه سلوك الخيلاء والزهو. ولهذا السلوك أثره فى نفسه لأنه يحمله على الاستكفاء فلا يدرس ولا يتزيد من المعارف . ولذلك أستطيع أن أجزم بأن التفصح فى الكاتب برهان على كراهة التزيد أو التطور فى الدراسة . وليس هـذا لأن التفصح يشغل وقته بل لأنه يكسبه زهواً فيقنع بالخيلاء والتبختر . وفى ذهنى الآن كاتب من هؤلاء المتبخترين يكتب من وقت لآخر عن الأخلاق . قعدت إليه ذات مرة أحدثه عن الأخلاق وأنها هى والاجتماع ثمرة الوضع الاقتصادى . فلم ألق منه غير الضحك . فانتقلت من البيئة إلى الوراثة وذكرت له كاتبا هو كرافت أبنج عن « السيكوباثية الجنسية » فلم أستنبط منه غير الدهشة . أجل ! إن تفصحه المتحذلق

قد حال بينه وبين تربية نفسه ؛ إذ هو قانع بهذه الحيلاء اللفظية وسيموت بها جاهلا لشئون هذا الكوكب الذى عاش عليه .

ولذلك أعتقد أن أعظم الوسائل للتربية هو الاتجاه . أى كيف نتجه فى هذه الدنيا وبماذا نهتم ؟ نهتم باقتناء الفصاحة أم باقتناء المعارف ؟ بمشكلة بلغاريا أم بنظرية التطور ؟ نهتم بأن نكون وجهاء نسير فى خيلاء وزهو أم عقلاء نفكر فى سداد وفهم ؟

وفى عصرنا هذا يجب أن نقيس التربية الحقة بأدق وأكبر من المقياس الذى وضعه ه. ج. ولز . ولكن عندئذ لانجد أحداً ، ولا واحداً ، يمكن أن يقال إنه حاصل على تربية حقة . فإن العلوم خاصة والثقافة عامة مشتتة غير منظمة ، وتحصيلها لهذا السبب شاق . وأعمارنا تفنى فى محاولات عقيمة وإن تكن مخلصة للتعلم . حتى إذا انتهينا إلى الطريقة واهتدينا إلى المنهاج وجدنا أن الشباب قد ولى .

وقد يبعثنا هذا إلى القول بأن العمر يجب أن يزيد حتى يبلغ المائة سنة مثلا ، فنجنى فى العقود الأخيرة ما جهدنا لأجله واختبرناه فى العقود الأولى . ولكن قبل ذلك يجب تنظيم المعارف ومناهج الدراسة وترقية الصحافة حتى تعود جميعها أدوات ووسائل للتنوير . لأن الواقع أن بعضها الآن أدوات ووسائل لتبليد الأذهان ومطاردة الذكاء ، ونشر الظلام . والعالم حافل بالتباسات واستعراضات للجهل الفاشى ، هذا الجهل الذى يجد دعامة بين المعلمين والأدباء والفلاسفة الذين يدعون إلى مزاعم وعقائد يوحون منها إلى القراء والمتعلمين بأنها آراء وحقائق . وقد سبق أن عانى جوتيه مثل هذه الحال حين قال : «ليس هناك أفظع من الجهل النشيط » .

وإذن أجيب على سؤالى : هل ربيت نفسى ؟ بأنى ما زلت

« صائراً » فى سياق التّربية . وإنى أسر حين أحس أن لى شخصية نيوروزية قلقة مستطلعة أطمع فى أكثر مما أستوعب ، وأن الثقافة تحتل المكان الأول من اهتماماتى . بل أحس أحياناً أنها الاهتمام الوحيد ، حتى إنى لأفجأ نفسى من وقت لآخر بخطاب يرسله إلى صديق فأرجئ فتحه إلى الغد كى أتصفح كتاباً جديداً هذا اليوم .

وأسرّ أيضاً حين أجد أن القيم البشرية عندى تأخذ مكان القيم الاجتماعية . وعندى أن هذا الانتقال هو البرهان فى عصرنا على الحكمة والفهم . فإن القيم الاجتماعية ، بإلحاح العادات والتقاليد ، تغمرنا وتقيم فى نفوسنا « عواطف » تحملنا على السعى والجهد لما يسمونه « منافسة » وأحرى أن يسمى « محاسدة » لاقتناء أتومبيل أو عزبة أو لقب أونحو ذلك مما يحملنا المجتمع على احترامه . وكثير من الناس يموتون شهداء هذا الجهد السخيف . وحين ننتقل إلى القيم البشرية نجد أن حياة الصحة والصلاح الاجتماعى والفهم والقناعة بالحاجات الضرورية والاستمتاع بما فى الدنيا من أطايبها المجانية خير ألف مرة بل مليون مرة من تلك القيم الاجتماعية . وليس فى الدنيا ما يعدل فنجاناً من الشاى أو كسرة من الخبز مع الجبن تحت ظل شجرة (كما قال الإمبراطور أوريليوس) أو قراءة كتاب منير أو الحديث إلى المجرة فى منتصف الليل فى الريف أو تحية الشمس فى بزوغها أو ، حين أكتب ، البحث عن بشائر المستقبل والتشبث بها وشرحها فى مقال أو كتاب .

وإذا سأل القارئ : ماذا تستنتج من اختباراتك ، وما تكهناتك للمستقبل بعد أن قضيت نحو أربعين سنة وأنت على اتصال وجدانى بالعقل العام على هذا الكوكب ؟

فإنى أجيب : بأن الحاضر يومئ إلى المستقبل إيماءة واضحة نراها بالعين وأحياناً نسمعها صاخبة بالآذن ، هى الاشتراكية التى سوف تعم الدنيا كلها . وليس هذا لأن الناس الناس سيتحولون من أشرار إلى أبرار ، بل لأن الانتاج الصناعى سيحتم ذلك . كما سيحتم ، توافر النقل وضرورة التجارة ، على أبعاد كوكبية ، أن يحال العالم إلى دولة واحدة تتجه نحو ثقافة واحدة ولغة واحدة .

وهذا النظام الاشتراكى العام سوف يرفع المرأة من الأنثوية إلى الإنسانية . لأنه من جهة سيفتح لها أبواب العمل والاختبار والتعلم كالرجل سواء ، كما أنه من جهة أخرى سيغنيها عن عناء الواجبات المنزلية العديدة . وليس هذا لأنها ستترك المنزل بل لأن كثيراً من الواجبات المنزلية ينتقل بالحضارة إلى خارج المنزل . ويتضح هذا من المقارنة فى مصر بين المرأة فى الريف والمرأة فى المدينة . فإن الأولى تعجن وتخبز وتحلب البقرة وتصنع الجبن وتخيط ملابسها وتحمل جرة الماء من الجدول وتجمع الوقود إلى غير ذلك من الواجبات التى لا تعرفها المرأة فى المدينة . ثم المقارنة بين المرأة فى القاهرة والمرأة فى نيويورك تزيدنا فهماً بأن الحضارة تلغى الواجبات المنزلية التى ترهق ربات البيوت الآن وتحول بينهن وبين العمل فى الخارج أو بين تربية أنفسهن . ولذلك نحن صائرون نحو تحقيق الرؤيا التى حلم بها إبسن فى شخصية « نورا » هذه الأنثى التى أصرت على أن ترتفع من الأنثوية إلى الإنسانية .

وأستطيع أن أستنتج من حياتى الماضية أن أعظم العقبات التى تؤخرنا فى مصر كما تؤخر كثيراً من أمم آسيا وأوربا ، بعد الاستعمار ، هى هذه الرواسب من الثقافات والتقاليد والغيبيات الفرعونية والبابلية وأمثالها التى انحدرت إلينا . وهى تتخذ ألوانا من الصيغ والأساليب ،

وتعترض عجلة التاريخ وتعوق التطور . والبيئة الصناعية وحدها هي التي تحطمها ؛ لأنها ، أى هذه البيئة ، لا تنهض إلا على العلم . وهو نار كاوية تحرق جميع الرواسب وتبدد عفنها هباء .

والحضارة الجديدة المنتظرة هى الحضارة الصناعية ، هى الحضارة التى لا يبعد أن تلغى الزراعة من العالم . وليس هذا بالعمل العظيم المستحيل كما يتوهم بعضنا ؛ فإن الكيمياء الصناعية تصنع الآن مركبات كيماوية عديدة كان صنعها قبل هذا القرن مقصوراً على الجسم الحى نباتاً كان أو حيواناً . فإذا استطاعت الكيمياء الصناعية أن تصنع مادة البروتين فإن الزراعة تعود عناء لا ضرورة له بتاتاً . وعندئذ يحال العالم إلى حدائق وغابات تعنى بها الطبيعة وحدها . وإذا كنا نظن أن صنع البروتينات لا يزال بعيداً فيجب أن نذكر الطاقة الذرية . لأن أى إنسان منا ، لو أنه ، قبل خمس سنوات سئل أيهما أقرب إلى خيالنا : استخدام الطاقة الذرية قنابل للتدمير أو صنع البروتين كيمائياً ، لظن هذا الثانى أيسر بكثير من الأول :

وظنى أيضاً أن الزمن ليس بعيداً حين نشرع ، حتى فى مصر . فى تطبيق نظرية التطور بالانتخاب التناسلى ، أى اليوجنية . وفى العالم نحو أربعين دولة متمدنة تمنع غير الصالحين للتناسل من أن يعقبوا . والأمة التى تعارض فى مثل هذا الإصلاح ستتخلف فى ميدان التطور البيولوجى أى الرقى البشرى الصميم .

وأخيراً أقول إنى أرى إيماءة ثقافية جديدة هى التخلص من المذهب الانفصالى ، مذهب ديكارت الذى يفصل بين الروح والجسم ، أو بين الحياة والمادة ، أو بين العقل والمادة ، إلى المذهب الاتصالى الذى يقول بأن القوة هى المادة المتدفقة ، والمادة هى القوة المتجمدة . وفى

هذا القول وثبة ثقافية واسعة إلى المستقبل سوف تكون كبيرة الأثر في الحضارة القادمة . وقد سبق للفيلسوف العظيم سبينوزا أن نبه إلى ذلك في لغة فلسفية . ونحن نقتنع هذه الأيام بصحة تفكيره عن طريق العلم التجريبي ، ونصل إلى وحدة وجودية في الطبيعة ثم نتدرج إلى ما يلائمها في المجتمع .

وعندما أرتفع إلى هذا التفكير أحس أن كثيراً من الاهتمامات بل الهموم الوطنية التي حجبت النور وعكرت الصفاء اللذين كنت أنشدهما في حب وولاء بشريين ، هذه الهموم تذوب وتتبدد . أجل ! إني أحب أن أعترف . فإني ما كتبت كلمة واحدة ضد المستعمرين الإنجليز إلا وأنا في ألم وارتعاش وأسف أكثر مما أحس من غيظ وحنق وكفاح . وكذلك كان الشأن عندما كنت أكافح ، الرجعيين المستغرضين والجهلاء النشيطين من المصريين . فإني أخجل حين أقول إني أحب جميع هؤلاء الإنجليز المستعمرين والمصريين المستبدين . وفي نفسي رجاء بأن يتغيروا وأن يروا رؤياي وأن ينسلخوا من الاستعمار والاستبداد ، ويفتحوا عقولهم للثقافة الجديدة : للحرية والإخاء والمساواة . وجميعها مستطاع لو أنهم كفوا عن «الجهل النشيط» الذي يمارسونه .

وقد احترفت الثقافة وقضيت عمري أقرأ وأكتب . وزادتني هذه الحرفة ، وجدانا بالدنيا . كأني أحس أكثر وأرى أبعد ، حتى لقد صغرت همومي الشخصية إلى جنب اهتماماتي العامة . ودراستي للأدب وللفلسفة قد أوهجت خيالي وأحدّت ذكائي . ثم انعكست هذه الدراسة إلى حياتي فأصبحت قيمي وأوزاني الخاصة قيماً وأوزاناً أدبية وفلسفية . ولذلك كثيراً ما أنصح للشبان بأن يقرأوا الأدب والفلسفة ، وأن يحاولوا كتابة القصة وقرض الشعر ؛ لأنهم وهم في هذا النشاط

يتخيلون الحال المثلى ويصعدون بأذهانهم إلى السماء ويختارون أسمى المعانى وأنصع الكلمات . وكل هذا ينعكس على حياتهم الخاصة فيرتفعون عن التبذل ويحيلون حياتهم إلى فن جميل .

لو أنى مت ثم بعثت وخيرت فى الحرفة التى أحترف لما اخترت خيراً من أن أقرأ وأكتب . ولكنى مع ذلك سوف أموت وفى نفسى شىء من الطاقة الذرية . لأنه يجب على كل إنسان فى عصرنا أن يستوفى ثقافة علمية معينة يدرك منها هذا المنهج البشرى الجديد للتسلط على المستقبل . ولم أجد الفرصة لهـذه الثقافة كما كنت أشتهى وإن كان حظى منها قد يحسدنى عليه غيرى . أجل ! لقد تركت الطاقة الذرية فى نفسى مركب نقص أعانيه فى ألم كل يوم .

من ١٩١٩ إلى ١٩٤٧

رأيت الحكم البريطانى فى مصر فيما بين ١٩٠٠ و ١٩١٩ وأنا على وجدان بتصرفاته واتجاهاته . ورأيت الحكم « المصرى » فيما بين ١٩١٩ و ١٩٤٧ وأنا على وجدان أيضاً بتصرفاته واتجاهاته . وقد قلت « المصرى » بهذه الصيغة الكتابية لأنه لم يكن فى كثير من الأحيان مصرياً بحتاً إذ كانت اليد الإنجليزية تعلوه وتقوده إلى الفساد والشر . فإن الإنجليز هم الذين جعلوا زيور باشا يحل البرلمان فى ١٩٢٥ فى نفس اليوم الذى عقد فيه . وهم الذين سلطوا علينا إسماعيل صدقى فيما بين ١٩٣٠ و ١٩٣٤ كى يضرب الأمة بالسياط والبنادق . وهم الذين حملوا محمد محمود باشا فى ١٩٢٩ على أن يعطل البرلمان ثلاث سنوات « تقبل التجديد » . ولكننا مع ذلك مضطرون إلى أن نسمى هذا الحكم فيما بين ١٩١٩ و ١٩٤٧ مصرياً لأن الأيدى التى أنفذت السياسة كانت مصرية . وكانت تستطيع أن تكف الأذى عن الوطن لو أنها شاءت .

فيما بين ١٩٠٠ و ١٩١٩ كانت السلطة الإنجليزية صريحة . فقد تعلمت أنا الجغرافيا فى السنة الثانية الابتدائية حوالى ١٩٠٠ باللغة الإنجليزية . وكان كل التعليم بالمدارس الثانوية ، فيما عدا اللغة العربية طبعاً ، باللغة الإنجليزية فى جميع المواد . وكنا لا نستطيع أن نحل مشكلة تتصل بالحكومة إلا على يد إنجليزى . ولكن كل هذا أو معظمه تغير بعد ١٩١٩ .

وأول ما يسأل الإنسان عندما يقارن بين الاحتلال والاستقلال هو مقدار الحرية التي يتمتع بها الفرد . حرية القول والخطابة والصحافة والاجتماع . ومع الأسف بل الألم العظيم يجب أن أعترف هنا بأن هذه الحرية نقصت ولم تزد بعد ١٩١٩ . فإننا فى ١٩٤٧ أقل حظاً من هذه الحريات مما كنا حوالى ١٩٠٥ أو ١٩١٠ . وهذا هو ما مارسته بنفسي : ففى ١٩١٤ استخرجت « رخصة » لإصدار مجلة « المستقبل » ولم أجد الصعوبات الشاقة التى أجدها أو يجدها غيرى فى مثل هذا الاستخراج فى ١٩٤٧ . بل لقد حاول وزير سابق هو الأستاذ فؤاد سراج الدين باشا استخراج « رخصة » لجريدة يومية فى ١٩٤٦ فرفض طلبه . وقد كنت قبل ١٩١٩ ألقى المحاضرة بلا ترخيص من المحافظة فى القاهرة . أما الآن فإنى أحتاج إلى ترخيص . وأنا أكتب هذه الكلمات فى أكتوبر من ١٩٤٧ وقد بلغت التحقيقات بشأن مقالات أو أخبار الصحف العشرات . وهذا ما لم تكن نعرفه قبل ١٩١٩ .

وفى ١٩٢٢ صدر الدستور المصرى . وفهمنا منه أنه سيحترم وأنه وثيقة رهيبة يجب أن تستنبط منا إحساساً دينياً لاحترامها . ولكن هذا الدستور استبدل به آخر أيام زيور باشا فى ١٩٢٥ . ثم عطل أيام محمد محمود باشا فى ١٩٢٩ . ثم ألغى واستبدل به آخر أيام إسماعيل صدقى باشا فى ١٩٣٠ . وصحيح أن المستعمرين الإنجليز كانوا خلف هذه العربدة فى حياتنا الدستورية . ولكن الأيدى المنفذة كانت مصرية .

وكلنا يعرف أن الذين جاهدوا وضحوا هم الوفديون . ومع ذلك حسبت السنوات التى تولوا فيها الحكم فيما بين ١٩٢٣ و ١٩٤٧ ،

أى نحو ربع قرن ، فوجدت أنها خمس سنوات وثمانية أشهر فقط : وحسبت السنوات التى تولى فيها إسماعيل صدقى باشا الحكم ، فى هذه المدة أيضاً وليس له حزب ، وليس له رأى عام مصرى يؤيده ، فوجدت أنها تقارب المدة التى حكم فيها الوفد . فكأن الدستور لم يغير شيئاً من أوضاع الحكم التى كانت تشكو منها مصر قبل ١٩١٩ . وفيما بين ١٩٣٠ و ١٩٣٤ أوقع بنا إسماعيل صدقى باشا من ألوان الاستبداد البشعة ما اضطره هو نفسه إلى أن يطالبنا بنسيانه فى ١٩٤٦ . ولم نر قط مثل هذا الاستبداد من الإنجليز قبل ١٩١٩ إلا فى حادث دنشواى . والمتأمل للكراهة العميقة عند بعض العناصر للوفد يجد أنها ليس لها من سبب سوى أن الوفد هو الهيئة الديمقراطية الشعبية الوحيدة فى مصر .

وهذه العربدة فى حياتنا الدستورية حينذاك وفى نشاطنا السياسى هى التى انتهت بنا إلى أن ينشأ حزب دينى مثل « الإخوان المسلمين » يتناول السياسة من ناحية الدين ، ويجعنا فى شك أو خوف من المستقبل بعد أن كافح لطفى السيد وغيره فى فصل الدين من السياسة . فإن « الإخوان المسلمين » يتوسمون فى الجامعة الإسلامية من الآمال والآفاق ما كان يتوسمه الحزب الوطنى أيام مصطفى كامل من الجامعة العثمانية . وفى هذا تفكيك للوطنية المصرية وتشكيك فى قيمتها ومستقبلها . وأنا مضطر أن أصرح بأنى كنت متشائماً من هذا الاتجاه الذى كان قائما وقتئذ .

ولكن يجب أن نذكر الكسب أيضاً . وهو كسب عظيم .. وعندى أن أعظم مآثرنا هنا هو انتقال المرأة من ظلام القرون الوسطى إلى نور القرن العشرين . ويجب ألا يلومنى القارئ إذا كررت

وأطنبت فى هذا الانتقال . فقد رأيت بعينى نسوة مصريات حوالى عام ١٨٩٨ « يذبحن » الخنافس . فلما سألت عن السبب قيل لى : إنهن يطبخنها ويأكلنها كى يصبحن سمينات بعد النحافة ... ورأيت تلميذات المدرسة السنية حوالى ١٩٠٣ وهن مبرقعات مع أن أعمارهن لم تكن تزيد على إحدى عشرة ، أو اثنتى عشرة سنة . وكانت ناظرة المدرسة ، وهى إنجليزية ، تلح وتصر على التزام البرقع لأنه من « تقاليدنا » . والانتقال من هذه الحال إلى « المرأة الجديدة » المحامية والطبيبة والصحفية وسائر نسوتنا السافرات هو آية فى الرقى الاجتماعى لانكاد نصدقها لولا أننا نحسها ونختبرها . والجيل الجديد لا يقدر هـــذا الارتقاء لأنه لم ير عمق الهاوية التى كنا فيها قبل ١٩١٩ . وهذا الارتقاء النسوى فى مصر هو مرحلة من الرقى الاجتماعى قد قطعناها ولن تستطيع قوة أن تنزعها منا . فقد انتصرنا بها على القرون الوسطى وعلى الشرق معاً .

وكذلك كسبنا فى التعليم ولكن كسبنا هنا أقل من الارتقاء النسوى . فإنى أذكر أنى حين كنت تلميذا بالمدارس الثانوية لم يكن فى القطر المصرى كله غير ثلاث مدارس ثانوية لا تدخلها فتاة . وهى الآن تعد بالعشرات والفتاة تتعلم فيها أيضاً بلا عائق . وكذلك الجامعات التى لم نكن فى أيامنا ندرى معناها ، والتى كان الإنجليز يحظرون علينا تأسيسها .

ولكن نهضتنا التعليمية سارت مع ذلك ببطء . ولا تزال بطيئة . وأذكر أن أحد الأمريكيين قبل عشر سنوات سألنى عن عدد المدارس الثانوية للبنات فقلت إنها تسع (ولم تكن تبلغ ذلك) . فقال : «كنت أنتظر أن تقول إنها تسعون مدرسة » . على أن هذا البطء لم يمنع

تخريج ألوف الشبان المتعلمين والفتيات المتعلمات الذين يعتمد عليهم فى تكوين رأى عام مستنير سوف يصون الدستور من العبث ويحمل الحاكمين على مراعاة العدل وإنصاف الأمة فى المستقبل . ولكن حماستنا للتعليم قد أعثرتنا فيما يسمى « التعيم الإلزامى » الذى أنفقنا عليه منذ إيجاد نظامه إلى الآن نحو خمسين مليون جنيه دون أن نستطيع تخريج مصرى واحد متعلم منه . وعلة ذلك أنه تعليم يقوم على نظام شرقى غير عصرى .

وقد ارتقينا فى الصناعة . فصارت لنا صناعات كبيرة . ونسينا الأكذوبة التى كان يشيعها المحتلون البريطانيون بيننا ويطلبون منا تصديقها وهى أن مصر « بلاد زراعية » وذلك كى يقصروا نشاطنا على زراعة القطن ويمنعونا من الصناعة . أى أنهم كانوا يرمون إلى أن نكون أمة لا تنتج للعالم سوى « المواد الخامة » كما يفعل الزنوج الأفريقيون . وقد اغتصبنا منهم الصناعة والتعليم اغتصاباً . لأنهم كافحونا فيهما بكل ما قدروا عليه ثم انهزموا .

على أن هناك ما يحزن فى حياتنا الاستقلالية أو الدستورية ، مع جميع التحفظات الذهنية بشأن التدخل الاستعمارى البريطانى فيهما . فإننا منذ ١٩٢٢ إلى ١٩٤٧ لم نقم بأى إصلاح يرفع من شأن الفلاح الاقتصادى أو يخفف من كوارث الفقر ، فإن الفلاح يعيش الآن كما كان يعيش قبل ١٩١٩ . وقد قرأت هذا الصباح فى المصرى (١١ أكتوبر ١٩٤٧) هذه الكلمات التالية بشأن وباء الكوليرا :

« ولم تقع حتى الآن أية إصابة فى القاهرة بين أفراد الطبقتين

العالية والمتوسطة . وكل ما وقع من الإصابات حتى الآن كان بين أفراد الطبقات الفقيرة . »

وهذا بعد أن مضى على تفشى هذا الوباء نحو عشرين يوما . وليس أدل على وهدة الفقر التى يتردى فيها تسعة أعشار الشعب المصرى ، بما فيها من حرمان وقذارة ، من هذه الكلمات . وليس أدل على تقصيرنا فى الإصلاح الاجتماعى من هذا الإهمال الفاضح لأبناء أمتنا . بل لقد أصبحنا نتهم بالشيوعية كل من يدعو إلى إصلاح اجتماعى ويبرز فضائح هذا الفقر الكالح الأسود الذى يعيش فيه فلاحونا وعمالنا . وبعض الكراهة للوفد تعزى إلى أنه قد حاول إصلاح هذه الحال فاتهم بالغلو فى الديمقراطية التى لا يطيقها المستعمرون الإنجليز والمستبدون المصريون .

ولكن حال العامل فى المصانع أرقى بكثير من حال الفلاح فى الريف . وهو بقليل من السخاء من الإصلاحات الاجتماعية التى يتمتع بها العمال فى أوربا ، يمكن أن يسير إلى مستوى أعلى .

والمشكلة التى تتحدانا فى مصر الآن هى الفقر كيف نعالجه بل كيف نمحوه . ولا قيمة لأية أمة ولا معنى لأى رقى مالم يكن الهدف هو مكافحة الفقر وما يجر من حرمان وجهل ومرض . أجل مرض الكوليرا الذى يفتك الآن بطبقاتنا الفقيرة لأنها عاجزة عن الحصول على الغذاء الوافى أو النظافة الواقية .

برنامج السنوات العشر القادمة

فى شهر مايو من هذا العام (١٩٤٧) ألقى علىّ القبض بتهمة إلقاء قنبلة فى إحدى الدور السينمائية فى القاهرة . وأيقظنى البوليس فىالساعة الثالثة من الصباح وساقنى إلى القسم حيث اعتقلت إلى أن نقلت فى الساعة الحادية عشرة إلى دار النيابة للتحقيق . وقد وافق هذا القبض علىّ بلوغى سن الستين . وهى سن التقاعد فى نظر الحكومة المصرية أى السن التى تخور فيها القوى وينحط النشاط ويبدأ الركود . ولكن الحكومة أبت إلا أن تميزنى بنشاط الشباب وأن تعزو إلى رعونته . وقد أتاح لى هذا القبض أن أفكر كثيراً وأن أتأمل حال مصر هذه الأيام بحال الأتراك أيام السلطنة العثمانية . وذكرت قصة كان قد قصها على مصرى قبل أربعين سنة . فإنه كان حوالى ١٩٠٧ قادماً من أوربا إلى الأستانة . وكان يلبس القبعة لأنه لم يكن يرغب فى لفت الأنظار إليه إذا لبس الطربوش وسار فى شوارع باريس وبرلين وبودابست . وكان طربوشه فى حقيبته قد احتفظ به إلى يوم يعود إلى مصر . فلما بلغ عاصمة السلطنة العثمانية وصرح بأنه مصرى زجر فى وجهه رجال البوليس التركى وسألوه كيف يكون مصرياً يلبس قبعة . لا بد أنه جاسوس . وألقى به فى السجن .

فلما دخل السجن وجد صبيين تركيين لا يزيد عمر أكبرهما على اثنتى عشرة سنة . وكانت تهمتهما سياسية ... وقد وجدت سبيلا للمقارنة بين اتهامى بإلقاء قنبلة وأنا فى الستين من عمرى وبين

اتهام صبي فى سن الثانية عشرة بقلب نظام الحكم فى تركيا . وقلت فى حديث النفس وأنا معتقل على الأسفلت فى قسم الأزبكية : أنا وهذان الصبيان ضحايا الجهل النشيط فى الأستانة والقاهرة على حد تعبير جوتيه .

وأنا فى سن الستين الآن أحس أنى « قوى القوى كلها » كما كان يقول الفارابى أو ابن سينا عن نفسه . ولذلك أرى من حقى ، أو بالأحرى واجبى ، أن أضع برنامجاً للسنين العشر القادمة .

وعلى ذكر ابن سينا أقول إنى أجد له اختباراً ثقافياً يتفق واختبارى . فهو يقول فى ترجمته بحياته : « فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى فرغت من هذه العلوم كلها . وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى أنضج . وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لى بعده شيء » .

وابن سينا لا يعنى بالطبع أن المعارف لم تزد بعد هذه السن . وإنما هو يعنى أن المبادئ والنظريات والآراء والاتجاهات التى استقرت عنده حوالى الثامنة عشرة لم تتغير بعد ذلك . وإنما قصارى ما حدث فيها توسع وتعمق أى نضج . وظنى أن هذه هى حال الجميع الذين عُنوا بالتربية الذاتية . فإنى حين أعود إلى « مقدمة السبرمان » التى ألفتها وأنا حوالى التاسعة عشرة وأتأمل الموضوعات التى عالجتها فيها لا أكاد أجد موضوعاً جديداً قد درسته بعد ذلك طوال الأربعين سنة الأخيرة . وإنما قصارى ما حدث لى هو توسع وتعمق أى نضج . أى أنى أستطيع الآن أن أؤلف عن كل فصل من فصول « مقدمة السبرمان » كتاباً برأسه . ولا أعرف وأنا أوشك أن أبدأ العقد السابع من عمرى فكرة جديدة لم أومئ إليها فى تلك الرسالة التى طبعت فى ١٩٠٩ .

وليس كبيراً أن أطمع فى عشر سنوات قادمة . فإن الطب العصرى يتقدم بسرعة وهو معقد الآمال لأولئك الذين ينشدون من الشيخوخة عنفواناً وريعاناً . وإذا لم نجد منه الشباب الذى يتيح العدو والوثب « وإلقاء القنابل » فى الستين والسبعين فلا أقل من أن نجد اليقظة والقدرة على الاستمتاع مع بقاء الحواس سليمة . ولذلك أرى أنه لا يجوز لى أن أترك هذه السنين العشر الباقية تتابع جزافاً بل سأضع لها برنامجاً يزيدنى توسعاً وتعمقاً للحياة على مستواها الواجدانى فى الشبكة الدماغية العالية .

وفى أثناء الحرب الكبرى الثانية كنت أتوق إلى رؤية نهايتها واستقرارها على سلم . ولكنى إلى الآن لم أر الاستقرار وإن كنت قد رأيت النهاية . وهى نهاية مع ذلك تومئ إلى أنها سوف تكون بداية . ذلك أن العالم يسير رويداً نحو « الأزمة الماركسية » فى تصادم نظامين يتناقضان . ونحن الآن فى طور المهاترة والسباب بين هذين النظامين وعن قريب سنرى التصادم بالقنابل . وسيرى العالم عن قريب هل القرن العشرين هو القرن الأمريكى أو هو القرن الروسى . وأنا متتبع لأطوار هذا الصراع تائق إلى رؤية نتيجته متشائم فى انتظار الحرب الكبرى الثالثة . ولكن لا يزال هناك أمل ضعيف بأن العالم يستطيع بالتسويات والتطورات أن يتجنب هذه الحرب . وأنا أقرأ هذه الأيام أخبار الصين وقوانين العمال الجديدة فى الولايات المتحدة وتأميم المناجم والأرض الزراعية فى بعض أوربا . . . وأيضاً أقرأ أخبار التقدم الآلى الصناعى الكيماوى . وأقرن هذه الأخبار وأجمعها فى ضوء الأزمة الماركسية التى ينتظر تفاقمها : إنتاج يزيد ويحدث تعطلا يزيد أيضاً ، ثم رغبة فى الحرب لمعالجة هذا التعطل .

وقد جعلتنا هذه الأزمة نعيش فيما يشبه الذبذبة العصبية كلنا فى قلق نعانى مضض الانتظار ولا نعرف المصير . ولكن مع هذا القلق أو المضض نحن فى انتباه واهتمام . نحن أحياء لا ننساق على غير وجدان بل ندرى بجميع العوامل التى تجرنا إلى الهاوية أو تصدنا عنها . ولهذا السبب تعد الجريدة اليومية هذه الأيام من أعظم الوسائل للتثقيف الذاتى لأنها تنبهنا إلى الأخطار القادمة .

وقد كانت لى أطماع فى شبابى أود أن أتابعها فى شيخوختى . ولم تكن أطماعى مادية قط . فلم أرهق نفسى فى تحقيق أغراض مالية . وقد وصفنى أحد الكتاب حديثاً بأنى مقتر . وهو واهم فى هذا الزعم . فإنى منذ ١٩١٣ إلى الآن لم أشتر سوى فدان واحد وعشرة قراريط . وليس لى رصيد فى أى بنك ، لأنى من اليد إلى الفم . بل بلغ ما بعته من ميراثى منذ ١٩١٣ إلى الآن أى فى ٣٤ سنة أكثر مما اشتريت وليس هذا القدر صغيراً بالمقارنة إلى جملة ميراثى . ولم أبال قط الاقتناء المالى لأن كل همى واهتمامى هو الاقتناء الذهنى أو بالأحرى الاقتناء النفسى .

ولذلك يثب إلى ذهنى فى أول البرنامج أن أقرأ بعض الكتب أو أعيد قراءة البعض مما ترك فى نفسى شكوكاً أو شبهات ثقافية . فمن ذلك مثلا كتاب « الغصن الذهبى » . فقد قرأت التلخيص الذى يزيد على ألف صفحة ولكنى أنوى قراءة الأصل الذى يزيد على عشرين مجلداً . وهذا الكتاب هو كنز للثقافة القديمة حين شرع الإنسان البدائى يتحسس الدنيا ويتعرف إلى حقائقها ويحاول ، فى تخبط ، أن يستخلص منها منطقاً مفهوماً . وتربيتى ناقصة نقصاً عظيما ما لم أقرأ هذه المجلدات كلها . ثم بعد ذلك أنوى قراءة كتاب الموتى أو « طلوع النهار » كما كان يسميه أسلافنا قبل خمسة آلاف سنة .

وهو الذى كان يدفن مع الموتى كى يتعلموا منه الإجابات السديدة وقت الحساب فى العالم الثانى . وهذا الكتاب هو زاوية منفصلة للبحث الذى يبحثه « الغصن الذهبى » .

أما بعد ذلك فإنى أنوى دراسة الذرة . ولو احتاج الأمر إلى استئجار مدرس . لأن خطورتها أكبر من أن يهملها رجل مثقف . وفى المستقبل حين تستغل الذرة لخدمة البشر ، بدلا من قتلهم ، سوف يقسم التاريخ البشرى قسمين : ما قبل الذرة وما بعدها .

ولكن هناك دراسة أخرى ، قد تكون لها علاقة بالذرة ، لا تفتأ تهجس بى كما لو كانت وسواساً هى العلاقة بين القوة والمادة أو الله والكون . وظنى هنا أنى مع سبينوزا . ولكنى لما أهتد إلى همزة الوصل بين القوة والمادة . أعنى أنى لم أبلغ درجة من الفهم فى هذه المشكلة أستطيع بها أن أرتفع إلى التعبير اللغوى عنها .

وقد كان يقال إلى وقت قريب ، بل لا يزال هناك من يقول ، إنه ليس هناك حد تقف عنده المعارف البشرية . ولكن هذا خطأ . لأن هذه المعارف محدودة فى هذا الكون . وظنى أننا نعرف فى عصرنا الحاضر أكثر من نصفها أو ثلثيها . ولم يبق علينا غير الثلث أو أقل . ونستطيع أن نستبدل بكلمة « معارف » كلمة « حقائق » . فإنى لا أستطيع أن أعرف ما يقرب من مئة ألف نوع من الحشرات حشرة بعد أخرى . ولكنى بتشريح حشرة واحدة أعرف حقيقة الحشرات جميعها . وعلى هذا الأساس نقول إن حقائق هذا الكون محدودة . وبعد جيلين أو ثلاثة أجيال لن يجد البشر ما يكتشفونه منها سواء على الأرض أم فى النجوم أم فى الحيوان أم فى النبات .

ويجب أن تؤدى هذه الحال إلى التشجيع والتفاؤل . فإن هذا

الكون ليس من السعة أو العمق إلى الحدود الغيبية التى تثبط عن المحاولة والفهم . فهو مكشوف قليل الحقائق وقد أوشكنا أن نعرفها جميعها ولم يبق سوى استغلالها . وهناك بالطبع مظلمون يحاولون أن يستنبطوا الغيبيات السرية من الماديات المكشوفة . ولم أنخدع قط بهم . وهم عندى والباحثون عن الروح بالنقر على المائدة سواء . وظنى أن مشكلتهم عاطفية تحتاج إلى التحليل النفسى وليست ذهنية تحتاج إلى المناقشة الوجدانية .

وفى السنين العشر القادمة سوف أتوسع وأتعمق ، فى السيكلوجية والبيولوجية ، وأزداد فيهما نضجاً . وهما من غرام الشباب الذى لازمنى إلى الشيخوخة . ومن أطماعى الثقافية أيضاً أن أجعل علاقتى بأرسطوطاليس حية أكثر مما كانت إلى الآن . فإن « عصرية » هذا الرجل عجيبة . ولو أنه كانت له قدرة أفلاطون الأدبية فى التعبير لكانت مؤلفاته على لسان العامة قبل الخاصة . ولو أنى بلغت من المعرفة بأرسطوطاليس ما بلغته بجوتيه أو برنارد شو لعددت هذا فوزاً عظيما فى حياتى . ولكن هذه أمنية مستحيلة .

وسيكون لى كفاح ثقافى فى مصر ، فلن أكف عن تأليف الكتب المقلقة مثل « نظرية التطور » أو « حرية الفكر » ... خمائر صغيرة أبعثها فى أنحاء الوادى وغيره إلى الأقطار العربية كى أزعزع التقاليد السوداء وأحرق العفن الذى تركته على العقول المطموسة . ومن مسرات حياتى أن أجد أن مؤلفاتى « تسرى » فى الجسم الاجتماعى على مهل وفى غير عنف فيأخذ التطور مكان الجمود والنزعة الارتقائية مكان الرجعية الجامدة .

وكذلك أرجو أن يكون لى كفاح صحفى للدفاع عن الديمقراطية

فى مصر . وظنى أنى لن أرى انتصاراً للديمقراطية فى السنين العشر القادمة . لأن الرجعية والاستبداد فى استقرار واستحكام والديمقراطية عزلاء من كل سلاح . بل إن الصراع القائم فى أيامنا بين أمريكا وروسيا سوف يعزز الرجعية والاستبداد فى مصر . لأن جميع الحركات اليسارية قد أصبح الأمريكيون يشتبهون فيها ويحضون على مكافحتها . ولكن هذه الحال يجب أن تدعونا جميعاً إلى الدعاية الديمقراطية بل إلى الإلحاح فى هذه الدعاية وإلا عم الظلام مصر بأكثر مما كان يعمها قبل سبعين سنة . ولا أظن أنى مسرف هنا فى التشاؤم . فإن مصر الآن قوات كبرى تتأهب وتتكاتف لتحطيم الأنظمة الديمقراطية ومكافحة الاتجاهات الديمقراطية فى مصر . وهذه الحال يجب أن تزيدنا حماسة وغيرة لمكافحة الاستبداد والرجعية . وأرجو أن يكون لى نصيب يمتعنى بهذا الكفاح الذى أطمع فى الاشتراك فيه .

وثم مطامع أخرى تكاد لبعدها عن الواقع تقارب الأمانى . منها أن أرى أوربا وأحس رياح البلطيق فى شمال ألمانيا وأسأل عن الكلمات الفرعونية التى لا تزال باقية فى فنلندا ، وأرى المرأة الأوربية الجديدة ، نورا ، التى كتب عنها إبسن وأثار بها خيالى قبل أربعين سنة . وأحب أن أقرأ «جورنال دوجنيف» وهو لا يزال ساخناً فور خروجه من المطبعة . وأحب أن أقعد فى قهوة فى البولفار فى باريس وأناقش فى السياسة . أناقش وأنا مطمئن إذ لن يقول لى أحد القاعدين : « أسكت . ليس لك حق فى المناقشة . الإنجليز أسيادكم . » ثم أقصد إلى غرفتى وأنا ذليل مهين أتبرز الدم والمخاط . كما حدث لى حوالى ١٩٠٨ . وأحب أن أزور تمبكتو فى أفريقيا وبكين فى الصين . وأحب أن أقف أمام جبل هملايا وأحس خشوع العبادة للكون . أحب أن أرى كل هذا لأن

من واجب من يعيش فى الدنيا أن يرى الدنيا . ولكن العالم لم ينظم إلى الآن كى يحس أبناؤه أنهم يملكون هذه الدنيا . ووطنيتنا الكبرى مجزأة وقوميتنا البشرية ممزقة ، فنحن فى أوطان كأنها أحجار لا نخرج منها إلا بإذن وفى فزع ، ونحن نلوى ألسنتنا بأصوات مختلفة فنظن أننا مختلفون .

وأخيراً أحب أن يكون من برنامجى قضاء السنوات الخمس الأخيرة من العمر فى الريف حيث أصادق الخراف والحمير والبقر والشجر وأتحدث إلى النجوم وأحيي الشمس فى الصباح وأضحك مع الماء يجرى بين النبات وآكل الخس والفجل على حرف القناة .

وهنا يستطيع السيكلوجى أن يجد فى هذا الشوق إلى الريف « هروبية » كأنى قد انهزمت أمام الصعاب المدنية والثقافة العصرية المتقلقلة . وأنا لا أحلل هنا . ولكنى لا أحب أن تكون هذه السنوات الخمس الأخيرة من العقد السابع آخر العمر لأنى ما زلت أطمع فى تجديد البرنامج عشر سنوات أخرى ، بل وعشر أخرى . فإن الشباب فى الثمانين والتسعين لم يعد أمنية بعيدة إذ هو حقيقة راهنة فى مئات من الذين عنوا بثقافة الذهن وثقافة الجسم معاً .

من ١٩٤٧ إلى ١٩٥٧

الصفحات السابقة وعددها ٢٥٢ هى كتاب « تربية سلامة موسى » فى طبعته الأولى تركتها على أصلها لم أغير فيها منذ كتبتها فى ١٩٤٧ ؛ أما الصفحات التالية فقد كتبتها فى سنة ١٩٥٦ و ١٩٥٧ .

عشر سنوات

عشر سنوات مضت منذ كتبت ونشرت الصفحات السابقة . وقد حدثت فى هذه المدة أحداث داخلية وخارجية تستحق التدوين لما لها من خطورة وطنية أو عالمية وذكريات سارة أو أليمة .

فأما أحداثنا الداخلية فأكبرها ثورة ١٩٥٢ وطرد فاروق وإعلان الجمهورية ثم تأميم قناة السويس فى ١٩٥٦ بعد إجلاء الجيش البريطانى عن الوطن .

وأما الأحداث الخارجية فكثيرة . كان أعظمها بلا شك الانقلاب الاشتراكى فى الصين . ثم التقدم العلمى فى اختراع القنبلة الهيدروجينية ثم الأقمار الصناعية التى يدور منها اثنان حول الكرة الأرضية وأنا أكتب الآن هذه الكلمات فى نوفمبر من ١٩٥٧ .

بلادنا تغيرت والدنيا تغيرت

فإننا منذ تبوأ صلاح الدين الأيوبى عرش مصر فى ١١٧٦ إلى نهاية حكم فاروق فى ١٩٥٢ لم نعرف ملكاً أو سلطاناً عربياً أو مصرياً . إذ كانوا كلهم أتراكاً أو أكراداً . وقد دمروا مصر تدميراً كاد يكون كاملا .

ولذلك كان خلع فاروق انتصاراً للقومية المصرية العربية وليس محض انتقال من النظام الملوكى إلى النظام الجمهورى . لأن الانتقال الأكبر كان من الحكم التركى الكردى الذى عاش ٧٧٦ سنة إلى الحكم المصرى العربى الذى سيعيش إلى الأبد بإرادة الشعب .

* * *

كان فساد الحكم ، قبيل خلع الشقى فاروق ، قد بلغ أقصاه . وكانت السراى تستخدم كل من شاءت من الموظفين ، وخاصة الجواسيس ، لتعقب جميع الذين يشتبه فى سلوكهم نحوها . وما زلت أذكر أن صديقى محمد خالد الكاتب الناهض المعروف زارنى ذات يوم . وقعدنا فى مكتبتى وتجاذبنا الحديث عن الفساد العام فى الأحزاب والزعماء وجرأة فاروق على العدوان . وتبادلنا كلمات تساءلنا فيها إذا كان فاروق ينوى قتلنا فى الشارع ؟ وأن من الأصوب ألا نبقى خارج منازلنا إلى ما بعد الغروب . وكان قد شاع عن فاروق أنه يقتل خصومه . ولم يكن أسهل من قتلنا فى الظلام على أيدى الجواسيس أو القبض علينا وطرحنا فى أحد السجون ثم الادعاء بأننا متنا بالسكتة .

وكانت تهمتنا وقتئذ أننا كنا نريد قلب نظام الحكم من الملوكية إلى الجمهورية . وتقدمت جاسوسة معروفة كانت تختلط بالأدباء وتصادق أديباً «كبيراً» بهذه التهمة لنا ، أنا والدكتور مندور ، إلى السراى . وقامت النيابة العامة بالتحقيق وأفرجت عنا بعد اعتقالى ١٥ يوماً واعتقال مندور ٥٠ يوماً .

ولذلك كان يوم خلع فاروق يوم التهانئ تصل إلىّ عن طريق التليفون وبالمصافحة فى الطريق وبالزيارة لبيتنا حين كنا نقدم الشربات للمهنئين . ومما يذكر مع السرور أن ضغط الدم عندى كان على الدوام حوالى ١٨٠ ولكن بعد طرد هذا الشقى من مصر انخفض إلى ١٥٠ . وبقى على ذلك إلى الآن .

وفساد فاروق يعود ، كما هو الشأن فى جميع الفاسدين ، إلى الوسط الفاسد الذى نشأ فيه . فإن تربيته الأولى أيام الطفولة والصبا كانت تتجه

نحو حرمانه مما كان يشتهى من طعام لأن أباه المغفل فؤاد كان يعتقد أن هذا الحرمان سوف يصنع منه رجلا يضبط شهواته . ولكن الذى حدث أن فاروق تعلم سرقة الطعام كما تعود خدمه الخاصون به تهريب الطعام إليه . فنشأ على اعوجاج فى الأخلاق يقصد إلى مآربه بطرق سرية ملتوية غير صريحة .

ولما مات أبوه انفرج بعد الضيق فأصبح يأكل كما لو كان ثوراً . ومن هنا هذا الإفراط فى السمن الذى انتهى إليه .

ولما أصبح ملكاً وجد أن النظام الحزبى فى مصر يتيح له أن يستغل الخلافات والمتناقضات فيضرب حزباً بآخر كى تنتهى السلطة إليه وحده . فإذا كان حزب الوفد يطالب بالحد من سلطانه وهو فى الحكم ، فإن حزب الأحرار الدستوريين يسلم له ، وهو خارج الحكم ، بما يخل به عليه حزب الوفد ، فيطرد الوزارة الوفدية ويأتى بوزارة من الأحرار الدستوريين . أما حكم الدستور ففى التراب .

وكان فاروق يجد ، مع الأسف ، من يؤيده من السفلة فى هذا السلوك الإجرامى نحو الوطن .

ولكن أى وطن ؟ إن مصر لم تكن وطنه إلا من حيث الشكل . وكان مكانه منها مكان الإقطاعى يستغل أبناءها . ولم يتعلم قط تاريخها ولم يدرس لغتها ولم يهدف إلى أهدافها ، وهذا شأن أسرته كلها منذ أيام محمد على أى منذ ١٥٠ سنة . بل ماذا أقول ؟ كان شأنه شأن الحاكمين الأتراك والأكراد منذ صلاح الدين الأيوبى إلى ١٩٥٢ .

وكان الشعب مع الوفد على الدوام إلى سنة ١٩٥٠ .

أما بعد ذلك فقد رسخ فى أذهان المفكرين أن الوفد لم يعد الهيئة الثورية التى كانت تكافح استعمار الإنجليز واستبداد السراى كما كانت حاله

أيام سعد بل بعد سعد إلى سنة ١٩٥٠ . وكان الوفد ، حين يتولى الحكم ، يبقى مناضلا لا يساوم ولا يخضع . ولكنه ، لهذا السبب نفسه ، لم يكن يبقى فى الحكم أكثر من سنة أو سنة وشهوراً . ثم يطرد . وتأتى فى مكانه وزارة يتولى رياستها أحمد زيور أو إسماعيل صدقى أو محمد حسين هيكل أو إبراهيم عبد الهادى أو غيرهم .

وزارة تسلم بكل طلبات السراى وتمجد اسم فاروق وآباءه وجدوده ومآثره وفضائله . حتى لقد قال الشيخ على عبد الرازق ، وكان وقتئذ وزيراً للأوقاف ، إن الله يجدد دينه مرة كل مائة سنة . وإن فاروق هو الموكل بتجديد الدين هذه المرة .....

ولم يكن التملق مقصوراً على الوزراء فإن أديبا « كبيراً » وصفه فى مقال بأنه فيلسوف ، كما أن أديباً كبيراً وأستاذاً محترماً آخر وقف فى الجامعة ، ومئات الطلبة أمامه يستمعون ، وفاروق ينصت لكلماته ، وقف يقول له : « وإن سلوكك الشخصى يامولاى ليصلح أن يكون قدوة لشعبك وللناس » . ولا تنسى كلمة « الشخصى » .

وكان المؤلفون يذكرونه فى مقدمات كتبهم على أنه « المصلح العظيم » هكذا أفسد الوزراء والأساتذة فاروق . ففسد . .

وفى ١٩٥٠ انتهى الوفد إلى حال من اليأس حملته على أن يقبل ويمارس منطقاً جديداً أملاه عليه إقطاعى كبير . خلاصته أن الوفديين لا يبقون فى الحكم إلا سنة ، أو سنة وشهوراً لأنهم يعارضون طلبات السراى . أما الأحزاب الأخرى فتبقى أربع وخمس سنوات لأنها تلبى طلبات السراى ولا تعارض . وأنه خير للوفد أن يلبى هو الآخر طلبات السراى ويكف عن خطة المعارضة التى ورثها من أيام سعد زغلول . وذلك كى يبقى فى الحكم خمس سنوات .

وأذكر أني قصدت إلى منزل مصطفى النحاس قبيل تأليف الوزارة الوفدية الأخيرة . وكان هناك جمع محتشد يزيد على المائة . فألقى الزعيم ، الذى كنا نحترمه ، خطبة أطنب فيها فى الثناء على فاروق وقال إن حكومة الوفد ستكون صارمة فى القضاء على كل حركة يقصد منها إلى المساس بجلالة الملك .

وعم الحاضرين وجوم. ولكن الزعيم لم يكترث لهذا الوجوم . فمضى يشرح ويؤكد المعانى للمحالفة الجديدة بين الوفد والسراى .

وانفض الشعب عن الوفد فى أسف ويأس .

وجعل فاروق يرقص ويرفس كما يشاء . وانتهى باختيار أحد حظاياه فجعله وزيراً . وكان هذا الحظى يقعد فى ملهى الأوبرج ويصفعه فاروق على قفاه مداعبة ولهواً . وبكت مصر لا لخيبة فاروق وحده بل لخيبة رجالها وزعمائها أيضاً .

وما زلت أذكر حادثاً عجيباً وقع فى ١٩٥١ . فقد كنت مع أصدقاء فى مشاهدة قصة سينمائية وخرجنا حوالى الساعة الحادية عشرة وسرنا فى شارع عماد الدين نستروح نسيم المساء . فأشار أحدنا إلى شارع إلى اليمين وقال : هنا ماخور يزوره فاروق فى بعض الليالى .

وأثارت هذه العبارة استطلاعنا ودخلنا الشارع . فوجدنا رجال البوليس السرى فى ملابسهم التنكرية واقفين فى الأماكن الاستراتيجية . ووجدنا السيارات. ورأينا البيت تتلألأ منه أنوار المصابيح

وكان رجال البوليس السرى فى غاية الكياسة يمنعون ويشيرون فى رفق واستحياء . وكثرت تعليقاتنا . وقصد كل منا إلى مسكنه وهو يفكر .

وعند ما أتأمل تلك الأحداث المهينة لتاريخنا أجد أن الوفد لم يكن ليجد الفرصة لضرب السراى أكثر مما وجدها فى ١٩٥٠ . فإن فاروق

قبل سنتين كان قد دفع الجيش المصرى إلى مقاتلة إسرائيل دون أن يستشير مجلس الوزراء فضلا عن البرلمان . وهذا عمل يكفى وحده لخلع أى ملك فى العالم . وأوقعنا بذلك فى حرب كان جيشنا فيها لا يزيد على ٢٣ ألف جنـــدى بينما كان جيش إسرائيل يبلغ ٦٥ ألف جندى . وأنا أنقل هذه الأرقام عن جلوب (باشا) الذى لا يمكن أن يتهم بحب مصر .

على أن لفاروق هنا فضلا قد أسداه إلى بلادنا من حيث لا يدرى ومن حيث لا يقصد . ذلك أن الحرب بيننا وبين إسرائيل قد نبهت الجيش إلى مدى الفساد الذى كان يعم بلادنا . فكانت بداية التفكير والعمل لإنقاذ الوطن من الاستعمار البريطانى والاستبداد الفاروقى . وبدأت الثورة تختمر .

* * *

وسارت الثورة ، التى شرحتها فى كتابى « الثورات » ، فى تدرج :

التخلص من السراى ، ثم التخلص من الإقطاعيين . ثم التخلص من الإنجليز ، ثم البناء والإصلاح .

* * *

وكان أعظم ما قامت به الثورة ، بعد ذلك ، هو الإقدام على تأميم قناة السويس فى ١٩٥٦ .

وتاريخ هذه القناة لا يقرؤه مصرى إلا مع الألم والغيظ . فإنه أكبر عملية نصب واحتيال فى السياسة العالمية فى القرن التاسع عشر .

وأذكر أنى فى ١٩٤٧ دعوت فى مقال بمجلة « مسامرات الجيب » التى كان يصدرها الأستاذ عمر عبد العزيز إلى تأميم هـــذه القناة ، وقلت فى تدليلى وتبريرى إن هذه القناة تقع فى أرض مصرية وإن

تأميمها من حيث القانون لا يزيد على تأميم الترام فى القاهرة . وعدت فكتبت مقالات أخرى فى هذا المعنى فى مجلات أخرى . ولا أعتقد إلا أن الوفديين كانوا يقرأون مقالاتى هذه فى استهزاء وسخرية . ولكن أحد الصحفيين سأل النحاس (باشا) ، بإيعاز من الشركة على ما أظن ، عن إشاعة التأميم . فأجاب بأنه ليس عند الحكومة أية نية للتأميم وأنها تنتظر انتهاء الامتياز حين تستولى عليها أى فى ١٩٦٩ ..... كان الوفد قد فقد روح الكفاح .

وأممت القناة فى ١٩٥٦ . وأحس الشعب أنه بهذا التأميم لم يسترد هذه القناة فقط بل استرد كرامته :

وقصة الكفاح الذى كافحنا به الدول الثلاث التى أغارت علينا بقواتها فى البر والبحر والهواء لا تزال ماثلة فى أذهان الجمهور .ولكن شيئاً واحداً يجهله الجمهور هو أن أمريكا التى كانت تبدو كأنها تدافع عنا وتلوم المغيرين ، هذه الدولة طلبنا منها فى الأيام الأولى من القتال أن تسعفنا بالقمح لأن ما كان عندنا منه لم يكن ليكفى أكثر من ثلاثة أسابيع . فرفضت . وأصررنا على الطلب . فرضيت بشرط أن ندفع الثمن بالدولارات . ولم تكن عندنا دولارات .

وكانت خطة الولايات المتحدة أن تغزونا من الداخل أى تنتظر حتى يعم بيننا قحط يحمل الجائعين على الثورة . وعلى الاستنجاد بالأمريكيين .

هذا هو الذكاء العظيم الذى تفتق عنه ذهن أيزنهاور الذى كان يلوم فرنسا وبريطانيا وإسرائيل لأنهم أغاروا علينا فجعلوا العالم يستنكر خططهم . أما خطته فلن تستنكر . أليس العالم « الحر » حراً فى أن يبيع القمح أو لا يبيع ؟

وعمدت حكومتنا إلى الدولة السوفييتية الاشتراكية وطلبت منها إسعافنا بالقمح . فلبت الطلب فوراً .

ومن ذلك اليوم إلى الآن يشكو أحد وزرائنا لغطاً فى القلب لفرط ما فزع عند ما اعتقد أن الشعب سيجوع وأنه هو المسئول .

إن « الديمقراطية » الغربية كانت تنوى إيجاد مجاعة فى بلادنا كى نخضع ولكن الاشتراكية السوفييتية أنقذتنا . فلم نجع ، ولم نخضع ، ولم ينقلب نظام الحكم ، ولم يرجع فاروق . وبقيت جمهوريتنا سليمة .

* * *

وقصة علاقاتنا مع الدولة السوفييتية من أروع القصص التاريخية : فإنها تحوى ألواناً من النذالة والشهامة ، والشرف والدناءة .

والشهامة والشرف فى جانب الاتحاد السوفييتى والنذالة والدناءة فى جانب الدول الغربية التى تصف نفسها بأنها حرة وبأنها ديموقراطية . ولا تذكر نفسها بأنها دول استعمارية قتلت الألوف من الهنود والمصريين والجزائريين بعد أن نهبت ثرواتهم .

ذلك أننا ، عقب ثورة اكتوبر فى ١٩١٧ حين استولى البولشفيون على الحكم ، قاطعنا دولة الاتحاد السوفييتى بإيعاز بل بإلزام من الإنجليز . وكان يكون معقولا ، فى عرف السياسة الاستعمارية السائدة وقتئذ ، لو أن هذه المقاطعة اقتصرت على التبادل الدبلوماسى . ولكن الإنجليز جعلوا هذه المقاطعة تجارية أيضاً . فكانت الدول السوفييتية إذا احتاجت إلى القطن المصرى رفضنا نحن بيعه لها . وعندئذ كان الإنجليز يشترون منا ما يحتاج إليه السوفيتيون ويبيعونه لهم . وفرق الثمن يذهب إلى جيوبهم : وكنا نرضى بهذه الحال . . .

وبقينا على ذلك نحو عشرين سنة نرفض بيع قطننا للروس وغير

الروس من دولة الاتحاد السوفييتى . وذلك بزعم أن الشيوعية تدخل بلادنا إذا تعاملنا مع السوفييتين .

إن أقل ما خسرناه فى هذه المقاطعة الخونية يبلغ نحو مائة مليون جنيه كسبها الإنجليز منا بدعوى حمايتنا من الشيوعية . وكان لنا وزراء عمى صم لا يفهمون ، أو خونة جبناء يعرفون ويخفون . وكان لفؤاد الملك السابق الجبان اللعين أكبر الأثر فى هذه المقاطعة .

وبقينا على تجمد فى العلاقات مع الاتحاد السوفييتى إلى يوم الهجوم على قناة السويس فى ١٩٥٦ . فرأينا الظلام فى الظهر . وجعلت عيوننا ترود الظلام نبحث عن أصدقاء . ووجدناهم . وكان فى مقدمتهم الاتحاد السوفييتى ، والهند ، والصين والدول العربية (أو بعضها) .

وهددت دولة الاتحاد السوفييتى الدول الثلاث الغادرة بالصواريخ ، إذا لم تكف عن الهجوم وتنسحب . وخضعت هذه الدول وهى ذليلة وخرجنا نحن منتصرين . وكان من أكبر العوامل لانتصارنا أن انضم الشعب إلى الجيش فى بور سعيد . فلم يظفر الأعداء بالاكتساح السريع لقناة السويس كما كانوا يدبرون .

وانتصر العدل بانتصارنا . إذ ثبت أولا أن الدول الناهضة الجديدة مثل الهند والصين والاتحاد السوفييتى تقاطع الاستعمار وتطارده . وثبت ثانياً أن هيئة الأمم ، على الرغم من كل نقائصها ، تستطيع أحياناً أن تقف فى صف العدل والحق ضد الطغيان والاستعمار . بل ثبت أخيراً أن العالم كله قد أصبح على وعى أى وجدان بعضه ببعض وأنه لم يغد هناك مكان للتسلل فى خفية إلى الاستعمار .

* * *

حين أعرض لأحداث بلادنا فيما بين ١٩٤٧ و ١٩٥٧ أجدها على

اختلاف بارز بين نصفيها . فالنصف الأول إلى ١٩٥٢ كان انحداراً كاد يكون انهياراً فى السياسة والأخلاق . فقد ظهرت حركات رجعية أوشكت على إحالة بلادنا إلى جهنم . كما فسد الجهاز الحكومى وطغى العرش واستخفت الأحزاب بالقيم الأخلاقية بل استهترت . وأصبح الزعماء والساسة الذين كنا نحترمهم لكفاحهم متسلقين يرغبون فى الوصول إلى القمم . وهى فى الأغلب قمم الثراء والسلطان دون أى حساب للشعب . بل تجاوزت هذه الحال إلى من نسميهم أدباء ومؤلفين وصحفيين كبار . فقد ارتشوا إلا الأقلين ، عن ضمائرهم وصاروا يؤلفون ويكتبون كما لوكانوا يكتبون إعلانات مأجورة فى الصحف بل إعلانات خادعة غاشة لخدمة النذل فاروق .

أما النصف الثانى ، أى من بداية الثورة فى ٢٣ يوليه من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٧ ، فيمثل نهضة الشعب . وهى نهضة إنشائية بنائية فى جميع المرافق ما زلنا ماضين فى طريقها الذى لن يكون له آخر . وأنا لذلك كبير التفاؤل بالمستقبل . وخاصة بعد هذا الاتفاق الذى عقدناه بيننا وبين الاتحاد السوفيتى فى نوفمبر من ١٩٥٧ على تصنيع بلادنا ، هذا التصنيع الذى أمضيت أكثر من ثلاثين سنة وأنا أنادى به .

ومتى انتشرت المصانع بيننا فإن كثيراً من أزماتنا سيحل . بل هذه الأزمات تحل نفسها عندئذ بلا عمل إرادى من الحكومة . فإن التعطل سيزول . وخاصة تعطل المتعلمين . وسيأخذ الاتجاه العلمى مكان الاتجاه الأدبى . وستزول العقائد التى تعطل التطور النفسى للشعب .

الثقافة العلمية ستكون النتيجة للحضارة الصناعية . ثم تعود هذه الثقافة فتؤثر فى هذه الحضارة . ويستمر التفاعل بينهما .

* * *

إن هذه الكلمات الموجزة التى كتبتها فى وصف إحساسى للأحداث الكبرى التى خلفت آثارها فى بلادنا فى السنوات العشر الماضية كنت أحب أن ألحق بها وصفاً آخر للأحداث الكبرى فى العالم . ولكن الايجاز الذى توخيته فى الكلام عما حدث فى بلادنا يطالبنى بإيجاز مثله فى شأن الأحداث العالمية .

وربما كان أعظم هذه الأحداث من حيث التنبيه العام لشعوب العالم وإيجاد وعى أى وجدان كونى جديد للإنسان هو هذا الحدث الذى مازلنا نعاين تفاصيله كل يوم . أى هذان القمران الصناعيان اللذان أرسلتهما دولة الاتحاد السوفييتى إلى السماوات يدوران حول الأرض .

وإطلاق الصواريخ لا يحتاج من العلم إلى ما تحتاج إليه القنبلة الذرية أو القنبلة الهيدروجينية . وهو فن أكثر مما هو علم . ولكن قيمته المسرحية كبيرة لأنه بمثابة الإنذار للنائمين كى يصحوا أو للغافلين كى يتنبهوا .

وقد اضطرت الصحف إلى أن تلغط بشأن السفر إلى القمر ثم إلى الكواكب عقب إطلاق الصاروخين اللذين انطلق منهما القمران . وأصبحت العامة ، قبل الخاصة ، تتحدث وتعلق وتفكر . وهذا كله كسب للذكاء البشرى سوف تكون له آثاره البعيدة العميقة فى المستقبل القريب .

أما الحادث التاريخى العظيم بل الرهيب فهو ظهور الصين الجديدة دولة اشتراكية تقف فى صف العدل والخير للبشر ضد الاستعمار والغدر والخيانة فى الأمم التى تزعم أنها حرة وديمقراطية . وقد أصبح عدد الاشتراكيين فى الاتحاد السوفييتى والصين ودول أوربا الشرقية نحو ١٠٠٠ مليون . وهم قوة كبيرة سوف تقضى على سبة البشر الكبرى ، أى الاستعمار فى السنوات القريبة القادمة .

هم قوة جديدة . ولكنهم أيضاً قوة عجيبة من طراز آخر غير ما عرفه التاريخ . فإن دولة الاتحاد السوفييتى مثلا تعاقب كل من يجرؤ من مواطنيها على الدعوة إلى الحرب بعقوبات قد تصل إلى السجن ٢٥سنة . وهذا فى الوقت الذى يقف فيه الوغد تشرشل فى فولتون بالولايات المتحدة ويطلب من حكومتها ضرب السوفييتين بالقنابل الذرية .

ولو كان تشرشل مواطناً سوفييتيا وألقى هذه الخطبة ضد أمريكا مثلا فى موسكو لعوقب بالسجن مدة قد تبلغ ٢٥ سنة . ولكنه أحد المواطنين فى بريطانيا دولة الاستعمار والحرب ونهب البترول من العرب وقتل اليمنيين والعمانيين والكنيويين الخ ...

ولا أستطيع أن أقول إن الحرب الكبرى الثالثة لن تقع . ولكنى أقول إن احتمال وقوعها قد نقص بعد أن فاز الاتحاد السوفييتى باختراع الصواريخ وبعد أن زادت أسلحته الأخرى .

إن قوة الاتحاد السوفييتى هى الضمان الوحيد للسلم فى العالم فى عصرنا .

* * *

وأحتاج إلى أن أقول شيئاً عما مر بشخصى من الحوادث فى السنوات العشر الماضية .

فمنذ حوالى ١٩٤٦ اتضح للوفديين أنى ، لما أتسم به من اليسارية ، عبء عليهم وأنهم يتهمون برعايتى أو على الأقل بالتسامح معى . ولست أشك أنى كنت مقلقاً لهم . فإنهم لم يستطيعوا قط زحزحتى عن عن مبادئى الاشتراكية وعن نقدهم لتخلفهم فى خدمة العمال وعن كراهتى للسراى وبغضى للحركات الرجعية التى كثيراً ما حالفوها هم وصانعوها . وقوطعت من الصحف الوفدية . بل أستطيع أن أذكر حادثة تدل على النفاق المستتر الذى كان يمارسه زعماء فى الصحافة .

ذلك أن أحد الصحفيين الوفديين الكبار ، وهو ليس فى مصر الآن ، دعانى ذات يوم كى نتقابل للحديث فى شأن مهم . فلما التقينا وجدته يعرض علىّ العمل فى جريدته الكبرى بحيث أشرف على الاتجاهات السياسية فلا يكون هناك فيما ينشر ما يخالف الخطط والأهداف الوفدية . وبقينا نحو ساعتين ونحن فى نقاش . بل فى ترتيب وتنظيم لصفحات جريدته . وبعد أن تعبنا افترقنا على أن نجتمع بعد يوم . ولكن مرت أيام ولم نجتمع ولم يطلبنى هذا الصحفى الكبير .

وأحسست الإهمال بل الإهانة . وقصدت إلى موظف كبير بهذه الجريدة ، صار وزيراً بعد ذلك ، وقصصت عليه ما حدث . فابتسم وهو يقول : إنه ، أى صاحب الجريدة ، لا يعين موظفاً فى جريدته إلا بعد استشارة السراى . وإنه بالطبع قد عرض اسمى . فوجد الرفض البات المنتظر . فسكت . وأهمل الموضوع .

وهذا كان شأن كثيرين غيره . كانوا يتظاهرون بمعارضة السراى فى استبدادها ولكنهم فى الوقت نفسه كانوا يحرصون على الولاء لهـــا فلا يخالفون لها رأياً بل يستشيرونها .

وتسكعت جملة سنوات فى الصحافة بسبب هذه المقاطعة حتى لقد مرت علىّ شهور لم أكن أكسب منها سوى خمسة جنيهات فى الشهر كنت أتناولها ثمناً لمقال فى « مسامرات الجيب » . ومن ذلك ، المقال ، الذى دعوت فيه إلى تأميم قناة السويس .

وفيما بين ١٩٤٧ و ١٩٥٢ كان « البوليس السياسى » أو « القلم المخصوص » ، كانت كل هذه الهيئات تعربد وتعمل للتخريب فى السياسة والصحافة والتفكير . وكانت جميع هـــذه الهيئات أيضاً على اتصال

بالسلطات الإنجليزية الاستعمارية بدعوى مكافحة الشيوعية وتبادل المعلومات عن نشاط الشيوعيين .

ولم يكن بعيداً على بعض هؤلاء الجواسيس ، بحكم هذا الاتصال وطبيعته ، أن يخدموا الإنجليز فى خططهم الاستعمارية ، بل إن هذا هو ما يرجح ما دام هناك اشتراك وتبادل فى المعلومات . . .

وطغى هذا البوليس طغياناً عظيما حتى لقد كان « يخطف » مؤلفاتى من مكتبة كاد موس بلا أدنى حرج . فكان يدخل أحدهم ويضع يده على عشرة أو عشرين مجلداً ويخرج بها دون أن يدفع الثمن بدعوى أنها محرّمة . وكانت هذه المكتبة فى شارع ٢٦ يوليه (فؤاد سابقا) . ولا تزال صاحبتها حية أما المكتبة فقد أقفلت .

والذى يجب أن أعترف به فى ألم أن أدباءنا الكبار ، إلى بداية الثورة فى ١٩٥٢ ، لم يعملوا قط للثورة على الأوضاع الخسيسة التى كان يستند إليها نظام الحكم . فلم يكن بينهم إلا من أيد فاروق أسفل تأييد وأحطه . ولى الحق بأن أفخر بأنى لم أكن كذلك . وقد نالوا بهذا التأييد كل ما أرادوا من مال وجاه ، حتى لقد عيرونى بأنى أحسدهم على ما نالوه هم وحرمته أنا من يدى فاروق الملوثتين .

وهاأنذا فى ١٩٥٧ أجد الجمهورية التى اتهمت بالدعوة إليها وحبست من أجل ذلك فى ١٩٤٦ ، وأجد نجاح دعوتى للصناعة وهى دعوة أمضيت فيها أكثر من ثلاثين سنة ، وأجد دعوتى للعلم كما أجد الإيمان بنظرية التطور ، وأخيراً أجد تهمتى بأنى أحب دولة الاتحاد السوفييتى ، هذه التهمة قد أصبحت فخراً ، بعد إذ عرفنا وعاينا موقفها الأبى الكريم نحونا فى هجوم فرنسا وبريطانيا وإسرائيل علينا فى ١٩٥٦ . وأجد مصريا

صميما على رأس حكومتنا هو جمال عبد الناصر الذى نشأ فى عائلة فلاحين وتشمم تربة « خيم » .

ولذلك أستطيع أن أقول : إنى انتصرت .

* * *

من وقت لآخر أتساءل : ما هو القصد العام فى حياتى الفكرية ؟

وأجيب بأن القصد العام ، عن وعى أو غير وعى ، قد تغير عندى جملة مرات . فنى سنى شبابى ، حين كنت فى أوربا ، كان أعظم ما يحفزنى إلى الكفاح قصدان ، هما :

١ — استقلال بلادنا من هوانالسيطرة الإنجليزية .

٢ — ثم تحرير المرأة من الحجاب ودعوتها إلى أن تكون لها شخصية مستقلة بالتعلم والعمل والإنتاج والكسب .

كانت هاتان الفكرتان تغمراننى فى أوربا . فلما عدت إلى مصر وجدت أن الوعى الدينى أكبر وأعمق من الوعى القومى أو الوطنى سواء بين المسلمين أم بين الأقباط . وأحسست عندئذ قصداً آخر هو ضرورة مكافحة الغيبيات بنشر نظرية التطور حتى تأخذ بينة العلم مكان عقيدة الإيمان . وعندئذ يجد الشباب وعياً جديداً هو الوعى للعلوم المادية الذى يساوى بين أبناء الأمة بل أبناء البشر ، ويدعو إلى الوفاق بدلا من الشقاق .

وكنت وأنا فى لندن قد درست الاشتراكية التى رسمت لى قصداً نبيلا عظيما ليس لمصر فقط بل للعالم كله . وقد كان من المحال أن نفرض نجاح هذه الدعوة التى كان الإنجليز المستعمرون والباشوات الإقطاعيون يتحدون فى مقاومتها . ومع ذلك أنشأنا حزباً اشتراكياً فى ١٩٢١ قتله سعد زغلول . مع أنه لو كان قد تركه لكان وسيلة إلى الدراسات

الاقتصادية التى تنحاز فى اتجاهها نحو الطبقات الفقيرة فى بلادنا ؛ ولكن سعد زغلول كان « باشا » . وكان هذا التفكير أبعد ما يكون من ذهنه .

ثم وجدت لى قصداً علمياً آخر هو تعميم الصناعة . وظنى أنى تعلقت بهذا القصد باعتبار الصناعة بديلا من الاشتراكية . أى بديلا يغرى الأغنياء . ثم تكون هى ، أى الصناعة بعد ذلك ، وسيلة لتحقيق الاشتراكية .

ومع أنى فى كتابى « هؤلاء علمونى » قد ذكرت نحو عشرين من الأدباء والعلماء والمفكرين الذين وجهوا نشاطى الذهنى وربوا نفسى فإنى لم أذكر معهم كارل ماركس داعية الاشتراكية . والآن أحب أن أعترف أنه ليس فى العالم من تأثرت به وتربيت عليه مثل كارل ماركس . وإنما كنت أتفادى من ذكر اسمه خشية الاتهام بالشيوعية .

والآن فى ١٩٥٧ أحس قصداً آخر إزاء الغيوم الذرية التى تخيم على العالم وتهدد البشر بالفناء . هو تعميم السلام ومكافحة دعاة الحرب . وهؤلاء الدعاة هم مائة فى المائة استعماريون يهدفون إلى استعباد الشعوب الأفريقية والأسيوية ونهب ثرواتهم ومنع الحضارة عنهم ولو بالمخاطرة بمستقبل البشر . إذ هم ليسوا بشراً . هم ذئاب .

وإنى أعمل الآن فى صحف « أخبار اليوم » وأؤلف الكتب بغية تحقيق هذه الأهداف .

سن السبعين

أبدأ هذا الأسبوع (٤ يناير ١٩٥٦) السنة السبعين من عمرى ، وهذه السن هى التى ذكرها سليمان الحكيم فى التوراة بأنها أقصى ما ينشد الإنسان على الأرض . وهو بالطبع لم يكن يعرف وسائلنا الصحية الوقائية والغذائية وأننا نطمع إلى سن المائة محتفظين بشبابنا وقوتنا .

وأظن أن القارئ يجب أن يعرف إحساساتى وأنا على عتبة السبعين . والحق أنى أحب أن أعرفها أنا نفسى . وعند ما أتأملها أرانى أعود إلى الذكريات فى الماضى ثم أرانى أؤمل للمستقبل .

وأول ما ألاحظ أن علامات الشيخوخة قد بدت على سطح الجسم أكثر مما بدت فى داخله ، فإن على وجهى غضوناً ، كما أن شعرى الأسود الجعد قد استحال إلى زغب أبيض ناعم . ولكن بعد ذلك لا أجد من علامات الشيخوخة داخل جسمى سوى القليل الذى لا يؤبه به . بل القليل الذى أرتاح إليه مثل ضعف الشهوات النارية التى كانت وقت اشتعالها تقارب التشنجات . وكذلك يجب أن أسلم بأن الذاكرة قد ضعفت بعض الشىء . ولكن يقوم مقامها استيعاب عام يقارب الحكمة .

ولكنى حين أعود إلى السنين الماضية أحس الرضى ، إن لم يكن السرور ، بأنى عشت حياة حافلة بالأفكار العميقة والاقتحامات الذهنية والشهوات العليا . وأنى قد احترفت العلم والأدب والفلسفة وألفت الكتب وصرت عضواً مقلقاً للمجتمع المصرى ، مثل ذبابة سقراط ، أنبه الغافلين ، وأثير الراكدين ، وأقيم الراكعين الخاضعين .

ومما يسرنى بشأن حياتى الماضية أن ما كتبته قد حييته وما حييته قد

كتبته . وأكثر مما يسرني أني ما زلت أحتفظ بشباب ذهني لأن عادات شبابي لا تزال تلازمني . فأنا أقرأ وأقتني الكتب وأستطلع وأستزيد من الثقافة كما كنت أفعل قبل أربعين أو خمسين سنة .

وأحب لذلك أن أعيش نحو عشرين أو ثلاثين سنة أخرى أو أكثر :

وليست العبرة بالطبع أن نزيد الحياة سنين وإنما هي أن نزيد السنين حياة بأن نتعلم ونعمل ونعرف ونختبر . أجل نختبر المر والحلو ونستنبط منهما حكمة للعيش وزيادة في الفهم .

لقد ذكر التاريخ عن كاتو الروماني أنه شرع يتعلم اللغة الإغريقية في سن الثمانين . وليس في هذا ما يستغرب ، فإن عادات الدرس التي نتعودها في الشباب تلازمنا إلى سن المائة . وظني أن كاتو تعود الدراسة منذ شبابه فلزمته العادة إلى سن الشيخوخة . فإذا كنت أيها الشاب تلعب الورق وتلهو بألعاب الحظ الأخرى فإنك سوف تفعل ذلك عند ما تبلغ السبعين أو الثمانين . أما إذا كنت تحب الدرس وتعشق الثقافة فإنك سوف تبقى على هذه الحال ولو بلغت المائة .

وغرامي بالكتب في سنة ١٩٥٥ هو غرامي بها في سنة ١٩٠٥ .وطربي بالفكرة النبيلة والكشف العلمي والأمل الجديد في الحضارة هذا العام هو طربي بها جميعاً قبل خمسين عاماً .

هو أسلوب للحياة اتبعته . فلازمني .

وقد احترفت الصحافة والتأليف ، وأدغمتهما . ولذلك أنا في الصحافة أحاول أن أرفع المقال السياسي أو الاجتماعي إلى مقام الأدب . وأن أستنبط العبرة من الأخبارحتى أرفعها إلى مقام الأنباء . وأن أجعل من الصحيفة كتاباً ومن الكتاب صحيفة .

وكان من مصادفات حياتي أني عرفت نيتشه في ١٩٠٩ . فاكتسح

ذهنى اكتساحاً : وكنت حوالى العشرين أتقبل الرأى بلا مناقشة ؛ فآمنت بكثير من أقواله وعبدت الكثير من عقائده . ومع أنى قد شفيت بعد ذلك من هذه الأقوال والعقائد فإنى ما زلت أحتفظ بالكثير مما تعلمت منه . وأول ذلك أن أنظر إلى الدنيا بالعقل البكر والقلب البكر وأن أقتحم الأفكار بروح البطل أو الشهيد .

وعرفت الأدب ، وعرفت الفلسفة ، وعرفت نفسى ، من نيتشه . وإلى الآن لا يخلو أدبى من فلسفة ، كما لا تخلو فلسفتى من أدب أو علم .

وكثير من الفضوليين العارفين يحسون هنا أنى لا أقول كل ما أريد . وكأنهم يسألوننى : ما هو إيمانك ؟

وجوابى أنى أؤمن بالمسيحية والإسلام واليهودية ، وأحب المسيح وأعجب بمحمد ، وأستنير بموسى ، وأتأمل بولس وأهفو إلى بوذا . وأحس أن كل هؤلاء أقربائى فى الروح أحيى معهم على تفاهم وأستلهم منهم المروءة والحق والرحمة والشرف .

وأؤمن ، زيادة على هؤلاء ، بحب الطبيعة وجلالة الكون . ولا أنسى المعنى الدينى فى نظرية التطور وموكب الأحياء التى يتوجها الإنسان . بل إنى لأجد هذا المعنى الدينى فى جمال المرأة ، وقداسة الأمومة ، وشرف الإنسانية ، وأؤمن بتولستوى وغاندى وفولتير وبيكون .

إن الصورة الوحيدة التى تطل على سريرى أراها عند اليقظة فى الصباح وقبل النوم فى المساء هى صورة تولستوى الإنسان الإنسانى .

وبكلمة أخرى أقول : إن بؤرة إيمانى هى الإنسانية بمن تحوى من

فلاسفة وأنبياء وأدباء وبما تحوى من شجاعة وذكاء ومروءة ورحمة وجمال وشرف .

ولا يمكن أن يكون إيمانى ، ساذجاً كله طمأنينة وتسليم . فأنا بعيد عن هذه الحال ولا آسف على ذلك . لأنه إذا كان اليقين أروح فإن الشك أشرف كما يقول برتراند روسل . وأنا رجل قد أكسبتنى الثقافة النظرة الشاملة للحياة والكون . واعتقادى أنه لا يمكن للإنسان أن تتكون له شخصية دينية سامية ما لم يكن مثقفاً قد حقق النظرة الاستيعابية للكون فنظم عقله وقلبه بحيث ينسجمان فى حركة الحياة الكونية والآمال الإنسانية ووصل فى كل ذلك إلى رأيه الخاص أو قلقه الخاص . والدين رأى خاص ولا يمكن أن يكون عاماً . ويجب أن يبقى قلقا دائما .

وهناك عشرات من الكتب المحورية التى بنيت بها حياتى وشخصيتى . ولكنها كانت بمثابة الأسكلة التى تنصب من الخشب والحديد لتشييد البناء ، حتى إذا تم ، هدمت . ولذلك هدمت نيتشه كما هدمت عشرات غيره لأنى استغنيت عن الأسكلة بعد أن بنيت بها شخصيتى .

وحين أتأمل شخصيتى وأهدافى أحس أنى أؤدى فى مصر فى القرن العشرين ما كان يؤديه رجال النهضة فى أوربا فيما بين سنة ١٤٠٠ وسنة ١٨٠٠ . ولذلك أجد قرابة روحية ونشاطاً رسالياً بينى وبين ليوناردو دافنشى ، وفولتير ، وديدرو ومن إليهم . ومن هنا دعوتى إلى العقل بدلا من العقيدة ، وإلى استقلال الشخصية بدلا من التقاليد .

وربما كان أقرب هؤلاء الناهضين إلى نفسى هو ليوناردودافنشى . فإنى مثله فى الاعتقاد بأن الذهن الناضج لا يرضيه أن يحد نفسه بحدود الأدب وحده ، أو الفلسفة وحدها ، أو العلم وحده ، إذ هو يجمعها كلها ليستقطر منها فلسفة للحياة .

وإذا شئت أيها القارئ ، زيادة فى التفاصيل فاعرف :

١ — أنى أؤمن بالحقائق . ومن هنا تعلقى بالعلم لأنه حقائق .

٢ — وإذا كان لابد من عقيدة فإنى أؤمن بها عندما تكون ثمرة الحقائق العلمية . فإنى أعتقد مثلا بالمستقبل الاشتراكى للعالم كما لمصر وأعمل له . لأن الاقتصاديات العصرية تومئ بذلك .

٣ — وأؤمن بأنه ليس فى الدنيا أو الكون أو المجتمع استقرار . لأن التطور هو أساس المادة والأحياء والمجتمعات . أى أساس الوجود . وأن الجمود الاجتماعى هو معارضة آثمة من الأشرار لسنن الكون والحياة .

وقد وصلت فى تثقيف ذهنى إلى أقصى ما يطمح إليه رجل فى سنى . ومع أنه لا تزال فى نفسى اختمارات سوف تنفجر فى المستقبل فإن أهدافى الآن عديدة . وهى إحالة مصر من قطر شرقى ضعيف يحيي على التقاليد فى أساليب الزراعة والعيش إلى قطر أوربى يحيي على العلم والصناعة واستقلال الشخصية مع الاتجاه الاشتراكى فى تنظيم اقتصادياتنا .

وعندى أن الاشتراكية هى التطبيق العملى لمذهب الإنسانية .

وقد حققنا من الاشتراكية أساسها الأول وهو الجمهورية بدلا من الملوكية . وقمنا بمكافحة الإقطاع وإيجاد المصانع . وأحس لذلك كأن أشياء كثيرة قد أنجزت من وعد حياتى .

والاشتراكية تعنى فى النهاية أن الشعب فوق كل شىء . بل هو كل شىء . ومن هنا كفاحى الصحفى لإيجاد أسلوب شعبى فى الكتابة العربية ، وأيضاً فى جعل الأدب والعلم والثقافة جميعها فى متناول الشعب لا تقصر على طبقة خاصة منه .

وقد عاب على بعضهم أنى أكتب عن الملوخية والبامية والفول المدمس

وإنما فعلوا ذلك لبعدهم عن الشعب وتعلقهم بمذاهب قاحلة من الأدب وأنه يجب أن يترفع عن الحديث عن هذه الأطعمة العامية وأن يتحدث عن «الترف الذهنى» . وأنا أختلف معهم من حيث أنى أعتقد أن الأدب رسالة إنسانية لخدمة المجتمع وإنهاض الإنسان .

وفقراء شعبنا الذين أفقرهم وأجاعهم الاستعمار الأجنبى والاستبداد الوطنى لا يحتاجون أن نصف لهم طاقات الورد وبتلات الياسمين .

لا . ليس الجمال غاية الأدب . وإنما غايته هى الإنسانية .

والإنسانية تطالب الأديب الإنسانى قبل كل شىء بتوفير الطعام للشعب . ثم بعد ذلك الورد والياسمين ...

وحياتى الماضية فى الصحافة والأدب والعلم يمكن أن تعد فشلا أو نجاحاً .

فهى فشل يكاد يكون تاماً من الناحية المالية لشخصى . فقد احترفت الصحافة منذ ١٩١٤ حين أخرجت مجلة المستقبل . وبقيت على هذه الحرفة ، مع انقطاعات قهرية تدوم سنوات أو شهوراً ، إلى هذا العام ؛ واشتغلت فى جملة صحف ومجلات وأخرجت «المجلة الجديدة» ١٤ عاماً ، وألفت نحو أربعين كتاباً .

ومع كل ذلك كنت ، كى أعيش ، أبيع ما أملك مما ورثت . كما أن وزارة «المعارف» لم تشتر قط بما قيمته مليم واحد من مؤلفاتى ولم تشترك فى «المجلة الجديدة» سنة واحدة . وهناك صحفيون زاملونى لا يقل مجموع كسبهم فى هذه السنين عن ٣٠ أو ٤٠ ألف جنيه . بل إن بعضهم كانت وزارة «المعارف» تشترى مؤلفاً واحداً منه بألف جنيه دفعة واحدة . وكذلك هناك مجلات شهرية أو أسبوعية ، دون ما أصدرت أنا من مجلات ، بلغ اشتراك هذه الوزارة فيها ما لا يقل عن عشرين ألف

أو ثلاثين ألف جنيه . بل إن محطة الإذاعة المصرية عاملتنى بما يشبه المقاطعة كأنى لست مصرياً حتى أنى لأستطيع أن أقول إنى لم ألق فيها فى السنوات العشر الأخيرة أكثر من خمسة أحاديث . بينما غيرى قد ألقى فيها نحو ٤٠٠ أو ٥٠٠ حديث فى هذه المدة .

ومنح كثير من الأدباء جوائز لم أحظ أنا بجزء من مائة منها . . وهذا نجاحهم ، وهذا فشلى .

أما نجاحى أنا فمن طراز آخر . هو أنى استطعت أن أغير شباب مصر والشرق العربى إلى حد بعيد ، وأوحيت إليهم استقلالا وشجاعة واعتماداً على العلم والرأى العصريين . أى جعلتهم يتطورون ويحيون حياة جديدة . وأكسبتهم بصيرة للمستقبل يعرفون بها ما فيه من ميزات وأخطار .

واستطعت أن أستنبط لهم أسلوباً كتابياً عصرياً يؤدى ، إلى حد ما ، ما يحتاجون إليه من فهم . كما أنى لم أتأخر عن التنبيه إلى ضرورة الأخذ بالحروف اللاتينية عند ما اقتنعت بأن حروفنا العربية الحاضرة تعوق ارتقاءنا العلمى وتحدّ من ثقافتنا .

ولم أعرف قط البرج العاجى للأدب . وكيف يجوز لأحد أن يحيي فى أبراج إذا كان ٩٩ فى المائة يحيون فى بلدرومات من طين ؟

ونجاحى مع الشباب يرتبط بفشلى المالى مع الحكومات البائدة . ذلك لأنى رفضت الانضمام إلى القوات الرجعية بألوانها المختلفة . وهى القوات التى كانت تكافئ أتباعها فى سخاء بالمال والعقار وتقاطع خصومها وتكيد لهم . وكان حبسى سنة ١٩٤٦ بتهمة الدعوة إلى الجمهورية بدلا من الملوكية والدعوة إلى الاشتراكية بدلا من الإقطاع ، من أسباب النجاح الذى

أفهمه وأنشده . ومن أسباب الفشل الذى يعيرنى به شيوخ الأدب الذين ألقوا الخطب والمقالات والقصائد فى مدح البغى فاروق . حتى أن أحدهم وصفه بأنه قدوة فى الأخلاق يجب على شباب مصر أن يقتدى بها .

وبداية سن السبعين تومئ من قريب إلى نهاية الحياة . ولكنى أعتقد أنى مازلت بعيداً عن هذه النهاية بنحو عشرين أو ثلاثين سنة ، وسوف أتقبل هذه النهاية فى طمأنينة كاملة . ولكنى أحب أن أبقى على شهواتى الذهنية الحاضرة وأن أنهم إلى الحياة والمعرفة والفهم كما كنت فى ماضى حياتى .

وأحب أخيراً أن أموت كما مات الجاحظ « وعلى صدره كتاب » :

السبعون سنة الأولى من عمرى

فى هذا الشهر ، يناير من ١٩٥٧ ، أتممت السبعين سنة الأولى من عمرى . وما لم يكن رأس الإنسان مصنوعاً من الحجر الصلد فإن فى هذه السنين ما يبعث على التفكير والعبرة بشأن الحياة .

بشأن الحياة وليس بشأن الموت ..

وإنى حين أفكر فى الموت فإنما أفعل ذلك كى أستنبط وأستخلص منه عزماً جديداً لأن أحيا . وذلك لأنى أسلم بنهائية الموت . وليست لى أية مطامع غيبية بعده . وكثيراً ما يخطر ببالى لذلك أن إحراق الجثمان خير من دفنه . لأن النار التى تلتهم الجسد وتحيله إلى غاز ورماد تؤكد هذه النهائية . أو على الأقل تؤكدها فى إحساسنا . ولذلك أرجو أن أنتهى إلى هذا المصير ولو فى المرمدة الهندية التى بالقاهرة .

وما بقى من عمرى سوف أنشد فيه النمو . أى أن أكبر ولا أعمر فقط . أكبر وأنضج .

ومن مدة قريبة قرأت هذا البيت التالى ووقفت عنده أتأمل الحال النفسية التى انبعث بها الشاعر إلى تأليفه :

ندمى أن الشباب مضى   لم أبلّغـــه مدى أشره

إنه شاعر سخيف . إذ لا بد أنه قال هذه الكلمات وهو فى مثل سنى الآن ؛ فى نهاية السبعين . ولكن أى أشر هذا الذى يندم على أنه لم يحققه ؟

أنه يأسف على إنه لم ينزق كما كان يحب .

ولكن أكبر ظنى أنه لو كان قد نزق وأشر وانغمس فى اللذات الجنسية والكثولية والصبيانية لكان ندمه أكبر . وأقصد هنا الانغماس . لأننا نستطيع ، حتى بعد سن السبعين ، أن نمارس هذه اللذات فى اعتدال . وهى مع ذلك لذات حيوانية لا ترتفع إلى قمة كياننا ، إلى الرأس :

ولى هنا اعترافان :

الأول : أنى أهتم بالدنيا ومصير الإنسان أكثر مما أهتم بنفسى .

والثانى : أن أكبر لذاتى هو اللذة الفلسفية .

ولست أجد السعادة الراكدة فى هذه الأشياء الثلاثة . وإنما أجد الكفاح النشيط .

إنى أعرف ناساً هانئين راكدين سعداء . ولكن سعادتهم لذلك أشبه بالموت منها بالحياة . وما يحسبونه سعادة هو غفلة ونعاس أو أنانية حيوانية . ولكن السعادة الإنسانية هى أن نهتم بالإنسان والمجتمع . فنقلق . ثم يبعثنا القلق على الكفاح . . ثم تكون سعادة الكفاح .

إننا نولد مرة واحدة من أمهاتنا . وميلادنا هذا يعين لون بشرتنا ومقدار قامتنا ونحو ذلك . ولكن الإنسان الذى يكبر ويسير نحو النضج يحتاج إلى أن يولد قبل أن يبلغ السبعين نحو عشر مرات . وهو عندئذ لا « يصل » إلى سن السبعين أو الثمانين وإنما ينمو إليها . فإن النمو هو شعار الحياة الحية .

لقد كان أول ميلادى ، بعد سن المراهقة ، حين عرفت نظرية التطور . فأحسست بها أن عقلى قد كبر وأن نظرتى قد أصبحت تشمل الكون ، وأنى أحاول الشمول والاستيعاب . وأن لى ديانة تربطنى

بأقصى النجوم والكواكب وأحط الديدان والحيوان . وإنى مسئول أمام الحياة والإنسانية .

وامتدت أمامى دراسات ما زلت أتابعها بسبب هذه النظرية . وهى دراسات تتعدد وتتنوع وتتناول خميرة العجين وجسيمات الذرة ومنشأ السحر ومستقبل الإنسان .

لقد عرفت برنارد شو ، وفكرت كثيراً فى معنى الشخصية الإنسانية فى درامات إبسن ، وعرفت الحبيب المجنون نيتشه ، وصعوت على الحضارة الأوربية وهبطت على أسسها فى الصناعة والعلم ، وأعجبت بجوتيه ، واجترت كثيراً ، مع فرويد ، أسرار النفس الإنسانية ، ودرست الغصن الذهبى ، وسحرنى دستوفسكى وبقيت فى السحر حتى أنهضنى منه جوركى .

وكنت كلما اكتشفت واحداً من هؤلاء أحسست بميلاد جديد .

كنت وأنا فى سن الأربعين أو الخمسين ، عند ما كانت الحياة ترهقنى بتكاليفها وأعبائها ، أهفو إلى الريف وأحلم بالراحة والهناء فى سذاجته وأتمنى قضاء السنين الأخيرة من العمر فيه حيث البساطة فى كل شىء كما فعل روسو .

ولكنى الآن لم أعد أسيغ هذا الحلم ، هذا الفرار من أعباء الإنسانية ، بل أصبح همى أن أزيد هذه الأعباء بأن أستوعب مشكلات العالم وأدرس ثقافته . وأحس كلما زادت هذه المشكلات وتعقدت أن مسئوليتى قد زادت أيضاً . والرجل المثقف الذى ينشد الريف وسذاجته وراحته هو جندى فار من معركة الخير والشر التى يجب أن يعرف مكانه فيها .

وقد كنت أيضاً أفكر فى هواية ما تخفف من جد الحياة وضغط المسئوليات . بل لقد نصحت الشبان بأن يختاروا إحدى الهوايات ويتعلقوا

بها . ولكنى أحس الآن أن الهواية فرار آخر من الحياة . وأننا يجب ألا ننشد التسلية وتزجية الوقت بل ننهض بعمل إيجابى كفاحى لخير الإنسانية .

وأصل الرغبة فى راحة الريف . واتخاذ الهواية ، هو أننا ننشد ، عن جهل ، ما نسميه السعادة . ولكن هذه السعادة تخدر النفس . أما الهموم والاهتمامات فتنبهها . ولن نحس الحياة على أعمقها إلا حين نكافح . بل الكفاح هو الذى يجعلنا نحس أننا أحياء .

ومع ذلك إذا كانت الهواية كفاحاً فأنعم بها . ولكن هذه الكلمة عندئذ تخالف معناها المألوف .

وهناك وسائل كثيرة للتربية الذاتية ولكن أعظم هذه الوسائل وأجداها هو الكفاح من أجل الخير فى العالم . فأنت تكافح كى تغير حالا قائمة ولكنك أنت أيضاً تتغير بهذا الكفاح . وذلك لأنك ستحتاج إلى الدرس والتفكير ، وستلاقى الصعوبات والعقبات . وقد تنجح أو تخيب ، وكل هذا تربية لك وزيادة فى عقلك وبصيرتك . إن الماضى ميت .

وأنت حين تكافح تختار المعارف الحية التى تغير الدنيا والأخلاق والآمال . فأنت حين تدرس وتربى يتجه تفكيرك بالمعارف الحية نحو المستقبل أى نحو التغيير . أما إذا اخترت المعارف الميتة فإن تفكيرك يتجه نحو الماضى ، وليس فى الماضى مكان للتغيير . إن الماضى ميت .

وهنا الفرق بين كاتب وكاتب ، بين أديب وأديب . بين مفكر وغير مفكر .

إن المفكرين المكافحين يفكرون فى المستقبل ويخططونه بينما غير المفكرين يكتبون عن الماضى وكأن ليس لهم شأن بالمستقبل ، ليس لهم كفاح .

إن الشيخوخة ، سن السبعين أو الثمانين ، قد تكون بشيراً لك ، أيها الشاب ، أو نذيراً . فهى بشير إذا كنت قد عودت نفسك ، منذ شبابك ، العادات الحسنة ، الإيجابية والسلبية . وأول هذه العادات الاهتمام بالدنيا والإنسانية والسياسة والثقافة ومستقبل بلادك بل مستقبل الإنسان . . فإذا اهتممت بكل هذه الأشياء السامية فانك أنت ستسمو بها كما تربى وتكبر شخصيتك ويحد ذكاؤك . وهذا الاهتمام نفسه سيشغلك عن العادات السيئة التى تفشو كثيراً بين الفارغين التافهين الذين يستهلكون كل يوم عشرات الفناجين من القهوة والشاى ويدخنون إلى حد إفساد الجو حولهم . وقد يتسلون عن فراغهم وسأمهم بالانغماس فى الخمور أو نحوها .

لا تكن شاباً أجوف ، لا تكن شاباً تافهاً . اهتم بالدنيا وبالإنسانية . واهتمامك هذا يربيك ويجعلك شاباً وأنت فى سن السبعين والثمانين . واجعل من الفلسفة أكبر لذاتك التى تحيا معك إلى يوم وفاتك والتى تفوق كل ما يقوله التافهون عن الملذات الأخرى .

مؤلفاتي التي وجهتني

نحن المؤلفون نؤلف الكتب ونوجه بها الأفكار ثم تعود هي فتؤلفنا وتوجهنا ، والأغلب أن الكتاب الأول الذى ألفناه وشغفنا بإخراجه وتهيأنا له بالتفكير البكر ، أو ما ظننا أنه بكر ، هذا الكتاب هو الحلقة الأولى من سلسلة للكتب التى نخرجها بعد ذلك وفق البذور التى بذرناها فى هذا الكتاب الأول . ثم نحن فى تأليف هذه الكتب نحرص على رباطنا بالكتاب الأول . فلا نحيد ولا ننحرف .

لا نحيد ولا ننحرف لسببين :

الأول : أننا نحرص على ألا نبدو متناقضين . وهذا أخف السببين ، بل أتفههما .

والثانى : أن الأفكار الأولى التى حفزتنا على التأليف الأول تبقى حية تنمو وتكبر ، فنتوسع فيها بما لها من خاصة التوسع . وليس لحرصنا على التزامها .

إن الذين قرأوا جان جاك روسو يذكرون كيف أن فكرة الطبيعة فأجأته وهو يمشى على طريق ريفى بين الحقول . فما هو أن وجد شجرة حتى ارتمى تحتها وأخذ يجتر الفكرة : إن الإنسان كان سعيداً فى سذاجته وبداثيته . ثم عرف العلم والحضارة فتعس .

الفكرة بسيطة بل مخطأة أيضاً . ولكن لها زاوية تستحق التنقيب والبحث . وأخرجها روسو فى رسالة قصيرة قرأها الناس ودهشوا بها . ولكن الشيء الذى يلفت نظرنا هنا أن حياة روسو نفسه تأثرت

بهذه الرسالة . فإنه بعد تأليفها شرع يتوسع فى معانيها ويحيي هذه المعانى فى سلوكه وأخلاقه وأفكاره .

هذه الرسالة التى ألفها روسو عادت فألفت حياته هو ووجهته وعينت أهدافه . وكل منا ، نحن المؤلفين ، له مثل هذا الشأن إذا كان مؤلفاً أميناً يقول ما يعتقد وما يتعقل . أما إذا كان مأجوراً للدفاع عن مذهب فليس لمؤلفاته تأثير عليه سوى ذلك التأثير الذى يقال عن الكاذب يكرر ويدمن الكذب حتى يصدقه .

حتى القصة يؤلفها الكاتب فى الخيال ويعين لبطلها صفات وميزات تعود بعد ذلك فتؤثر فى هذا المؤلف نفسه حتى ليتخذ هذه الصفات والميزات لنفسه . ألسنا نرى فى قصص تولستوى أبطالا يشبهون تولستوى نفسه ؟

قد تقول هنا : إن أبطال تولستوى فى قصصه يشبهونه فى الأخلاق لأن أخلاقه هو كانت كذلك قبل أن يخلقهم . وهذا ممكن ولكنه ليس ضرورياً . ولكنه وهو يدون صفاتهم ويفصلها ويعين ميزاتهم ، كان يتبنى شخصياتهم ويستلهمها فى حياته . ثم أيضاً يرتبط بها .

الكتاب الذى أؤلفه هو صديقى الذى أؤثر فيه ويؤثر فىّ .

كان أول ما ألفت كتاباً باسم « مقدمة السبرمان » . وذلك فى ١٩٠٩ وأنا فى لندن أعانى اختمارات ذهنية كثيرة انفجر بعضها فى هذا الكتاب . والآن بعد خمسين سنة أجدنى لم أتغير عما قلت فى ذلك الكتاب ، بل كل ما حدث أنى توسعت وتعمقت ، ففى هذا الكتاب إشارات أو فصول موجزة عن : التطور ، الاشتراكية ، برنارد شو ، إبسن ، الدين والعلم ، حرية الفكر ، داروين ، الخ .

وهذه الإشارات أو الفصول قد صارت بعد ذلك مؤلفات ومجلدات

أثرت فى حياتى وأخصبتها وأدخلتنى السجن وأسعدتني بدراسات وألهمتنى خططاً ما زلت فى نتائجها ومناهجها .

وفى ١٩١٤ أخرجت أول مجلة أسبوعية فى مصر باسم « المستقبل » . والاسم نفسه يحوى دلالة لحياتى بعد ذلك . فقد كافحت دعاة الفعل الماضى الذين يعوون بشأن التقاليد . كما دعوت إلى العلم الذى نبنى به مستقبلنا . وأجد فى أحد الأعداد مقالا بعنوان « الله » يحوى أفكاراً يمكن أن توصف عند الصديق بالحرية وعند العدو بالإلحاد .

وفى ١٩١٦ وجدتنى أدعو فى جريدة الأخبار إلى إلغاء الطربوش . وكان يحفزنى على ذلك إحساس بأنه شارة الاستعمار التركى لمصر .

وكنت فى إخراج مجلة المستقبل ودعوتى فيها إلى الاشتراكية وإلى المادية ، ثم بعد ذلك فى اقتراحى إلغاء الطربوش ، مسوقاً بالكتاب الصغير الذى ألفته فى ١٩٠٩ بعنوان «مقدمة السبرمان» .

وحررت بعد ذلك مجلة الهلال سبع سنوات أخرجت فيها هذه الكتب. وهى جميعها امتداد وتوسع وتعمق لما جاء فى « مقدمة السبرمان » : حرية الفكر ، العقل الباطن ، أحلام الفلاسفة .

ثم عملت فى تحرير البلاغ فنشرت فيه مقالات جمعت بعد ذلك كتاباً باسم « نظرية التطور وأصل الإنسان » .

ومؤلفاتى فى السيكلوجية ، من « العقل الباطن » إلى ما تلاه من الكتب هى امتداد لنظرية التطور . لأن العقل الباطن هو الحيوان الكامن فى الإنسان .

واتجاهى الاشتراكى الحاضر هو امتداد للفصل الموجز الذى خصصته عن الاشتراكية فى هذا الكتاب الأول الذى ألفته فى ١٩٠٩ . وكنت وقتئذ عضواً بالجمعية الفابية الاشتراكية الإنجليزية .

وقد تشعبت فكرة التطور عندى فأصبحت إيماناً بالارتقاء واتجاها نحو المستقبل وبحثاً بل أبحاثاً متكررة فى معانى الحضارة والثقافة والعلم .

نحن المؤلفين نتجاوب مع مؤلفاتنا نؤثر فيها ونتأثر بها . وهى ، كما توجه القراء ، توجهنا نحن أيضاً . وبالطبع أعنى المؤلفات التى تتصل بالأخلاق والحياة العامة والمذاهب والسلوك . إذ ليس من المعقول أن مؤلفاً يؤلف كتاباً فى صناعة الصابون أو القيم الصحية فى بعض الأغذية تتأثر حياته به . وإن كنت أظن أن اهتمامه بمثل هذه الموضوعات سيربطه ، ثقافياً وعلمياً ، بها طيلة حياته . ولكن العبرة الكبرى بالكتب التى نؤلفها فى الأخلاق والمذاهب والسياسة والاجتماع .

وبكلمة أخرى أستطيع أن أقول للقارئ : إذا شئت أن تتعرف إلى مؤلف وتقف على منهجه فى الحياة واتجاهه الفلسفى فإنه يكفيك أن تقرأ عناوين مؤلفاته .

ذلك لأن مؤلفاته هى حياته .

ومؤلفاته الأولى على الأخص . إذ هى مؤلفاته التى ألفها عفو ميله واتجاهه ، وقصد منها إلى البوح والاعتراف عما كان يكظم فى نفسه من أفكار .

والأغلب أنه لم يكسب منها بل لعله خسر فيها . إذ هو ألفها دون أن يهدف إلى كسب وإنما إلى إشباع شهوة ذهنية .

فيما بين ١٩٠٩ و ١٩١٤ ألفت « مقدمة السبرمان » و « نشوء فكرة الله » و « الاشتراكية » وجميعها خسرت فيها بل لم أكد أجمع جنيهاً كاملاً منها كلها . ولكنى سعدت بها لأنى بحت بالمكتوم فى نفسى واسترحت بالبوح .

وليس عجيباً بعد ذلك أن أعظم مؤلفاتى انتشاراً وهو كتاب « نظرية

التطور وأصل الإنسان » ، الذى ألفته منذ ثلاثين سنة ، كان أقلها كسباً لى . فقد بعت حقوق الطبع الكاملة فيه بعشرين جنيهاً فقط . مع أنه الآن فى الطبعة الرابعة .

وقد يظن القارئ أنى أبتئس بذلك . ولكن العكس هو الصحيح : فإنى سعيد بانتشاره لأنه يعالج نظرية حبيبة إلى نفسى أحب أن تنغرس مبادئها فى قلوب القراء العرب حتى يسترشدوا بها فى السياسة والاجتماع والأخلاق ...

هو هزيمة مالية فاضحة ولكنه انتصار ذهنى رائع .

وكتاب آخر جرى هذا المجرى هو « تربية سلامه موسى » . فما هو أن خرج من شركة « الكاتب المصرى » فى ١٩٤٧ حتى أعلنتنى أنها أبطلت مشروعاتها فى الطبع والنشر وأنها ستبيع الكتاب بالمزاد . أى تبيعه بقدر ما فيه من ورق يوزن بالأقة . ولم أصب منه غير عشرين أو ثلاثين جنيها . ولكنى أعده أحسن ما ألفت . فإنه اعترافات صفيت فيها حسابى مع المجتمع الذى أعيش فيه وسردت حياتى بكل ما تحوى من صفاء أو غبار .

وكثير من مؤلفاتى بعد ذلك ، وهى تبلغ أربعين ، هى اعترافات . فإن « هؤلاء علمونى » و « الأدب للشعب » كلاهما يبسط للقارئ ما أعتقد عن تطورى الثقافى . ولكن كثيراً أيضاً من مؤلفاتى الأخرى هو تعليمى قصدت منه إلى الشرح والبسط كما فعلت فى جميع كتبى عن السيكلوجية .

وهناك كتاب ألفته فى ١٩٥٣ كان يجب أن يؤلف قبل ذلك بنحو ثلاثين سنة هو كتاب « الثورات » . وإنما أخرنى عن ذلك هذا العرش الأجنبى الملوث على بلادنا ووقوف الاستعمار البريطانى السافل خلفه يؤيده لأنه كان وسيلته إلى استغلالنا . وقد كان موضوعه يختمر فى ذهنى

منذ ألفت « مقدمة السبرمان » فى ١٩٠٩ التى تعد ثورية فى الاجتماع والثقافة أكثر مما هى كذلك فى السياسة . فقد عرضت فيه للثورات أو لبعضها الخطير التاريخ وأبرزت معانيها وأهدافها .

ومع أنى لم أخرج هذا الكتاب إلا فى ١٩٥٣ فإن عامة القراء فكانوا يجدون فى مؤلفاتى السابقة اتجاهات ثورية فى مختلف النشاط السياسى والاجتماعى والاقتصادى .

وكان الحزب الاشتراكى الذى ألفته ، مع حسنى العرابى وغيره ، ثورة فى نظر النيابة العامة التى حققت معنا فى ١٩٢٣ بشأنه . ثم سنت بعد ذلك القوانين ، بإيحاء الإنجليز ، وحظرت إيجاد مثله فى المستقبل .

ويقول السيكلوجيون إن الابن الأصغر فى العائلة كثيراً ما ينشأ ثائراً . ذلك لأن مكانه فيها هو مكان الصعف حين يستبد به إخوته الكبار ويحملونه باستبدادهم على التمرد والثورة . وهو حين يشب ويختلط بالمجتمع يتجه فيه اتجاه الثورة إذ يجد فى أشخاص المستبدين ذكريات غير واعية من ستبداد إخوته الكبار أيام طفولته .

وقد كنت أصغر إخوتى فى العائلة . ولا أذكر منذ صباى إلا أنى كنت على اعجاب عظيم بعرابى . وكانت ترجمتى بعد ذلك لكتاب بلنت « التاريخ السرى » للاحتلال البريطانى لمصر » من المسرات التى أسعدتنى . أجل ووجهتنى . فإن كراهتى للعرش أيام فاروق ؛ وهى التى جعلت النيابة العامة تحبسنى أسبوعين ، بعضها على الأسفلت ، فى ١٩٤٦ بدعوى التآمر على إيجاد حكم جمهورى بدلا من الحكم الملوكى ، هذه الكراهة كانت تجرى فى سياق كراهتى لتوفيق الشقى الذى تآمر مع الإنجليز على هزيمة عرابى وتحطيم الحركة الو طنية .

إن ظروفاً كثيرة سيكلوجية واجتماعية ، عملت لتوجيهى الثورى .

كما عملت أنا بعد ذلك لهذا التوجيه للقراء . ثم كان بعد ذلك الارتباط بين المولف ومؤلفاته .

* * *

ماهو الذى يحفزنى على التأليف ؟

اعتقادى أنه اهتمامى بالشعب . أى أنه مجموعة من عواطف السخط على الحال القائمة والأمل فى حال مرجوة . والسخط يثير على غضب الكثير من الجهلة الذين لا يفهمون طبيعة الحضارة الغربية وما يكمن فيها من عدوان واستعمار للشعوب الضعيفة التى تعيش على قديمها الرث من التقاليد . ولست أنا من عشاق هذه الحضارة الغربية بدليل أنى اشتراكى . فهى حضارة المباراة والاشتراكية حضارة التعاون . ولكن، لأن هذه الحضارة الغربية عدوانية استعمارية ، يجب علينا أن نقاومها بأسلحتها . وأعظم هذه الأسلحة هو العلم والصناعة . مع اتجاهنا نحو الاشتراكية .

وعند ما أقارن بين مؤلفاتى وبين مؤلفات طه حسين وعباس العقاد أعجب أكبر العجب لأن موضوعاتهما التى تشغلهما تختلف عن الموضوعات التى تشغلنى .

فان لهما أكثر من ثلاثين أو أربعين كتاباً فى شرح المجتمع العربى فى بغداد والمدينة ومكة فى القرن الأول للهجرة . ولهما دراسات عن أبطال من العرب ماتوا قبل ١٣٠٠ أو ١٢٠٠ سنة . وكأن المجتمع المصرى الحديث ، وثورات الشعوب ، والانقلاب الاقتصادى الذى يفصل بين عصر الإقطاع ، وعصر الصناعة ، وحرية الفكر التى تدعو إلى

العقل بدلا من العقيدة ، وقيمة العلم ، ونظرية التطور ، كل هذا وغيره مما يلابسه من الأفكار والاهتمامات لا قيمة لهما فى نظرهما لارتقاء شعبنا . وليس لواحد منهما كتاب واحد عن هذه الموضوعات .

ومما يؤسف له أنه قد نشأت لهما « مدرسة » تؤلف عن كل شيء عربى قديم . وليس عن مشكلة مصرية حديثة . والتأليف هنا سهل لا يكاد يحتاج إلى مجهود . إذ ليس أسهل من الرجوع إلى الطبرى ، أو الأغانى ، أو ابن الأثير ، أو السيرة الحلبية ، أو غير هذه الكتب لاستخراج صيغة جديدة لترجمة قديمة . وكثيراً ما تكون هذه الصيغة الجديدة دون السيرة أو الترجمة القديمة .

وكما كان يقول توفيق الحكيم أو ، كما كان يمارس الفن ، وفق سخافة « الفن للفن » ، كذلك أحس وأنا أسمع بعنوان جديد لطه حسين أو عباس العقاد بأنهما يؤلفان للتأليف وليس لهدف اجتماعى يخدم الشعب .

فى كل ما ألفت أنا هدفت تصريحاً أو إضماراً إلى خدمة الشعب وتوجيهه . فإن عناوين مؤلفاتى يكفى ذكرها للبرهان على ذلك . مثل « نظرية التطور » و « حرية الفكر » و « الثورات » و « كيف نربى أنفسنا » و « الأدب للشعب » و « برنارد شو » و « طريق المجد للشباب » . الخ .

ولو كنت قد وجدت الحرية أيام الحكومات الملوكية السابقة لألفت عن الاشتراكية بما كان يوجه ويرشد .

وسخافة « الفن للفن » جعلت توفيق الحكيم يدعو إلى الموت بدلا

من الدعوة إلى الحياة كما هو واضح فى درامته « أهل الكهف » .

* * *

والآن عند ما أراجع حياتى التأليفية ، أحس الأسف أكثر مما أحس الفرح . ذلك أنه كان يمكننى أن أنفع بلادى أكثر لو أنى كنت على حرية تامة فى التأليف . ولكنى كنت حين أؤلف أحس التوتر فى ضميرى وأقف حائراً فترات يظل فيها عقلى حائراً بين أن أكتب ما يجب أو أكتب ما يمكن . وأنتهى إلى « ما يمكن » وأترك ما يجب . أى أترك الحسن إلى ما هو دونه .

وربما كان الأزهر أكبر ما عاق تفكيرى الحر . وقد ألفت كتابى : « هؤلاء علمونى » ولم أذكر فيه كارل ماركس مع أنه الأول فى تنويرى وتثقيفى . فقد خشيت إن أنا ذكرته أن أتهم بنشر الشيوعية .

وما زلت أذكر مع الغصة أن شيخ الأزهر ، أيام حكم إسماعيل صدقى فى ١٩٣٠ ، طلب من وزارة المعارف ألا تشترك فى « المجلة الجديدة » التى كنت أصدرها وقتئذ وأناهض بها هذا الطاغية الذى ألغى الدستور . وكانت حجة الأزهر أن هذه المجلة تدعو إلى الكفر . ووجد إسماعيل صدقى فى هذه التهمة تبريراً لتعطيلها وتخلصاً من نقدى له . وفعل مثل ذلك مع اثنتى عشرة مجلة أخرى كنت أصدرها .

وإذا تركنا هذا النقص فى حرية الفكر باعتباره أحد الأسباب لتعطيل التأليف الحر فى مصر فإنه يبقى علينا أن نقول إن هنالك نقصاً آخر يساعد على هذا التعطيل هو تقصير دور النشر فى القاهرة وبيروت وغيرهما عن خدمة المؤلفين بترويج مؤلفاتهم بالطرق التجارية المألوفة فى بيع أية سلعة أخرى . فإن الكتاب فى السوق سلعة لا تختلف من غيرها

وتحتاج إلى الأساليب التى تروج بها السلع الأخرى فى نظامنا التجارى الحاضر . كما أن إخراج الكتاب بالطبع والتغليف لا يزال دون ما يستحق من العناية .

ولهذا لا يزال المؤلفون يستعينون بالصحافة على التأليف . ولا أكاد أعرف مؤلفاً عربياً يجد كفاية عيشه من التأليف وحده . إذ هو فى أغلب الحالات يستعين بعمل آخر . وأقرب الأعمال إلى التأليف هو الصحافة .

ولكن الصحافة للمؤلف تنفع وتضر .

فهى تنفع لأنها تلصق المؤلف بالجمهور وتبرز فى وعيه أحداث العالم وتطوراته وتحمله على أن يكون شعبياً فى أغلب الحالات . ولكنها تضر من حيث تعويده السرعة بل العجلة فى التأليف والرضا بالنتيجة الوقتية دون التمهل والإتقان .

وظنى أنه يمكن المؤلفين أن يرصدوا حياتهم أو معظمها للتأليف إذا وجدوا الخدمة المتقنة من الناشرين فى الارتقاء بالطبع والإخراج مع النشاط فى التوزيع .

* * *

وأخيراً أحب أن أنبه إلى أن التأليف ليس صناعة أو حرفة وإنما هو حياة . ذلك أن موظف الحكومة أو المتجر أو المصنع أو صاحب الدخل من العقار أو الأرض أو الشركة ، كل هؤلاء يعملون ، إذا عملوا ، انتظاراً للأجر أو الربح . وليس لعملهم أية علامة بحياتهم ، عملهم ينفصل من حياتهم إذ هو وسيلة للحياة وليس الحياة نفسها .

ولكن المؤلف يحيى فى مؤلفاته كما أن مؤلفاته تحيى فيه . فهو مشتغل الفكر دائب التأمل يمارس الحياة وهو يلحظ منها موضوعاته التأليفية .

بل إن هذه الموضوعات تغمره وتتدخل فى علاقاته العائلية والاجتماعية والاقتصادية .

وحياة التأليف هنا تشبه حياة الفلاحة التى تغمر الفلاح فى كل يوم من أيام حياته . بل فى كل ساعة فهو لا ينتظر منها الأجر فقط إذ هو يحياها فى نخاع عظامه . أى أنه لا يجعل من الفلاحة وسيلة للعيش فقط وانما هو يحيي حياة الفلاحة والزراعة ، حياة الريف التى يجعل منها هدفاً أكثر مما يجعل منها وسيلة .

ذكريات من حياة « مَىّ »

قصة « مى » هى عندى ذكرى ثم أسف *

عرفتها فى ١٩١٤ وكانت حوالى العشرين من عمرها حلوة الوجه مدللة اللغة والإيماءة تتثنى كثيراً فى خفة وظرف. وكان الدكتور شبلى شميل يحبها ويعاملها كما لو كانت طفلة بحيث كانت تقعد على ساقيه . وكان يؤلف عنها أبياتاً ظريفة من الشعر للمداعبة وما هو أكثر من المداعبة .

وكنت أصدر فى ذلك الوقت مجلة أسبوعية باسم المستقبل . وكنت أنا وشبلى شميل على نية معينة مبيتة فى إصدارها من حيث مكافحة الخرافات الشرقية. ونشرت فى أحد أعدادها حديثاً مع مى أطريتها فيه إطراء عظيماً. وكان القارئ لكلماتى يلمح أكثر مما يرى من الإعجاب الأدبى ولكنى مع ذلك حرصت على أن يكون إعجابى بها أدبياً فقط . ولذلك لم أتعمق مى فى تلك السنين . وكانت أحاديثى لها اجتماعية أكثر مما كانت سيكلوجية .

وبقيت بعد ذلك أزورها فيجرى حديثنا على المستوى الأدبى الرفيع . وكانت مى على ثقافة واسعة فى الأدب الفرنسى وعلى اطلاع للأدب الإنجليزى . وكانت تتحدث باللغة الفرنسية فى طلاقة وترطن باللغة الإنجليزية فى دلال .

وكانت إلى هذه الثقافة النادرة موسيقية على دراية بكبار الموسيقيين. وكان إحساسها الفنى دقيقاً . وكانت لذلك تختار الفكرة والكلمة بما يطابق أو يجارى الروح الفنى : ولم تكن لذلك أيضا تبالى العلوم . ولم

أكن أجد بين الكتب التي حفلت مكتبتها بها كتاباً واحداً في العلم .

وكان هذا نقصاً واضحاً في ثقافتها ولذلك كانت حين تؤلف كتاباً أو مقالا تكتب بقلبها ، بعاطفتها ، دون العقل والمنطق . وانعكس فنها على حياتها فعاشت بالعاطفة . بالساعة « التي أنت فيها » . دون التفكير في المستقبل . وخاصة هذا المستقبل البعيد حين يذوى الشباب وتحتاج كل فتاة إلى حكمة العقل إذ ما ذهبت عنها حلاوة الوجه . وأهملت الزواج والأمومة إذ كانت لاهية بشبابها تتلألأ أمام أضيافها الكثيرين كل مساء وكان هؤلاء الأضياف من الباشوات الأثرياء أو من الأدباء الأثرياء أو من الأدباء المعدمين . وكلهم كان معجباً وإن اختلفوا في مواضع الإعجاب ..

وكانت مخطئة . وكان خطؤها خطأ الحياة . وكثير من الناس يفهم النجاح على أنه نجاح الحرفة أو الثراء أو الجاه . ولا يفهمه على أنه نجاح الحياة كلها . نجاح الصحة التي نعيش بها إلى يوم الوفاة . ونجاح الفلسفة التي توجهنا في هذه الدنيا ونجاح الحرفة التي نحصل منها العيش الإنساني بل كذلك نجاحنا في البناء العائلي والبناء الاجتماعي .

لم تفهم مي ذلك . ولذلك ما هو أن تجاوزت الخامسة والأربعين وبدأت خطوط الحلقة الخامسة ترتسم على وجهها ، وما هو أن أحست بأن جمهور المعجبين قد شرع يتناقص حتى ركبها الهم والقلق بل الخوف والرعب من ذهاب جمالها وذبول حلاوتها . والتفتت كثيراً في هذه الفترة من عمرها إلى التأليف والصحافة وأجادت ولكنها كانت تعاني صراعاً داخلياً هو محاولتها الجمع بين أن تكون امرأة جميلة وأديبة عظيمة .

وكانت هذه المحاولة فاشلة منذ البداية وكان يجب عليها أن تتنازل

عن عرش الشباب والجمال وترضى قانعة بعرش الأدب والفن . ولكن شق عليها بعد ثلاثين سنة قضتها وقلبها يضحك من نظرات المعجبين بها وكلمات الإطراء التى كانت تنبعث إليها وهى عاطرة لاهثة بعواطف المحبين ، شق عليها ألا ترى هذه النظرات ولا تسمع هذه الكلمات .

وبلغت التاسعة والأربعين . وهى سن اليأس عند المرأة التى لم تعرف أن لها ميزة أخرى فى الدنيا غير جمالها . وهى سن الحكمة والنضج عند المرأة التى صاغت شخصيتها واختبرت وعرفت . وكان يمكن مى أن تثابر على الآداب والفنون تدرس وتكتب وتؤلف . وكان يمكنها أن تقنع بالتبريز فى هذا الميدان بعد إذ رأت أن الميدان الأول قد تزلزل من تحت قدميها .

ولكنها لم تفعل . وابتأست كثيراً وصارعت المحال .

وفى هذا الانتقال الذى تمارسه المرأة قبيل الخمسين تتزعزع الشخصية بعض الشيء . فإذا رافقها مثل هذا الصراع الداخلى الذى كان يتمزق به قلب مى على الشباب الذاهب فإن هذا التزعزع يتفاقم .

وهذا هو ما حدث . فان مى شرعت تخلط بين الحقائق والأوهام . وكانت تطل من نافذة غرفتها فتجد من يتربصون بها بغية خطفها . وكانت أمها التى كانت تؤنسها قد ماتت . فزادت أوهامها وتجسمت حقائق مرعبة تمزق أعصابها وتطغى على عقلها .

وعرف أقرباؤها هذا الحال وخافوا عليها مصيرها المؤلم إذا بقيت وحدها . فأغروها بالسفر إلى لبنان للنزهة والتفرج فلما وصلت حملوها مقيدة إلى مستشفى ، أو مارستان ، حيث بقيت سنوات . عادت بعدها إلى مصر .

وسمعت بعودتها . فاتفقت مع صديق لى هو الأستاذ أسعد حسنى

على زيارتها . وكانت صورتها فى ذهنى لا تزال صورة الفتاة الجميلة الحلوة التى تضحك فى تدلل وتتحدث فى تأنق عن النزعات والمذاهب الأدبية أو الفلسفية . ودققنا الجرس . فخرجت لنا امرأة مهدمة كأنها فى السبعين قد اكتسى رأسها بشعر أبيض مشعث . وكان وجهها مغضناً قد تقاطعت فيه الخطوط . وكان هندامها يبدو مهملا .

وظننت لأول رؤيتها أنها خادمة وانتظرت كى تتنحى وندخل أنا وصديقى . ولكنها لم تتنح . وغمزنى صديقى الذى كان قد زارها من قبل وهو يهمس بصوت أعتقد أنها سمعته : « الآنسة . الآنسة ! » .

وعندئذ سلمت وأنا مثلج من الخجل . ودخلت أجر قدمى وقعدت إزاءها وأنا أفكر فى هذه المأساة . أين شبابها ؟ أين حلاوتها ؟

وكان معظم ما يؤلمنى أنى أحسست أنها فهمت من ترددى فى التسليم عليها عند الباب أنى أنكرت شيخوختها ولم أعرف أن مى الجميلة الرشيقة خالدة الشباب ، قد استحالت إلى عجوز لم يبق لها من جمالها غير الذكرى .

وقعدنا نتحدث : فروت لنا كيف خطفوها من القاهرة إلى مارستان العصفورية فى لبنان وكيف كانوا يتربصون بها على مقهى قريب فى الشارع القريب من منزلها . ثم شرحت لنا ما كابدته من عذاب فى هذا المارستان وجعلت تلومنى لأنى لم أسأل عنها . وتدفقت دموعها كما لو كانت ميازيب . وجرى بكاؤها فى تشنج كأنها كانت تلتذه ! ثم هدأت . وأشعلت سجارة وجعلت تدخن وتنفخ دخانها على مداعبة لأنى أكره الدخان . وهنا استولى عليها طرب فشرعت تضحك فى إسراف يزيد على إسرافها فى البكاء . وكانت تتشنج بالضحك كما كانت تتشنج بالبكاء :

وتكرر هذا منها . ضحك فبكاء . ثم ضحك فبكاء . مع إسراف في الاثنين .

وسهل على الوقوف على علتها . هي مانيا . أي ذلك الجنون الذي يقع كثير من الانبساطيين ذوي الوجوه المستديرة .

وخرجنا أنا وصديقي أسعد حسني . وافترقنا . وأحسست ضوضاء في رأسي وغيظاً في قلبي . لأني جرحت كبرياءها وأفهمتها بترددي وصمتي على الباب حين ظهرت أني افتقدت جمالها فلم أجده . وأني شهدت بذلك أن دنيا الشباب التي كانت تستمتع بها وتمرح فيها قد زالت عنها . وارتميت على كرسي في مقهى قريب من بيتها عند ميدان مصطفى كامل وشرعت أفكر . وأحسست كأني أريد أن أصفع وجهي لهذه الجلافة التي بدت مني عند لقائها . ثم نهضت وأنا على نية العودة إليها في اليوم التالي كي أكفر عن زلتي الماضية .

وفي صباح اليوم التالي وعلى غير ميعاد قصدت إليها حوالي الساعة التاسعة من الصباح . ودققت الجرس . وبعد قليل فتحت الباب وكانت متبذلة كأنها لم تكن تنتظر سوى بائع أو بواب يطرق بابها في هذا الوقت . فلما رأتني ارتدت خجلة . ولكني سارعت إليها وعانقتها وقبلتها في حرارة مصطنعة كأني عاشق مفتون . ولم يكن هناك عشق وإنما كانت تغمر قلبي رحمة وكان كمدي على لقاء الأمس قد أثارني إلى هذا اللقاء كي أثبت لها أنها لا تزال كما كانت : مي الجميلة الرشيقة الأديبة التي تجذب القلوب وتفتن العقول .

وما هو أن خليت عنها حتى تراجعت وهي تقول : « مرسي ، مرسي يا أستاذ » ! وكأنها أحست أن هذه المعانقة لم تكن إلا تفضلا وتصدقاً . وقعدنا معاً وأنا أحاول أن أحبب إليها بالكلمة والإيماءة وأرد إليها

كرامتها المجروحة . وطربت هى ومرحت . . وعادت تقص على القصص وتتشنج بالضحك . ثم تذكر آلامها فى المارستان فتبكى وتتشنج بالبكاء . وكان بكاؤها أكبر من البكاء . كان دموعاً تتدفق ترافقها تشنجات وتنهدات عالية . ثم يغمرها هدوء ترتاح إليه وتعود إلى الحديث .

تفعل ذلك فى تكرار وأنا أخفف عنها وأداعبها وأضاحكها . وتركتها بعد عناق حاولت أن أحسن تمثيله . وظنى أنى أحسنت . لأنها حين ودعتنى كانت تثب ضاحكة مرحة . وودعتنى عند الباب بمثل ما ودعتها به . وتركتها وقد نذرت أنى أزورها مرتين كل أسبوع . ودعوتها لإلقاء محاضرة فى جمعية الشبان المسيحية فلبت الدعوة . وحضرت وألقت محاضرتها وهى على أحسن ما كانت من الرصانة والتفكير .

ولكن المرض ، المانيا ، لم يكن قد فارقها . ففى أحد الأيام كنت أسير بالقرب من البنك الأهلى فرأيتها متبذلة ، بل فى رثاثة شاذة ، وهى تحمل كرنبة كبيرة وتسير بها نحو بيتها . ولم تكن فقيرة إلى هذا الحد . إذ كان يمكنها أن تستخدم خادماً أو اثنين . ولكن الاختلاط العقلى الذى كانت تعانية من المانيا جعل تصرفها شاذاً . وحاولت أن أنزع منها الكرنبة وأسير معها إلى البيت . ولكنها رفضت . وسرت معها على خجل من المارة وأنا أفكر فى الحال السيئة التى انحدرت إليها . وفارقتها عند بيتها وقد غمرنى حزن وكمد .

ودعتنى الظروف إلى الاغتراب عن القاهرة نحو شهر . فلما عدت قرأت نعيها فى الصحف . سبعة أو ثمانية سطور فى عمود الوفيات هى كل ما بقى عن مى بعد موتها . .

وعرفت بعد ذلك أن مرضها قد تفاقم . وأنها التزمت مسكنها لا تخرج نحو عشرة أيام . وصامت عن الطعام . وكانت قد فقدت كل ما بقى لها من وجدان وتعقل . فكانت تبول وتتبرز فى أنحاء المسكن وعلى الفراش وسائر الأثاث . وماتت جوعاً وإن لم تحس أنها جائعة .

وقد تتبعت فى حياتها مؤلفاتها وكتبت لأحدها مقدمة .

وأسفى عليها أنى لم أزد اختلاطى بها وخاصة عقب عودتها حين لم يعد لها أب أو أم يؤنسها . لأنى أعتقد أنها كان يمكن أن تنقذ من هذه « المانيا » التى استولت عليها واستبدت بعقلها حتى سحقته لو أننا كنا قد استطعنا أن نبعث صالونها الأدبى من جديد حتى تعود فتتلألأ وتجمع حولها المعجبين بأدبها وعبقريتها .

* * *

قلت إن مى لم تطق انفضاض المعجبين بجمالها عنها . وكان هذا أحد الأسباب ، بل لعله السبب الوحيد ، لانهيار شخصيتها ، ذلك لأنها لم تقنع بالتبريز فى الأدب . ولو كانت قد قنعت به لوجدت فيه العوض مما فقدت من جمال الجسم عقب الخمسين من عمرها . ولعلها كانت عندئذ تحتفظ بسلامة نفسها وعقلها .

ولكنى مع ذلك ، حين أتأمل أدب مى ، أجده أدب الحلاوة والطرافة فى الجملة الناعمة للمعنى الناعم . ولست أجد فيها أدب المذهب والمبدأ والكفاح ، هذا الأدب الذى يضنى الأديب ويتعبه ولكنه يحييه أى يحيي نفسه .

لم تكن مى تحيا بأدبها . لم تكن مكافحة .

ذلك أنه حين يكون الأديب مكافحاً يبقى ، مع تعبه وعرقه ، مؤملا متفائلا يحيا عن قصد ، ويرمى إلى هدف ، ويتابع حركة التطور فى

يقظة واهتمام . وعندئذ يحس أنه حى وكأنه لن يموت . وهذا الإحساس يزيد نفسه سلامة كما يزيد جسمه صحة . بل يطيل عمره .

كانت مى تكتب أحياناً كما لوكانت هاوية فقط تتصيد المعنى الأنيق وتتخير الكلمة الحلوة . وتقنع بذلك .

ولو أنها قد دعت إلى حرية المرأة فى مصر أو إلى المذهب الاشتراكي لوجدت ، فى الكفاح لهذه الدعوة ، ما يملأ نفسها وعقلها معاً باهتمامات متجددة . بل كانت تجد من الحوار بين من كانت تسعد بهم وتفخر بإعجابهم أكثر مما كانت تسعد أو تفخر بأولئك الذين أعجبوا بجمال شبابها .

ولكن مى كانت معذورة فى إحجامها عن الكفاح . إذ كانت تعرف أنها لو دعت إلى تحرير المرأة فى مصر وكافحت لتحقيق ذلك لوجدت نفوراً عظيماً لأنها لم تكن مصرية ولم تكن مسلمة . ثم كانت تعرف أنها لو دعت إلى الاشتراكية لانفض عنها أصدقاؤها الأثرياء كما كانت الحكومة تتعقبها بالاضطهاد وتطاردها حتى تخرجها من مصر .

إن أدب الكفاح ، أى كفاح إنسانى ، يجعل المؤلف يحس أنه يحمل رسالة مقدســة لا يبالى إلى جنبها ما يقع به من كوارث . ولكن مى آثرت ، مضطرة ، ممارسة أدب الصالون على أدب الكفاح . فلما انطفأ بعض المصابيح فى الصالون لم تعرف ما تصنع . فاستسلمت للموت .

مؤلفات الأستاذ سلامه موسى

وتواريخ صدورهم

مقدمة السبرمان . . . . (دار الهلال) ١٩٠٩

الإشتراكية . . . . (مطبعة جرجس فيلوثاوس) ١٩١٢

الجريمة والعقاب للدستوفسكي (ترجمة . مطبعة جرجس فيلوثاوس) ١٩١٢

المستقبل (مجلة أسبوعية صدر منها ١٦ عدداً من مطبعة الشيخ يوسف الخازن) ١٩١٤

أشهر الخطب ومشاهير الخطباء . . . . . (دار الهلال) ١٩٢٣

أشهر قصص الحب التاريخية . . . . (دار الهلال) ١٩٢٤

أحلام الفلاسفة . . . . (دار الهلال) ١٩٢٥

مختارات سلامه موسى . . . . (المطبعة العصرية) ١٩٢٦

حرية الفكر وتاريخ أبطالها . . . . (دار الهلال) ١٩٢٧

العقل الباطن . . . . (دار الهلال) ١٩٢٧

أشهر الصور . . . . (دار الهلال) ١٩٢٨

اليوم والغد . . . . (المطبعة العصرية) ١٩٢٨

نظرية التطور وأصل الإنسان . . . . . (المطبعة العصرية) ١٩٢٨

المجلة الجديدة شهرية ١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣٤ إلى ١٩٤٢ (مطبعة المجلة الجديدة)

المصرى مجلة أسبوعية . . . . . . (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٠

ضبط التناسل ومنع الحمسل بالإشتراك مع الدكتور كامل لبيب
(مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٠
غاندى والحركة الهندية . . . . . (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٤
مصر أصل الحضارة (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٥ (ثم المطبعة العصرية) ١٩٤٧
التجديد فى الأدب الإنجليزى الحديث (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٦
النهضة الأوربية . . . . (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٦
السيكلوجية فى حياتنا اليومية . . . (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٦
الشخصية الناجحة . . . . (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٤٣
البلاغة العصرية واللغة العربية . . . . . (المطبعة العصرية) ١٩٤٥
كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين . . . (المطبعة العصرية) ١٩٤٦
التثقيف الذاتى . . . . . . (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٤٦
عقلى وعقلك . . . . (دار الكاتب المصرى) ١٩٤٧
فن الحياة . . . . (مكتبة الانجلوالمصرية) ١٩٤٧
تربية سلامه موسى . . . . (دار الكاتب المصرى) ١٩٤٧

مؤلفات أخرى لسلامه موسى

بعد ١٩٤٧ ألف الأستاذ سلامه موسى هذه المؤلفات :

١ ــ التثقيف الذاتى (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٤٩ القاهرة
٢ ــ فن الحب والحياة . . (مطبعة أخبار اليوم) ١٩٥٣ القاهرة
٣ ــ الشخصية الناجحة . . . . (مكتبة الخانجى) ١٩٥١ القاهرة
٤ ــ عقلى وعقلك . . . . (مكتبة الخانجى) ١٩٥٢ القاهرة
٥ ــ محاولات سيكلوجية . . . (مكتبة الخانجى) ١٩٥٣ القاهرة

٦ ــ كتاب الثورات . . . (مكتبة العلم للملايين) ١٩٥٤ بيروت
٧ ــ الأدب للشعب . . . (مكتبة الانجلو المصرية) ١٩٥٥ القاهرة
٨ ــ دراسات سيكلوجية . . . . ( ) ١٩٥٦ القاهرة
٩ ــ المرأة ليست لعبة الرجل . . . ( ) ١٩٥٦ القاهرة
١٠ ــ برنارد شو . . . . (مكتبة الخانجى) ١٩٥٦ القاهرة
١١ ــ تربية سلامه موسى . . (مكتبة الخانجى) ١٩٥٦ القاهرة
١٢ ــ الأدب والحياة . . . . . (دار النشر) ١٩٥٧ القاهرة
١٣ ــ أحاديث إلى الشباب . . . . (مكتبة مصر) ١٩٥٧ القاهرة

